
3
3
رواية
منى سلامة
احكي يادُنيَازَاد
رَايَاتُ الشِّوْق
عصير الكتب



أسرارًا تُخفيها النجمات



الكتـــــاب: احكي يا دنيازاد ج 3
المـــؤلـــف: منى سلامة
تنسيق داخلـي: سمر محمد
تدقيق لغـــوي: نرمين عياد
تصميم الغلاف: عبد الرحمن الصواف
الطبعة الأولـى: يناير 2021
رقم الإيـــداع: 2020/20089
I .S .B .N: 978-977-992-131-0

المدير العام: محمد شوقي
مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس
00201150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

رواية

منى سلامة

أحكي يا دُنيازادَ

رَايَاتُ الشِّوْقَ

رايات الشوق

الجزء ٣

كان يا ما كان

في زمنٍ من الأزمان

رأيتُ إنسانًا قلبه مشطور

نصفٌ فوق السحاب محمول

ونصفٌ بين الطين مغمور!

خلف الستار ثمة أرق
يصول ويجول في حارات الأفق
يشحذ التفكير في عقول نهمة
لفهم الحياة بشكلٍ أدق!
وكانت «قمر» تُعاني الأرق
وفي قلبها شيء من حسد
يغيظها نصيب أختها «الشمس»
من نور له في القلوب نصيب الأسد!
فبكت ذات ليلة والناس نيام
فرشت بضاعتها من الأحزان والآلام
في عرض السماء وأضمرَتْ
خبث النوايا وتدثّرتْ
بحلو الخصال وتجمّلَتْ!

قالت لأختها أخاف الظلام
انقذيني من بؤس الليالي كي أنام
بدّلي مقعدينا في قلب السماء
يوم واحد في عُرف الأنَام
فأصير «شمس» وتمسين «قمر»!
وافقت الشمس صاغرة
ولأختها الحب مُضمرة
وبعد يوم من الانبهار
رفضت «قمر» ترك النهار!
تلوّنَتْ بلون ذهبي
وتجمّلت بعِقدٍ ضوئي
وحُبسَتْ الشمس في الليالي المظلمة
تُعاني سهام الخيانة المؤلمة!

فتبدّلَتْ قلوب الناس وتحوّلَتْ
إلى حُب الشمس البيضاء
ومن حولها النجوم في دثار السماء
ينظرون إليها ملء عيونهم
ويبوحون إليها بهمومهم!

وأضحتْ «قمر» براقة وساطعة
مثل قطعة من الذهب لامعة
إليها لا يقوَى الناس على النظر
إلا إذا مالت تغرب وذابت إلى شفق!

الليلة الخامسة عشر

التضحية في سبيل مَن لا يستحق

مثل سكب الماء من قمة جبل؛

لا أرض خصبة لتنبت، ولا أفواه ظمأى لتُروَى!

(١)

الناس وحوش ضارية تودّ الفتكَ بها وبأختها، إنهم يتآمرون عليها، ويسوقونها صوب الهاوية. طاقتها على الحماية أوشكتْ على النفاد، والجميع يتلاءم ويتآمر كي يقطع الوصل بينهما.

تتحرك «دهب» في غرفتها مثل حيوان يستعد للذبح، سيتخذها الناس على أعتابهم أضحية لإشباع رغباتهم المريضة. الناس مرضى، كلاب مسعورة تودّ لو تنهشها وتُمزّق لحمها.

فتحت الدولاب واختبأت بداخله وكأنه حصن منيع سيمنع عنها أذى الناس وشرورهم. تهذي بهمهمات غير مفهومة، وكأنها ساحرة من القرون الوسطى تُلقي بتعويذة حماية من البشر.

ترتعب، ترتعد، تنتظر الخلاص من الشخص الوحيد الذي يهتم لأمرها، أختها. لم تتعلم ولم يستقر بقلبها أن لها ربًّا تلجأ إليه أوقات الخطر، والألم واليأس والقهر والغضب. لم تتعلم أن لها ربًّا جوّادًا كريمًا، يُنزل الرحمات من السماء أمطارًا فوق رؤوس من أحبّهم من عباده.

لم تتعلم كيف يسكن الرضا قلبها، زاحَمه الجزع، والوساوس، والقلق، فامتلأ بكل ما أفسَد فِكرها.

ولأنها لم تعرف طريق الرب الذي يمنع ويمنح، صنع عقلها من أختها إلهًا لا يموت! له قدرات تفوق تلك التي وُهِبَتْ للبشر، له صفات القوة والقدرة والعفو والكرم! وإن حادَتْ أختها عن القالب المصقول، أو تقاعستْ عن أداء دورها المرسوم؛ أعدّتْ ذلك خيانة لا تُغتفَر.

سمعت طرقات على باب الغرفة، توجسّتْ في نفسها خيفة، وما إن سمعت صوت أختها حتى فتحت الباب وارتمت بين أحضانها، تضمها إلى صدرها بقوة، بقسوة، تبتلعها!

تُفكر في خطة مُحكمة للنجاة وأختها من الخطر. لا يمكنها خسارة «شفق»، يجب أن تنقذها من قاع الجحيم الذي يدفعها الناس كي تهوي فيه، حتى وإن كان ذلك بإخفائها في قاع البحر.

وفي ومنتصف اليوم اتصلت بوالدها لتقول له:

- ابنتكَ التي تثق بها كثيرًا وتحبها أكثر مني ستطعنكَ في ظهركَ غدًا في المحكمة.. ستكون حليفة في صفوف عدوك.

شعر العُمال أن شيئًا ما تغيّر في «غراب» خلال ليلة واحدة، وكأنه تبدّل بإنسان آخر؛ لا يمازحهم، لا يشاركهم الحديث والطعام وفترات الراحة، يؤدي عمله بروتينية إنسان آليّ لم يُصنع إلا للعمل.

وظنّ أحدهم أنه يؤدي معروفًا إليه إذا أخبر «شفق» أن الريّس «غراب» ليس بخير. ما زالت تذكر كيف هرب من أمام الخالة «نوّارة» بالأمس في معمل التحاليل، ونظرة الفزع التي امتلأت بها عيناه.

لم تستطع أن تمنع نفسها من سؤال الخالة إن كانت تعرف رجلًا باسم «غراب السيناوي»، فكّرتْ الخالة للحظات ثم هزّت رأسها نفيًا مؤكدة أنها لا تعرف هذا الاسم!

الخالة لا تعرفه، لكن بالتأكيد هو يعرفها، يعرفها إلى درجة أن يفزع لرؤيتها، تضطرب قسماته، وتتلجلج خطواته.

والآن يُخبرها أحد العمال أنه ليس بخير. دنتْ منه فانتفض، اعتذرتْ أن فاجأته فصمتْ، سألته إن كان يواجه مشكلة فانفعل:

- وما شأنكِ بذلك؟

أغاظتها إجابته، دفعت تُهمة الاهتمام عن نفسها قائلة:

- أحد العمال أخبرني أنكَ تُعاني أمرًا فظننته متعلقًا بالعمل.

وقعت أنظاره على خاتمها؛ اغتمّ، هبّ واقفًا يقول بانفعال:

- أين خطيبكِ؟ أنا لا أراه هنا.

سألته باهتمام ممزوج بالقلق:

- هل حدثت بينكما مشكلة؟

احتد أكثر، حافظ على انخفاض صوته وحركات جسده كيلا ينتبه العمال إلى الصراع المحتدم بينهما:

- وما الذي يجمع بيني وبين خطيبكِ حتى تحدث بيننا مشكلة؟

سألته بحدة مماثلة:

- لماذا تسأل عنه إذن؟

- لأنه المهندس المشرف على هذا المشروع.. لماذا لا يقوم بعمله.. لماذا عليّ أن أتعامل معكِ؟

قالت باستهجان كبير:

- هذا شرطكَ من البداية!

أجابها ساخرًا بشدة:

- هل اشترطتُ العمل معكِ؟ متى حدث ذلك؟ في أحلامكِ!

أعجزتها وقاحته عن الرد للحظات ثم قالت بقوة:

- اشترطتَ عدم حدوث مشكلات وأنا هنا لضمان ذلك.

- وهل خطيبك رجل مشكلات؟ هل ترافقينه في كل مشروع كي تمنعي وتُعالجي المأزق الذي يقع فيه مع العمال؟

- لم أفعل ذلك من قبل.

- لماذا تفعلينه الآن إذن؟ اذهبي وقومي بعملكِ في الشركة.

ظنّ أنها عند هذه النقطة ستثور غضبًا، وستبتعد عنه مُفارقة، وهذا ما يحتاجه الآن، مساحة خالية من الشفق.

لكنها قالت بالحزم ذاته وهي تُشبِّك ذراعيها آمام صدرها:

- فعلت ذلك لأن أبي هددني بتغيير محامي القضية إن لم يستمر العمل في المشروع.. ولا أضمن أن يحاول المحامي الآخر التعامل معك بخسة.. أنا أضطر إلى التواجد في هذه الصحراء وتحت هذه الشمس الحارقة يوميًّا كيلا تتعرض أنتَ للظلم وتدخل السجن.

حُفرة الغضب التي أراد إلقاءها بها هوى هو حتى بلغ قاعها:

- لم أطلب ذلك.. لا أريدك أن تفعلي أي شيء لأجلي.. قومي بدورك كمحامية للشركة ولا تفعلي أكثر من ذلك.

بعناد لا يتزعزع قالت:

- لست أنتَ من يملي عليّ ما أفعل وما لا أفعل.. ضميري وحده يفعل.. سأساعدك سواء أحببتَ ذلك أم كرهته.

ما زالتْ على عهدها ولم تتبدل، تحسَب أن لها قوة خارقة تؤهلها لحماية جميع من حولها، حتى وإن تأذّتْ في سبيل ذلك. كرَه ذلك وأحبه في الوقت ذاته. الكره والحب وجهان لعُملة واحدة؛ التعلُّق.

شيء من الندم ساوره على الأسلوب الذي خاطبها به، وانفجاره في وجهها دون أن تعلم بالحريق الذي يشتعل بداخله في كل مرة يراها وتقع أنظاره على الباب الذهبي الذي أقامته بينهما. أراد التنفيس عن النار كي تهدأ، لكنها استعرتْ أكثر.

تمتم بالاستغفار همسًا كي يُجلي غضبه. أما هي فلم تتحرك، وقالت بعد فترة صمت لم تطُل:

- أعرف ما الذي يوترك.

اضطربت قسماته، هل عرفتْ أنه الصوت الذي حدّثها تلك الليلة؟ أم تُرى أن الخالة «نوّارة» أخبرتها عن سوءَة فعلته؟ هل تعرّفتْ وجهه رغم السحابة البيضاء التي غطّتْ عينيها؟ هل باحتْ لـ «شفق» بذنبه؟

نظراته المُرتبكة دفعتها لتُطمئنه رغم انزعاجها من الأسلوب الذي خاطبها به:

- موعد الجلسة غدًا في محكمة العريش.. يجب أن يُقدم محاميكَ دليل براءتكَ.. هذا ما يوتركَ.

أخذَ نفسًا عميقًا بعدما كتم أنفاسه لثوانٍ، لم تخبرها الخالة إذن! ولعلها لم تتعرّفه كذلك. قال بنبرة أهدأ:

- هذا ما سيحدث بالفعل.. غدًا سيطلب المحامي من القاضي ضم الدلائل التي جمعها إلى ملف القضية.

شعرت براحة كبيرة، حِملٌ ثقيلٌ يسقط عن كاهلها، ستنتهي القضية إذن. قالت بحزم وما زال الانزعاج منه باديًا عليها:

- جيد.. هكذا لن يتلاعب أحد بالدليل.. وستسقط التهمة في حقكَ على الفور.

ثم آضافت:

- سأكون هناك في الغد.. ولا داعي لأن يساوركَ الشك.. لن أعترض على الدليل ولن أطعن في صحته.

تركته واقفًا في مكانه يتجرّع الندم إذ أزعجها بحديثه، ثم اختفى الندم بغتة، إذ تذكّر الفخ الذي وقع فيه، وخطبتها غير المبررة، جزّ على أسنانه هامسًا: تستحق ذلك، قلتُ لها سأعثر عليكِ، فهمَتْ أنني أردتُ أن أستكمل معها حكاية النجوم، لكنها لم تنتظر!

زفر بقوة وهو يعود ليلوم نفسه قائلًا: لماذا تغضب عليها، لماذا تشعر بالمرارة تملأ حلقكَ كما لو أنها خانتكَ؟ هي لم تعدكَ بشيء، وليس معنى أنكَ شعرت خلف الباب المغلق أنها الشخص المُنتَظر، وعقدتَ عليها آمالًا جميلة وأحلامًا وليدة أن لزامًا عليها أن تشعر اتجاهكَ بالمثل، كُن مُنصفًا.

سحقًا لهذه المضغة التي تنبض داخل صدره، لا يسري كلامه عليها.. تتمرّد عليه، وتتفلّتْ برغباتها. عنّف نفسه، إنها مخطوبة لرجل آخر، لا يصح أن يُفكر فيها، أو يتمنّاها، أو تمر بخاطره كامرأة استمال قلبه إليها، ليس هذا من الرجولة أو المروءة في شيء.

لكن العلم بالخطأ والصواب أمر، وإجبار الجوارح على التزام جانب الصواب أمر آخر، لذلك لا يُحاسب الله على ما حاكه الصدر ولم يصدق عليه العمل، ما دام يُجاهد نفسه ولا يتمادى.

ما أعجب هذا القلب الذي يتعلق مثل الطفل، ويتمرّد مثل مراهق، ويتهوّر مثل شاب، ويُقاسي مثل عجوز جفّ منه رحيق الحياة.

شعر بصدى اسمها يتردد في صدره آلاف المرات، مثل خطيئة سِر!

في استراحة الغداء فتح بيانات الإنترنت في هاتفه، كتب اسمها واسم خطيبها ثم انتظر نتائج البحث متوترًا وهو يُحرّك قدمه بعصبية.

يجب أن يقطع حبل الوصال الذي يشد قلبه إليها، ولا سبيل إلى ذلك إلا إذا أراح عقله من جانب خطبتها، هي سعيدة واختارت «أكمل» بمحض إرادتها، ونبذته ونجماته وحكاياته من وراء الأبواب، يحتاج لأن يؤكد ذلك لنفسه.

على الإنترنت لم يعد ثمة خصوصية، فلم تمضِ سوى نصف ساعة حتى كان قد تصفّح جل الأخبار المتعلقة بها وبه وبخطبتهما المفاجئة. تفاجأ الجميع بالخطبة السريعة، وكأنه شيء غير متوقع مثل التقاء السماء بالأرض.

شاهد فيديو للحظة وصولهما من «الصين»، عندما أنقذت الموقف بحديثها الرصين، تذكر كيف شهدت بضربه يوم التقاها على الطريق، وأكّد خطيبها أقوالها، هل من الممكن لفتاة مثلها تزن الكلمة والفعل بميزان دقيق أن يميل قلبها لرجل ليس له باع في حسابات الرجولة، والحساب الوحيد الذي يملكه هو حسابه البنكي؟

عرف أيضًا باعتراض آمها على خطبتهما، والشك الذي يساور الناس من هدف تلك الخطبة المفاجئة، والذي ألصقه الجميع بالمصالح بين الشريكين.

هكذا إذن، زواج مصلحة. كاد أن يركن لوهلة إلى هذا التفسير، لكن.. هذا ليس من شيمها أبدًا!

قطب جبينه وهو يُفكِّر في كل مرة رآهما معًا، لم تبدُ له سعيدة على الإطلاق، ولم يشِ حديثها عن «أكمل» بأي لمحة من التقدير، بل صورته التي يشعر أنها تنطبع في ذهنها أنه شخص أهوج لا يستطيع حتى أن يؤدي عمله بإتقان!

ورآه هو شخص مُرفّه لا يتحمل قسوة العمل، ولا يستطيع مواجهة صعوبات الحياة، شخص يعتمد على الرفاهيات ولا يستطيع الحياة دونها، لا يُشاركهم صلاة الجماعة إلا إن كانت خطيبته حاضرة!

ما الذي حدث خلال أسبوع واحد من بعد الحادثة حتى تعود إلى العريش مخطوبة لرجل مختلف عنها بهذا الشكل؟ لو لم يعرفها لظن مثل الناس أنه زواج مبني على المصلحة، لكن الأقرب لحدسه أنه زواج مبني على الهرب!

إنها تهرب فحسب، كما اعتادتْ أن تفعل، لكن ممن تهرب؟ منه؟ لماذا؟

أغضبه ذلك أكثر، سحق الهاتف في يده بقوة، كم يكره ضعفها!

---

(٢)

لا شيء يبقى سرًا في الصحراء؛ تحمل الرياح أخبار الجميع وتوزعها في كل حدب وصوب. بلغ أسماع «بحر» خبر زواج «جبار» القريب، أخذ الأمر بمحمل ساخر في البداية، تندّر مع الناس على الرجل الذي سيتزوج من الثالثة في وقت قصير.

لكن السخرية انقلبت همًّا وغمًّا ولوعة عندما تناقل الناس اسم العروس، «مدينة»!

ثارتْ ثائرة الـ «بحر»، وطفقتْ موجاته تلطم الأرض من كل اتجاه. اعتلى صهوة حصانه ثم انطلق به مثل السهم من القوس المشدود اتجاه أرض «السخاوية».

«جبار» سيتزوج «مدينة»، يا لها من مهزلة. من المستحيل أن يُفكر «جبار» في الزواج من الفتاة التي أسقطتْ هيبته أمام الجميع، إنما أراد أن ينتقم!

«جبار» الذي كان يجوب أرض شيخه ويُباشر عُمال اليومية ابتهجت سحنته عندما رأى «بحر» مقبلًا عليه وعلى وجهه أمارات الغضب.

كان يعرف أن «بحر» يصير رجلًا جموحًا حين يمس أحدٌ شيئًا يُحبه، لكنه لم يحسب أنه بذاك الجموح. تضاعفت بهجته عندما أمسك «بحر» بتلابيبه يقول:

- ما شأنكَ بابنة «طحنون» يا «جبار»؟

تظاهر «جبار» بالبراءة وقال:

- أتقصد عروسي يا «بحر»؟ غريب أمركَ.. بل ما شأنكَ أنتَ بها لتذكرها؟

تقافزت الشياطين أمام عينيه وهو يقول:

- نويتُ آخذها لنفسي يا «جبار».. وشيخ «السوارفة» يعرف.

كان محقًّا، «مدينة» هي القلب الذي سيطعن فيه «بحر» طعنة نافذة. أزاح «جبار» يدي «بحر» التي تقبض على ملابسه، عدّل منها وقال بصفاقة:

- لكن شيخ «السخاوية» لا بد أن له رأيًا آخر يا «بحر»، ألا تعرف عادات قبائلنا؟ لا يتزوج «السخاوي» إلا من «سخاوية»، وأخذكم لأختي كان رغمًا عني.

ثم أضاف بجشع:

- لكنني سأستردها منكم.

حين علم «جبار» أن «عِيدة» قد أنجبت فتاة طاش عقله، وكاد يعزم على قتلها ليتخلّص من مُعايرة بعض أقرانه إياه بأنه أهدى أخته للسوارفة لتكون فداءً له، لولا أن أتاه رسول «حَمَد» يطلب منه المجيء لأخذ أخته حتى يأذن الله بطلاقها.

فبدا «جبار» مُنتعشًا أكثر من أي وقت مضى، استرد أخته، وطعن «بحر»

في قلبه، وسيتجهّز بعد زواجه من «مدينة» لتسديد الطعنة الثانية التي لن يرفع بعدها «بحر» وجهه عاليًا كما يفعل الآن؛ كشْف سوءة «مُسفر».
قال بانفعال وقد أخرجه الغضب عن طور التعقل والحكمة:

- ابتعد عن ابنة «طحنون» يا «جبار»، أعلم أنكَ لا تريدها.. إنما تريد إغاظتي فحسب، لعلكَ رأيتني أتحدث إليها فأردتَ الانتقام من كلينا يا حقير النفس.

كتم «جبار» ما حدث عندما أعلن لـ «طحنون» رغبته في الزواج من ابنته، لم يخبر «بحر» أن «مدينة» هتفت به وبأبيها: موافقتي شرط لصحة الزواج وهذا لن يحدث أبدًا.

رغم العذاب الذي ألحقه بها «طحنون» ما زالتْ في أنفاسها القوة لتقول «لا»، ولم تكتفِ بـ «لا»، بل وقفتْ على قدميها وصاحت بوجهه: أموتُ ولا أتزوج برجل مثلكَ.

اغتاظ «جبار» لتلك الذكرى، لم يُبالِ بارتفاع صوته وهو يقول مُعنّفًا:

- لو تحدّثتَ مرة أخرى عن زوجتي المستقبلية يا «بحر» سأذهب إلى كبيركَ وأطلب حقي كما جئتَ إلى شيخنا مطالبًا بحقكَ.. ألا تعرف أن ذِكر زوجات الآخرين عيبة في حق الرجال.. كيف تكون ابنًا لشيخ «السوارفة» وأنت خالٍ من الرجولة بهذا القدر؟

أمسك «بحر» بتلابيبه مرة أخرى هادرًا:

- اخرس يا «جبار».

لكن «جبار» لم يخرس، بل هتف بحقد:

- قريبًا سأحطم أنفكَ الذي ترفعه عاليًا.. سأكسر نظرات عينيك التي ترمقني من ارتفاع شاهق كما لو كنتُ صرصورًا يسير على الأرض.. قريبًا سأسقط أسطورة أن رجال «السوارفة» شرفاء لا تمتد أياديهم ولا أعينهم لما في أيادي غيرهم.. قريبًا سأجعل سيرة أخيكَ «مُسفر» على كل لسان.. أخيك السارق الذي ارتكب ما يعدّه «السوارفة» جريمة شرف.

- كاذب.. أنتَ لستَ أكثر من حقير كاذب.. ولطالما حذّرت «مسفر» من مصادقتكَ.. ليته استمع إليَّ.

- سنرى إن كنت كاذبًا.. أم أن أخاكَ قد ارتكب بالفعل جريمة ما يندى له الجبين.

كاد أن يضرب وجهه بقبضته، ويهشم أنفه، ويُسيل الدماء أنهارًا من جسده، لكنه توقّف في آخر لحظة، وقفل راجعًا على صهوة جواده، يهدر صارخًا كما تهدر الأمواج في العواصف العاتية.

يستمر وزنها في النُقصان، وكأنها تتبع حمية قاسية. تُحاول والدتها أن تُطعمها مما أعدّته من طعام شهي، لكنها فقدت شهيتها للطعام وللكلام.
لا تتحدث طوال اليوم إلا بكلمات معدودات. الفرحة تتقافز في وجوه مَن

حولها، لا يدري آي منهم الخوف الذي يُعشش في صدرها.

لم تعد تلتقي بـ «بحر» صدفة في الطريق، يقول أبوها لإخوانها في ابتهاج أن «بحر» مشغول بالإعدادات للعُرس، تعلم علم اليقين أن شغفه باقتراب العرس غير موجود، إنما يؤدي الدور المطلوب منه كيلا يضطر إلى مفارقة القبيلة.

شعرت بالاختناق؛ تركت البيت وظلّتْ تبحث عنه في الطرقات علها تلتقيه صدفة كما كانت تفعل من قبل. ساقتها قدماها إلى «أم ذيل» في بيتها، والتي اندهشت لمرآها قائلة وهي تتأمل وجهها بعناية:

- ماذا هذا يا «عين»، أنتِ تستمرين في فقدان الوزن يومًا بعد يوم.

حاولت أن تخفي عروق كفّيها البارزين خلف أكمام ردائها، بدت تصرفاتها عصبية وكأنها مرجل يغلي فيه الماء. وعندما سألتها «أم ذيل» بحنان أم:

- أخبريني ماذا بكِ يا «عين»؟

وجدتْ في نفسها القوة لتقول:

- أنا خائفة جدًّا.

تفاجأتْ «أم ذيل» بكلامها. استطردت «عين»:

- خائفة من الزواج من «بحر».

ضحكت «أم ذيل» حتى علا الضيق قسمات «عين»، ثم قالت لها:

- أليس هذا ما كان مُقدّرًا يا «عين».. أليس هذا ما انتظرتِه لسنوات؟

حاولت أن تعثر في قاموس مشاعرها على المرادفات الصحيحة وهي تقول:

- أشعر أن «بحر» الذي أتذكره في طفولتي مختلف عن «بحر» الذي أراه الآن.. بعد ذهابه إلى الشمال.. ودراسته.. وسفره.. تغير كثيرًا.. صار مخيفًا.

- مخيفًا! كيف يا «عين»؟ «بحر» هو «بحر».

- أكان هكذا في صغره؟

- نعم كان هكذا طوال عمره.. حتى من قبل السفر والدراسة، لم يتغير فيه الكثير، ربما فقط صار أكثر تمرّدًا على قوانين القبيلة.

هتفت «عين» وكأنها وجدت بغيتها:

- نعم هذا ما أقصده.. وكأنه لا يعرفنا ولا يعرف عاداتنا.. يريد أشياء لم يرِدها سواه.. يتعامل وكأنه يعرف ما لا نعرف.. ويرى ما لا نراه.. وحين يغضب أرى نارًا تشتعل في عينيه.. وقسوة تلتصق بنبرة صوته.. يكون مخيفًا جدًّا.

فكَّرتْ «أم ذيل» قليلًا ثم قالت:

- الرجال مثل «بحر» يقف الزواج مثل السد المنيع أمام هيجانهم.

اغتمّتْ «عين» وهي تقول:

- أتقصدين أن زواجه مني سيكون مثل القيد في معصميه؟

- نعم سيكون كذلك.

نظرت لها «عين» باستنكار، فقالت «أم ذيل» بحزم:

- ولهذا أريده أن يتزوج منكِ.. «بحر» يحتاج إلى قيد وإلا جعله تمرده يخسر كل شيء.

ابتلّتْ مقلتا «عين» بالعبرات وهي تقول:

- لا أريد أن أكون قيدًا لأحد.

- لكنكِ أردتِ الزواج من «بحر».

استنكرت «عين» خجلة:

- لم أرد شيئًا.. الجميع أراد ذلك.. وبدا وكأنه قانون لا يجوز مخالفته.

- لكنكِ أحببتِ هذا القانون.

- أحببتُ القانون.. وليس القيد.

- وما الفارق يا «عين»؟ كلاهما إلزام.

- كلا.. القانون يُمكن بعد فترة أن يكون مُحبّبًا.. حينما يدرك الإنسان أنه يعمل لصالحه.. لكن القيد...

تساقطت عباراتها وهي تقول:

- لا أحد يحب القيد.

ربّتت «أم ذيل» فوق كتفها وقالت:

- كل هذا وسوسة شيطان.. استغفري الله ودعي عنكِ تلك الوساوس.

ندمتْ على مجيئها إلى بيت «أم ذيل»، بل ندمت أكثر على الحديث عما يخيفها، لأن ما سمعته من حقائق أخافها أكثر!

لم ترغب في العودة إلى بيتها، وجدت ساقاها تقودانها صوب بيت «عِيدة»، مرّتْ عليها كي تستأنس بحديثها، فـ «عِيدة» تفهمها كما لا يفعل غيرها. وعندما جلست الفتاتان على الأريكة ورفعت «عين» برقعها صاحت «عِيدة»:

- ألا يُطعمونكِ في البيت يا «عين»، صرت مثل ورقة الشجر الذابلة.

بادرتها «عين» قائلة:

- «عِيدة» أريد أن أسمع منكِ ما يُطمئنني.. لا تكوني مثل «أم ذيل» أرجوكِ.

لوت «عيدة» شفتيها وهي تقول:

- لماذا تشبهينني بتلك المرأة.. بالطبع لستُ مثلها.

استبشرت «عين» وهي تبوح لها بمكنونات نفسها، ثم ختمت بوحها بـ:

- أنا خائفة، مرعوبة، لا آكل، لا أنام، أشعر أنني سأجن.

- وما الذي يُخيفكِ؟

- الزواج من «بحر».

- اسمعي يا «عين»، أنتِ صغيرة وسامحيني جاهلة جدًّا.. خبرتكِ في الحياة صفر كبير مثل قرص الشمس.. الزواج من هذا الرجل الذي لا أطيقه هو عين العقل.. تخافين منه؟ كل الرجال مخيفون متى فعلتِ ما يغضبهم.. ستتزوجين ابن شيخ القبيلة ماذا تريدين أكثر من ذلك؟

هتفت «عين» بحزم:

- أريد أن أطمئن فحسب، هل هذا كثير؟

- الأمان في المال والجاه والنسب الشريف وأن تعيشي في أرضكِ ووسط أهل قبيلتكِ.

- أشعر أن «بحر» ليس له كبير.. قوانينها تحمينا.. لكنه يتمرد عليها.. ويجعلني أدفع ثمن تمرده.

- إذن تمردي أنتِ أيضًا.

هزَّتْ «عين» رأسها نفيًا بقوة:

- لم أتعلم التمرد.. لا أريد أن أتمرد.. أريد أن أطمئن فحسب.. أريده أن يقول لي لا تقلقي يا «عين» سأبذل ما بوسعي من أجل بيتنا الصغير.. لا تخافي أنا ابن عمكِ قبل أن أكون زوجكِ ومهما تمردتُ على القوانين لن أتمرد أبدًا على رابطة الدم بيننا.. هذا ما أحتاج إلى أن أسمعه.

- اطلبي منه أن يُسمعكِ إياه إذن.

علت شفتيها بسمةٌ مريرة وهي تقول:

- هذه الكلمات لا تُطلَب.. بل تُهدَى.

قالتها وتجهّزتْ للمغادرة. ما إن أغلقت «عِيدة» الباب حتى خرج «حَمَد» من غرفتيهما قائلًا بانزعاج شديد:

- لماذا أدخلتِها بينما أنا في البيت؟ لم أستطع الحركة مخافة أن تعرف أنني بالداخل.

ردّتْ «عيدة» ببرود:

- كنتَ نائمًا.

أجابها مغتاظًا:

- حتى ولو كنتُ نائمًا.. لا يصح أن تُدخليها بيت به رجل ليس من محارمها.

قالت مدافعة عن نفسها:

- ربما كانت تعرف بالفعل أنك بالداخل.. وأرادتْ أن تسمعها كي تُحنن قلب أخيكَ عليها.. تجهل أنتَ مكر النساء يا «حَمَد».

احتد «حَمَد»:

- انتبهي إلى كلامكِ يا «عِيدة» عندما تتحدثين عن ابنة عمي.. لو كانت قد عرفتْ أنني بالداخل ما كانت ستخطو خطوة واحدة داخل بيتكِ.

احتشدت البرودة في شفتيها وعينيها وهي تقول مُستفزة إياه:

- هذا ليس بيتي يا «حَمَد»، وعندما يأتي أخي لأخذي سأرحل عنه.. إياكَ أن تنسى ذلك.

أجابها بصرامة لم تعتَدها:

- لم أنسَ.. ولن أنسى!

حين توجه إلى الباب سمعها تسأله:

- ألن تأكل؟

رمقها بنظرة ذات مغزى ثم قال:

- لا أستطيع أن آكل قبل رؤية ابنتي.

الباب الذي غُلق بينهما منعه من رؤية عبرة تكوّنتْ في عينيها، وألمٍ نخز صدرها. مسحت العبرة سريعًا ثم قالت لنفسها: بقيَ القليل وستكونين حرة من جديد.

تصادفا أخيرًا، أو لعلها من خلقت أجواء الصدفة بنفسها. كان يسير في الطريق شاردًا؛ مرّ بجوارها ولم يرَها. إلى هذا الحد هي شفافة في عالمه؟

نادته باسمه؛ التفتَ إليها، لا تدري لم نادته، ولم أرادتْ مصادفته. تنتظر كلمة أو لفتة أو إشارة تُسري الطمأنينة في قلبها.

وجهه كان مُصمتًا مثل صندوق مغلق من الأسرار، لا تهتدي إلى مفتاحه، ولن تهتدي أبدًا. قال بعُجالة وهو يتلفّتْ حوله بانزعاج:

- ما الأمر يا «عين»؟

فركتْ أصابعها ببعضها بتوتر. قالت:

- أردتُ.. أردتُ...

انتظر أن تبوح بمرادها؛ لم تفعل، وكأنها علقتْ في حلقها. عقله الشارد كان ينتقل بسرعة جنونية ما بين «مدينة» و«مُسفر»، أحدهما يريد «جبار» أن يأخذه من بين يديه، والآخر يريد فضحه. كيف السبيل لردع هذا الشيطان؟

أخرجته من شروده إذ نادتْ اسمه ثانية، قال بضيق:

- إذا كان ينقصكِ شيء أخبريني وسأشتريه.

لم تتحرك من مكانها، ولم تنطق بكلمة، زفر بقوة وهو يقول بنفاد صبر:

- ألم تسمعيني؟

- سمعتكَ، لكنني، لا أريد شيئًا يُشترَى.

لم يفهم ما الشيء الذي أرادته ولا يستطيع أن يجلبه لها بالمال، وكأن

حدود مخه قد تقلَصتْ حتى صارت آقل من آن تسع إعمال عقله. قال بجبين مقطّب:

- لم أفهم.. ماذا تريدين؟

استجمعت شجاعتها، وباحت برغبتها:

- أريد أن أطمئن.

المخاوف التي كانت تعيث بعقله في تلك اللحظة انهالت على صبره تتجرعه دفعة واحدة، حتى لم يبقَ منه شيء:

- لا أفهم ماذا تريدين، هل تلعبين معي لعبة الأحاجي؟ قولي ما تريدينه بوضوح وسآتيكِ به.

انزلقتْ من عينها دمعة لم تُبدِها. همست:

لن تستطيع.

قالتها وفارقته. طفق يضرب كفًّا بكف، عاد بتفكيره إلى همه، وضع يده على صدره يمسحه بقوة، ودّ لو قبس من النار التي تستعر به فخفف من حدة النار التي تنهشه من الداخل.

عندما لا يجد الطفيلي ما يتغذّى عليه يجف ويموت. لم يرَ «مستور» من «شفق» أي بادرة اهتمام برسائل التهديد التي أرسلها إليها، حتى إنها تأتي إلى الموقع وتُباشر العمل دون قلق!

دفعه ذلك إلى محاولة استكشاف نيتها وما تفكر فيه، هاتَفها من رقم اشتراه من بائع في الشارع، غير مُسجّل باسمه، وغيّر صوته واتصل بها يُعلمها بموعد ومكان اللقاء من أجل تسليم المال، فوجئ بها تُغلق الهاتف في وجهه! مرة واثنتين وثلاث مرات، لم تهتم بمقدار ذرة بسؤاله حتى عمّن يكون، أو عما ينوي أن يفعل في حال عدم دفعها للمال.

استشاط غضبًا؛ أمسك بخط الهاتف الجديد وكسره نصفين ثم ألقاه أرضًا. تتحداه، تجرؤ على أن تتحداه.

طفق يتحرك بجنون باحثًا عن عائل آخر، خطر «عبقرينو» في ذهنه. تبعه في أثناء خروجه من الشركة دون أن يشعر به، وعندما مرّ من شارع جانبي يخلو من المارة أمسك بتلابيبه، صاح «عبقرينو» فزعًا:

- ريِّس «مستور»، ماذا تفعل هنا؟

لم ينظر إليه كريس «مستور» بل كملك موت أتى لقبض روحه إن لم يمنحه ما يريد:

- اسمع يا هذا، ستخبرني الآن ماذا فعل هذا الـ «غراب».. ومن هو الرجل الذي يبحث عنه.

هزّ «عبقرينو» رأسه نفيًا وهو يخلع نظارته ويدسها في جيبه:

- يبدو أن هناك سوء تفاهم يا ريِّس «مستور».. أنا لا أعرف شيئًا.. أنا...

انهال «مستور» فوق وجهه بصفعتين متتاليتين، جعلت الهلع يتقافز من عينيه وهو يهتف به:

- هل جننتَ يا ريِّس «مستور»؟

- اسمع يا هذا.. أعرف جيدًا من تكون.. كلمة مني وسيطردونكَ من الشركة.. ليس هذا فحسب سيتهمونكَ بالتحايل والخداع.

نزع «عبقرينو» قبضتي «مستور» من فوق قميصه وهو يصيح به:

- أعلى ما في خليكَ اركبه يا «مستور».

«مستور» الذي لم يكن مستعدًا لفقدان هذا العائل أيضًا انهال عليه ضربًا وركلًا بغيظ. لم يكن لـ «عبقرينو» باع في شجار الشوارع؛ لم يستطع الدفاع عن نفسه، بلغ ألمه عنان السماء وهو يصرخ مُستنجدًا.

عدة ركلات صوّبها «مستور» إلى بطنه كانت كافية ليرفع كفه مُستسلمًا بمرارة، يبوح بما يكتم، شاعرًا بالضعف والمهانة، وكأنه خان الأمانة.

لم يعد في استطاعتها تجاهل الرجل الذي يُهددها، لم يعد الأمر قاصرًا

على رسائل تُدَس مع صورها أمام باب الشركة، بل أضحى على علم برقم هاتفها.

هل يكون شخصًا ما قريبًا منها يا تُرى؟ ماذا يريد منها؟ هذا ما لا تفهمه أبدًا. لو أراد مساومة الشركة لأرسل تهديداته إلى أبيها أو والد «أكمل»، لكنه أرسله إليها بالذات وكأن الشيء الذي يبتزها به، يمسها!

ستكتشف أمره، لكن عليها الآن أن تحل لغز «سهيل السخاوي» ابن الخالة «نوّارة». ما إن انتهتْ من عملها حتى همّت بالمغادرة دون مماطلة، إلا أن دخول «أكمل» قطع عليها الطريق.

تبدّتْ آثار الدهشة على وجهها مما دفعه ليسألها:

- لماذا تنظرين إليّ هكذا؟

هل يُمكن لإنسان أن يصير وجوده مثل الدخان؟ تنسى تمامًا وجود «أكمل» في حياتها، ولا تتذكره إلا حين رؤيته أمامها! مثل الدخان، لا تعرف من أين يأتي، ولا إلى أين يختفي.

- لا شيء.. سأغادر الآن.

- لن تغادري.

نظرت إلى بحيرة فأردف وقد نطقت قسماته بالضيق:

- يجب أن نتحدث.

شبّكتْ ذراعيها أمام صدرها في وضعية دفاعية، وكأنها ترى بعين الغيب أنها ستحتاج إلى أن تخوض نقاشًا دفاعيًا.

- لماذا لا تحضرين المحاضرات وتتغيبين عن الامتحانات لأسبوعين للدورة التي سجّلتُ لكِ فيها؟ ألا تعرفين أنني باتصالاتي وعلاقاتي أهديتكِ فرصة يتمناها آلاف غيركِ؟

نسيتْ أمر الدورة تمامًا، وكأنها هي أيضًا مثل الدخان، لا تذكرها إلا إذا ذُكّرَتْ بها، لا تعرف من أين أتى الحديث عنها ولا إلى أين ينتهي، ربما لأنها لا تهتم بأمر الدورة على الإطلاق.

دفعها هذا للتفكير، أيعني وجود «أكمل» الدخاني في حياتها أنه كذلك لا يهمها على الإطلاق؟

- أعتذر يا «أكمل».. كنتُ منشغلة بأمور أهم.

احتدَّ في حديثه وهو يقول:

- أمور أهم! وما هي تلك الأمور الأهم التي تجعلكِ تتجاهلين مستقبلكِ بهذا الشكل؟ منشغلة! لا تتحدثي وكأنكِ تخترعين الذرة.. أنتِ تمضين وقتكِ إما في الجلوس داخل مكتب.. أو تحت مظلة في الموقع.. أو في غرفتكِ بالفندق.

فكَّتْ تشابك ذراعيها، هي لا تحتاج إلى الدفاع، بل إلى الهجوم:

- لا أخترع الذرة يا «أكمل».. لكن لدي من المشكلات ما تعجز أنتَ عن

رؤيتها.

- بل قولي لديكِ من الحجج.. بينما أبذل أنا الجهد من أجل إنجاح تلك العلاقة.. وأحاول أن أجعلكِ لائقة بي.. أنتِ تتجاهلين ذلك و...

- لحظة.. لحظة.. تحاول أن تجعلني لائقة بكَ! ماذا يعني هذا؟

اتسمتْ قسماته بالحزم وهو يقول:

- وعدتُ أمي أن أجعلكِ تهتمين بدراستكِ وعملكِ أكثر.. تعرفين أين درستُ.. وماذا درستُ.. وفي أي الجامعات تخرجتُ.. وأي دراسات حضّرتُ.. وأي ألقاب حصدتُ.. هذا كله بفضل أمي التي علّمتني أن وزن الإنسان الحقيقي بما يحمله من علم وشهادات.

وخزتْ عينها عبرة آلمتها، قالت:

- بينما كانت أمك تعلمك ذلك.. كنتُ أنا أجاهد وحدي كي أكبر كإنسانة سوية.. أخوض حربًا مع نفسي ومع من حولي كيلا أسقط في الفتن.. لا يهمني كم من الشهادات سأجني.. أو كم من الألقاب سأحصد.. لا أريد أن أدخل هذا السباق.. إنه يزعجني.. يخنقني.

أنا إنسانة أحلامي بسيطة جدًّا.. لا أريد أكثر من أن أكون أنثى طبيعية.. وأعيش كما تعيش الأنثى الطبيعية.. لستُ مطالبة بأن أكون تحت الأضواء فوق خشبة المسرح.. هناك من يحب هذا الدور ويملك الموهبة لحفر اسمه في التاريخ ويجيد صناعة الأمجاد.. وربما تكون أنتَ واحدًا منهم.. أما أنا فلا أملك لا موهبة ولا رغبة في ذلك.. أريد أن أعيش وأموت في سلام.. حياة مُرضية على الأرض.. وجنة خُلد في السماء.. أنا أتقبل «شفق» كـ «شفق» بغير ألقاب.. وأريد من يتقبلها على حالها.

هتف غاضبًا دون أن يؤثر فيه بوح قلبها:

- لا أحد سيقبلكِ على حالكِ.. انظري إلى نفسكِ.. هل أنتِ مضطرة إلى أن ترتدي هذه الملابس القبيحة؟ ابنة رجل ثري مثل «منصور النمر» يعرفه القاصي والداني تغطي رأسها مثل نساء الحارات؟ لماذا لا تُجارين المجتمع الذي أنتِ منه.. أنتِ ابنة «منصور النمر» لماذا لا تكونين لائقة بهذا الاسم؟

- لكنني عندما أقف أمام الله ليزن أعمالي لن يُثقلها اسم «منصور النمر»؟ وإن لم تؤهلني لدخول الجنة لن يشفع لي اسم «منصور النمر».

ضحك ساخرًا:

- أنتِ غير معقولة.. لماذا تفكرين في شيء لن يحدث الآن.. لماذا لا تستمتعين بالحياة ما دمتِ أنتِ فيها؟

- أنا أستمتع.. لكن يبدو أن مفهومنا عن الاستمتاع مختلف كثيرًا يا «أكمل».

تحرَّك في الغرفة صامتًا، يُفكّر بإمعان، ثم دنا منها قائلًا:

- لا يهمني لونكِ، جنسيتكِ، دينكِ.. كل ذلك لا يعنيني كثيرًا.. عندي

مواصفات لن آتنازل عنها يجب آن تكون في زوجتي المستقبلية، وآنتِ تحظين بالكثير منها.

ثم زفر قائلًا:

- سأتغير لأجلكِ.. قليلًا.. لكن عليكِ أنتِ أيضًا أن تتغيري قليلًا من أجلي.. أظن أنها مُعادلة رياضية منطقية كي تتساوى الكفّتين، أليس كذلك؟

فتحت فمها لتتحدث فأشار لها بكفه قائلًا:

- فكري.. وسأفكر أنا أيضًا.

لم يتصور «غراب» وهو يتلقّى اتصالًا هاتفيًّا من «عبقرينو» أنه سيجده في هذه الحالة السيئة، سحجات على جسده، وكدمات فوق وجهه. أفزعه مرآه على هذا النحو فتساءَل منفعلًا:

- ماذا حدث لكَ؟

حاول «عبقرينو» الاعتدال في الفراش فآلمه جسده كله وصاح قائلًا:

- كان حلمي أن أكون سائقَ قطارٍ.. فانتهى بي الأمر وقد داسني قطار!

- قطار! عمَّ تتحدث يا «عبقرينو؟ أخبرني ماذا حدث.

دخلت أم «عبقرينو» الغرفة وآثار البكاء فوق وجهها، تُقدِّم الشاي للضيف وهي تقول بغلظة:

- ليتكَ حلمتَ بأن تكون سائق طائرة.. كانت واحدة الآن ستأخذكَ بعيدًا وتُخلِّصني منكَ.

خرجت وصفعت الباب خلفها فابتسم «عبقرينو» قائلًا:

- أمي تحبني كثيرًا.

اتسعت ابتسامته فآلمه وجهه وأطلق آهة تألم؛ دفعت «غراب» ليتعجّب قائلًا:

- تستطيع الضحك حتى وأنتَ في هذه الحال! أنتَ فَلتة يا «عبقرينو».. والآن أخبرني كيف وصلتَ إلى هذه الحال؟

انفعل مجيبًا:

- الريِّس مفضوح.

علت الدهشة وجه «غراب» قائلًا:

- مَن تقصد؟ «مستور»؟ لماذا؟

اغتم وجه «عبقرينو»، حتى إن مسحة من الكآبة غطّتْ عينيه وهو يقول بندم:

- آسف جدًّا.. ضربني بشدة.. لم أتحمل الألم.. وبحتُ له بسرك.

عقد «غراب» جبينه بشدة مُرددًا:

- سري؟

همس «عبقرينو» ومشاعر الأسف تجتاح صدره:

- منذ اليوم الأول الذي رأيتكَ فيه علمتُ من تكون.. عرفتكَ رغم جُرح وجهكَ.. كنتُ قد سمعتُ عنكَ من قبل ورأيتُ إحدى صوركَ لذلك تعرفتكَ فورًا.. حتى إنني أخبرتُ الباشمهندس «منعم» بذلك.. فقال لي إنه يعلم حقيقتكَ.. وإنك صارحته بها قبل أن يوظّفِكَ.. وطلب مني أن أصون السر.. لكنني تحت آلام الضرب اضطررتُ إلى أن أخبر الريس «مستور» أن «جبار» يظنّكَ ميتًا!

كان يعلم بالفعل أن هذا اليوم آتٍ لا محالة، كان يعلم أنه يُخاطر بالبقاء في «العريش» وأن عليه مغادرة سيناء كلها، لكنه لم يستطع مُفارقة الرمال والجبال وطيور الحبّاري! لم يستطع أن يقتلع نفسه من الأرض التي فيها نبَتَ، ويزرعها في أرض غريبة لا يألفها.

ربّت كتف «عبقرينو» قائلًا:

- لا تغتَم.. كنتُ أتوقع أن يحدث ذلك في أي وقت.

سأله «عبقرينو» بلهفة:

- ماذا ستفعل؟ هل ستهرب؟ هل ستُفارق «سيناء»؟

لاحت أمارات التفكير فوق وجه «غراب» ثم قال باسمًا وهو يربت كتفه مرة أخرى:

- لا تشغل بالكَ بي.

تذكَّر «عبقرينو» قَسَم الكشافة الذي أداه من قبل أمام «دهب» ثم أفشى سرها لـ «غراب» فصاح مُغتاظًا:

- لماذا أفشل دائمًا في كتمان الأسرار؟

ضحك «غراب» ثم ارتشف من كوب الشاي وقال:

- ربما لهذا علاقة برغبتكَ وأنتَ صغير في أن تصبح سائق قطار!

شاركه «عبقرينو» الضحك، ثم قال بعد برهة وهو ينظر إليه بإشفاق:

- لماذا لم تُحاول تبرئة نفسكَ؟

أطرق «غراب» قليلًا ثم قال بمرارة شديدة:

- لأنني مذنب بالفعل.

ثم لاحت على شفتيه ابتسامة حزينة وهو يقول:

- لا تؤلمني الأخطاء التي فعلتها.. ما يؤلمني حقًّا هو أنني لا أستطيع التكفير عنها مهما فعلتُ!

بينما تحتسي الشاي برفقة الخالة «نوّارة» باغتتها الخالة قائلة:

- لا تبتئسي من أجلي يا ابنتي.

- أنا أشعر بالقهر حقًا.. لا أفهم لما قابلتكِ في وقت متأخر.. ساءت حالة قلبكِ ومع ما لديكِ من أمراض مزمنة وحالة عينيكِ المتأخرة كل ذلك جعل العملية صعبة للغاية ونسبة المخاطرة فيها عالية جدًّا.. كيف بعد كل ذلك لا أبتئس؟

حافظتْ الخالة على ابتسامتها وهي تقول:

- لا شيء يحدث في وقت متأخر.. الناس تجهل أن ما يصيبهم لم يكن ليُخطئهم.. وما أخطأهم لم يكن ليُصيبهم.. كل شيء في وقت معلوم لا يعلم حكمته إلا علام الغيوب.

ترددتْ «شفق» للحظات ثم سألتها:

- رأيتُ من قبل قائمة المتوفين في حادثة العمال.. وكان فيها اسم ابنكِ «سهيل» رحمه الله.. وعرفتُ أيضًا أنه لم يكن عاملًا في شركة «النمر» لهذا السبب لم تحوِ قائمة مصابين الشركة اسمه.. وهذا أدهشني كثيرًا.. لماذا كان يومها في الموقع ما دام لم يكُن أحد عمال الشركة؟

لم تخبر الخالة بالطبع أنها تعرف سبب ذهابه للموقع، إذ اختار بنفسه هذا المكان ليلتقيا فيه. وقتها ظنّت «شفق» أنه لربما يكون أحد العمال، أما الآن تعرف أنه لم يكن كذلك. لماذا أراد لقاءها في الموقع إذن؟ هذا ما تحتاج لمعرفته.

طال صمت الخالة. احترمتْ «شفق» هذا الصمت الطويل، تعرف أن للصمت لغة أقوى من فنون الحديث، ولربما كانت سيوف الحنين والرضا تتبارز الآن في قلب الخالة وتُذكّرها بمن رحل.

نهضت الخالة، دخلت المطبخ، وأحضرت طبقًا من المعجنات صنعته بيديها. أشارت لها كي تأكل وقالت ساخرة:

- أتمنى ألا أكون قد نسيتُ أحد المقادير هذه المرة أيضًا.

ابتسمت «شفق» وتظاهرتْ أنها تناست السؤال الذي سألته منذ لحظات، لكنها لم تنسَ، بل سيطر على عقلها أكثر، لماذا أراد «سهيل» لقاءها؟

- أعطيني يدكِ اليُمنى.

تفاجأت «شفق» بطلب الخالة، منحتها يدها، تحسست الخالة أصابعها ثم تركتها وهي تقول بتبرُّم:

- ما زلتِ مخطوبة لهذا الرجل.

- ليس سيئًا كما تظنين.

- كل الناس عندكِ ليسوا سيئين.. ويستحقون التماس الأعذار!

أدركتْ «شفق» سخرية الخالة فاعترضت وهي تبتسم:

- لكن هذا خُلُق طيب.. يجب التماس الأعذار للناس دائمًا.

ردّتْ الخالة بحزم:

- هذا عندما تكونين ممسحة للأقدام! تلتمسين الأعذار لكل قدم وطآتكِ مهما حُمّلَتْ بالأوساخ.

تعجّبتْ «شفق» وسألت الخالة عن قصدها، قالت الخالة:

- بيت الحكمة يكون في الموازنة بين حُسن الظن بالتماس الأعذار، وإدراك الضرر وكف أذى المُسيء.. هناك من الناس من تميل طباعهم إلى خُبث الأفعال والإضرار بالآخرين.. هناك الثرثارين الهمازين المشّائين بين الناس بالنميمة.. هناك من يتصفون بقُبح الخُلق وسوء المعشر.. وهؤلاء نُغلّب سوء الظن فيهم على التماس الأعذار.. مثلما أرفض أن أدخل ابنتي في عصمة رجل ديّوث دون ألتمس له الأعذار بإحسان الظن في أنه سيتقي الله فيها!

- لكن «أكمل» ليس بشعًا.

- ليس بشعًا نعم.. لكنه رقيق الدين.. شحيح المروءة.. قليل الفهم.. يتهم خطيبته علنًا أنها تتمادَى مع رجل آخر.. هذا ما فهمته من حديثكِ عنه.. فإن كنتِ أنتِ أيضًا ترينه بهذا الشكل.. انفدي بجلدكِ.

أطرقتْ «شفق» قليلًا، كيف تخبر الخالة أن التغيير يزعجها ويقلق راحتها، وأنها تحتاج وقتًا لاتخاذ القرارات أطول مما يحتاجه الناس عادة.

- ربما يتغير بعد الزواج يا خالة.

قالت الخالة بحزم:

- لا أحد يتغير من أجل أحد! الله عز وجل بجلالته وعظمته لا يُغير ما بالناس إلا إذا غيّروا هم ما بأنفسهم.. إذا ما صدقوا النية وعقدوا العزم واتخذوا خطوات حقيقة من أجل التغيير.. هؤلاء يعينهم الله ويعينهم الناس.. أما الذي يقف في وسط أرض مملوءة بالقاذورات يأكل من الأفعال الميتة والمنخنِقة والمتردية والنطيحة ويصيح قائلًا: ساعديني لأتغير! فما هذا إلا هراء.. إذا أراد التغيير حقًّا فليخرج أولًا من أرض الخَبَث.

ثم مالت صوبها وقالت بحكمة العارِف:

- إذا قال لكِ سأكون بطبيعتي اليوم ثم أتغير من أجلكِ غدًا.. قولي له الناس لا تغير جلودها.. الثعابين وحدها تفعل.

ولأنها تثق في رجاحة عقل الخالة «نوّارة» باحت لها بما وصلها من رسائل تهديد، وربما لإشباع رغبة داخلية تحاول أن تستكشف إن كان للأمر علاقة بما أراده «سهيل» منها. وصفتْ تفاصيل الصور للخالة، ثم وضعتها فوق الطاولة الصغيرة، ثم قالت:

- حذرني في إحدى الرسائل من أن أبلّغ الشرطة.. لا أعرف ماذا أفعل.

- ولماذا لا تخبرين والدكِ؟

اضطربتْ «شفق»، فما زالت تخفي عن الخالة هوية والدها. قالت:

- لا أعرف يا خالة.. أظن أن أبي سيُنهي الأمر دون أن يخبرني ماذا فعل وبماذا كان يهددني الرجل.. وأنا أريد أن أعرف.

- بلغي الشرطة يا بنيتي.. هذا أمر أكبر من أن تتصرفي فيه وحدكِ.

قالت «شفق» بتردد:

- لكنه حذّرني من تبليغ الشرطة.

قالت الخالة بقوة:

- وهذا يعني أنه يخاف من الشرطة لدرجة أن يُحذركِ من الحديث معهم.. إذن هذا بالضبط ما عليكِ فعله.. لا أفهم لماذا تستجيبين لرغبات رجل عديم الشرف! عليكِ أن تفعلي تمامًا عكس ما يريده هذا المجرم.. بلّغي الشرطة.

ثم استطردت بعد لحظة:

- هذا إن كنتِ لم تفعلي شيئًا يدفعه لمساومتكِ.

قالت «شفق» بثقة وهي تضع كفها فوق كف الخالة وتربِّت فوقه:

- لم أفعل شيئًا أخشى أن ينكشف.. كوني متأكدة من ذلك.

ربَّتتْ الخالة بكفها الأخرى فوق يدها وقالت باسمة:

- أنا واثقة من ذلك.

الثقة التي تحدثت بها الخالة كانت مثل الخنجر، يؤلم قلبها بنصله الحاد، عليها أن تعترف بهويتها الحقيقة، لكنها في الوقت نفسه لا تستطيع المخاطرة بفقدان الخالة، أضحت جزءًا مهمًّا في حياتها ولا تتصور أن تُحرَم منه بغتة، لا تستطيع المخاطرة بفقدانها، هي أضعف من أن تفعل.

كان شعورها بخداع الخالة مزعجًا جدًّا، أفسد عليها صفاء الجلسة ودفئها. كرهت المغادرة، لكنها أرادتْ لنفسها فسحة من التفكير، فقالت بابتهاج وهي تنهض حاملة حقيبتها:

- ينقصنا الحلوى الشرقية التي تحبينها.. سأذهب لآتي بها ثم أعود في الحال.

خرجت من البيت رغم إلحاح الخالة ألا تفعل، وما إن أغلقت الباب خلفها حتى تركت للألم الذي حُبس بداخلها أن يعتلي قسماتها، ويتسوّر عينيها.

فوجئَتْ برؤيته، وبوغِتَ برؤيتها. تلاقت أعينهما في لحظة اضطراب ثم أشاح بوجهه ودار على أعقابه، لكنها لم تسمح له بالفرار. نادته:

- انتظر.

وعلى بُعد خطوات من بيت الخالة استدار «غراب» صوبها، وقفتْ «شفق» أمامه تحاول ترتيب القطع الناقصة من الأحجية. الاضطراب الذي ذاب في حنايا وجهه، القلق والخوف والحيرة، كلها أمور دفعت بعقلها للتفكير في الاتجاه الوحيد المنطقي.

الآن باتت دقة الصورة أكثر وضوحًا، واكتملت بعض القطع الناقصة. وعندما رأت في يديه مفتاح سيارة سألته بدهشة:

- هل استرددتَ سيارتكَ؟

تمتم «غراب» بعجالة:

- عثرتْ الشرطة على سيارتي محترقة على الطريق.

- محترقة! لا أفهم.. لماذا سرقها اللصان إن كانا ينويان حرقها؟

أجابها «غراب» بكلمات مقتضبة:

- يقول رجال الشرطة دائمًا «فتِّش عن المستفيد».

هزَّتْ كتفيها بحيرة وسألت:

- ومن سيستفيد من حرق سيارتك؟

قال بالاقتضاب ذاته:

- من يبحث عن شيء.. أو يحاول إخفاء شيء.

حيّرتها كلماته، وضنّ عليها بشرحها. رمقت المفتاح مرة أخرى ثم قالت:

- اشتريتَ واحدة جديدة إذن.

قالتها باستهجان شديد لفتَ انتباهه في الحال، أجاب وهو ليس مضطرًا للجواب:

- سيارة مستعملة بسيطة كما كان حال الأولى.

كان وجهها ينطق بالضيق والألم، لم تعتد المواجهة، لكنها وجدت في نفسها القوة لتقول:

- كيف لعامل بسيط أن يشتري سيارة أخرى بهذه السرعة حتى وإن كانت سيارة مستعملة؟

قال باقتضاب:

- أحتاجها للتنقل.

- من أين أتيتَ بالمال؟

بوغت بسؤالها. حاولت أن تقرأ صفحة وجهه لكن الخط كان مُتعرِّجًا، عسيرًا على الفهم، إلا اسم الحكاية، كانت حروفها مرسومة وبوضوح فَوق جبينه. جمعت واحد زائد واحد وخلصت للنتيجة المنطقية؛ اثنين.

لهذا السبب أرادها «سهيل» إذن، أراد منها أن تُساعده لاستعادة ماله المسروق.

لعله حاول مع أختها وأبيها ولم يجد لدى أي منهم رغبة حقيقية في مساعدته، فاتصل بها وطلب لقاءها. ومسألة الحياة أو الموت التي تحدث عنها كانت حالة أمه الصحية التي تتدهور بسرعة.

كل شيء أصبح منطقيًّا الآن. أراد منها «سهيل» أن تعينه على استرداد حقه من رئيس عمال شركتهم، من «غراب»!

لكن كيف؟ جزء ما من عقلها يستعصي عليه إيجاد الدافع للسرقة. يقدم اللص على فعل السرقة لأنه يتمرّد على ما قسمه الله من رزق، ويمد عينيه لما في أيادي الآخرين، يشتهي ما ليس له، لكن «غراب» ليس من هذا النوع أبدًا، لماذا سرق إذن؟

- سأذهب لدي عمل.

- ولماذا أتيتَ؟

قال ساخرًا:

- هل أنا مضطر لإبلاغكِ بخط سيري وأسباب أفعالي؟

لم تتركه وشأنه، وقفت بثبات تقطع الشك باليقين:

- عليكَ أن ترد للخالة «نوَّارة» مظلمتها.

تجمد في وقفته، وكأنها ألقت عليه بتعويذة لا قِبل له على مقاومتها. رأت عرقًا نابضًا في رقبته، تسارعت نبضات قلبه، وتلجلج للحظات.

رأته الخالة في معمل التحاليل إذن! رغم أن عينيها بدتْ على غير ما يُرام، ظنّ أنهما لم تلتقطا ملامح وجهه، لكنها رأته، فهم ذلك الآن.

سألها باضطراب:

- هل أخبرتكِ الخالة «نوارة» بشيء؟

ترددتْ للحظة ثم أومأت برأسها وقالت بألمٍ:

- نعم.. أخبرتني.. رغم أنني لم أخبرها بهويتي ولا تعرف من أكون.. لا أعرف أسبابكَ.. ولا أفهم تصرفكَ.. لكن.. أنتَ فعلًا آذيتَ الخالة بشدة.

لم تظن أن كلماتها قد توقظ عبراته من مرقدها. أشاح بوجهه في الحال عندما أحسّ باحتشاد الماء في مقلتيه، لكنها رأته وعرفت أن الذنب الذي اقترفه يعذبه ويقض مضجعه. احتقرتْ الفِعل، ولم تتقزز من الفاعل، بل أشفقت عليه لما باء به ظهره من أحمال ثقال.

تعرف كيف يقع الإنسان في الفتنة فجأة، وكيف يجلد نفسه بالسوط بعدها. استطردتْ بالهدوء ذاته:

- لن يقبل الله توبتكَ ما دام لم تَرُدّ المَظلمة.. وأنتَ تستطيع ردّها.

وكأنها سددتْ له طعنة، ارتدّ إلى الخلف خطوة، ثم هتف بألم:

- لا أستطيع ردها.

رغم أنها كانت واثقة، إلا أن اعترافه هزّها. تظاهرتْ بالثبات وقالت:

- على الأقل عليكَ أن تطلب منها المغفرة.. لا يُسامح الله في حقوق العباد.. عليكَ أن تطلب عفوها.

أطرق برأسه أرضًا، خبأ وجهه للحظات بين كفّيه، خجلًا أم ندمًا أم كلاهما؟ لا تعرف، شعرت بالألم يشقه نصفين وهو ينطق بـ:

- لا أستطيع مواجهتها.

وهي كآثر شخص يخشى المواجهة، فهمتْ عجزه في الحال:

- أعرف أن ذلك صعب.. لكن يجب أن تتشجّع لمواجهها.

لم يُبدِ التفهم نفسه تجاه تدخلها في الأمر، لم يعجبه أنها عرفت كل شيء، وأنها فهمته، تتحدث معه بهدوء دون أن تتفلّتْ منها نظرة كُره أو كلمة ازدراء. شعر بخطر الألفة، وبمخاطر اللهفة.

حشد جنود الغضب كي تُقاتل جحافل الشوق:

- لا أحب تدخلكَ فيما يخصني.. ولا أفهم لماذا تهتمين بالخالة وشؤونها.. التفتِ قليلًا لما يخصكِ.. أنت تُحاولين إصلاح حياة الناس بينما حياتكِ تسير بشكل مُزرٍ.

بوغتت بهجومه، شلّتها الدهشة:

- ماذا تقول؟

- أقول ما لا يقوله لكِ أحد.. أنتِ لا تسيئين لنفسكِ فحسب.. بل لمن حولكِ كذلك.. تقولين لي أن الله لا يُسامح في حقوق العباد.. أما كان أولى بكِ أن تقولي هذه الكلمات لنفسكِ حينما عفوتِ عما اقترفته أختكِ في حقوق الآخرين؟ مَن أنتِ لتسامحي بلسان غيركِ؟ المخطئ يعتذر أو يُعاقب.. أنتِ جعلتِ أختكِ تتفلّتْ من كليهما.. والآن كبرتْ وصارت وحشًا بشعًا.

ترقرقت العبرات في عينيها المتسعتين دهشة وألمًا. رجعت خطوة إلى الوراء وكأنه سدد لها طعنة قاسية. قالت بشفاه مرتجفة:

- ماذا أخبرتك «دهب»؟ ماذا قالت لكَ؟ لماذا تتحدثان عني؟ لماذا تخبركَ بما أفعل وما لا أفعل.. حتى عندما كنا في السيارة نفر من اللصوص سألتني عن دوائي.. لماذا تتحدثان عن كل ما يخصني؟ ثم كيف تصف خطيبتكَ بأنها وحشًا بشعًا؟

هزَّ رأسه يقول وهو يجز على أسنانه:

- أنتِ لستِ غبية.. لكنكِ تتغابين متى يحلو لكِ.

صرخت به:

- لا أفهم ما تقوله.

- ما أقوله هو أنكِ جبانة! أنتِ مفعول به دائمًا، عاجزة عن أن تكوني الفعل.. أنتِ حتى عاجزة عن أن تخبري الخالة بهويتكِ.

ثم أردفَ ساخرًا:

- لذلك أنتِ آخر شخص يتحدث معي عن شجاعة المواجهة.. فاقد الشيء لا يمنحه.

في داخلها، في أعمق نقطة في نفسها كانت تدرك أنه مُصيب في كل ما قاله، لقد صنعت وحش فرانكشتاين بيديها، والآن لم تعد قادرة على ردعه. كل المخاوف التي كانت تصارعها لأعوام؛ الخوف من المواجهة، التغيير،

الفقد، النبذ، كل شيء اجتمع بداخلها الآن؛ شحّذ همتها، ودفع بقدميها لتعدو مسرعة في اتجاه بيت الخالة.

ترتقي الدرجتين أمام الباب، وتطرقه بإصرار. ما إن فتحت الخالة الباب وهشّتْ بوجهها قائلة:

- هل أحضرتِ الحلوى بتلك السرعة؟

حتى سارعتْ بالكلام وكأنها تخشى أن تفلتْ شجاعتها وتولي هاربة:

- لا أريد أن أخدعكِ أكثر.

أخذت نفسًا عميقًا ثم قالت دون تردد:

- اسمي «شفق منصور النمر».

هل كان قاسيًا جدًّا؟

ما فتئ يُسائل نفسه ويغلظ عليها في القول، مضت أكثر من ساعة على دخولها مرة أخرى إلى بيت الخالة، لم تخرج منه حتى الآن.

لم يسمع من حديثها إلى الخالة أمام الباب سوى ذِكرها لاسمها، يبدو أن كلماته المُعنّفة قد أيقظتْ فيها الهمة لأن تكون الفعل.

عندما فُتِح الباب وظهرت أخيرًا، كان وجهها محمرًا وعيناها منتفختين. لم تتصور أنه لا يزال بالخارج، خجلت لآثار البكاء البادية عليها، لكنها توقفتْ أمامه في أثناء مرورها حيث سيارتها، وقالت له بنبرة مُتحدية ونظرة لوم:

- من الجبان الآن؟

غادرتْ وتركته وحده أمام البيت، لا يعرف متى ولا كيف حدث ذلك، لكنه وجد نفسه يبتسم، ثم يضحك، لم تساعد نفسها فحسب، بل ساعدته كذلك.

لم يعد وحش المواجهة مخيفًا لهذه الدرجة، تقلّص حجمه، وهزلَ جسده، وضعفت قوته. تقدم بخطوات ثابتة صوب بيت الخالة، وقف على أعتابها وهو يستعد بدوره للمواجهة!

توجهت في صباح اليوم التالي إلى المحكمة استعدادًا لعرض محامي «غراب» دليل براءته وطلب ضمه إلى ملف القضية، والذي أعده بعناية بعدما ضمّ إليه لقطات متفرقة من كاميرات مراقبة على الطريق، تُلخّص إلى استحالة أن يكون «غراب» قد أقدَم على تبديل حمولة العربة.

رغم ما حدث اليوم لكنها كانت واثقة أن الأمر سينتهي كما تريد، وسيُبرِّئ القاضي ساحة «غراب» وستُسقِط النيابة عنه التهم.

شعرت في نفسها بخفة شديدة، وكأنها فراشة نبتَ لها جناحان وخرجت من الشرنقة للتو. عندما أخبرت الخالة «نوّارة» بهويتها بالأمس لم يخطر

لعقلها ولو للحظة آن تضحك الخالة في وجهها وتقول: كنتُ آعرف، آنا ضعيفة النظر وفي طريقي لأن أكون عمياء تمامًا لكنني ما زلتُ أحتفظ بصحتي العقلية يا فتاة، هل قال لكِ أحد من قبل أنكِ سيئة في الخداع؟

تبددتْ مخاوفها في لحظة، جعلها ذلك تدرك أننا من نصنع وحوشنا بأيدينا، حينما نعجز عن المواجهة فيتضخم الشيء الصغير ويغدو وحشًا يبتلعنا، في حين أن مواجهة صغيره كانت كافية لقتله في مَهده.

أدركَتْ أنها تعذّبتْ دون طائل، لو كانت أخبرتْ الخالة بهويتها منذ اليوم الأول لكفَتْ نفسها مؤنة الشعور بالذنب.

كم أننا قساة غلاظ في حق قلوبنا؛ نُحمّلها ما لا طاقة لها به ثم نشتكي مِن ثقل الحِمل! لو كان بإمكانها أن تصوغ نصيحة وتضعها كالحلق في آذان الجميع لكتبت فيها: تخففوا من أحمال قلوبكم، تحرروا من المخاوف، وخذوا زمام المواجهة.

جعلها ذلك تفكر في أن الإنسان بالفعل ظلومٌ جهولٌ، ظلوم لنفسه، وجهول بما ينفعها ولا يضرها.

«أنتِ لستِ غبية، لكنكِ تتغابين متى يحلو لكِ».

ترددت أصداء عبارته في رأسها، عاد الخوف ليوقظ طيور الأمن ويُهدد بطردها، انقبض قلبها، لا تريد أن تفهم، لأن الفهم يعني التغيير، ولكل تغيير ثمن.

حدث تغيير أيضًا في المحكمة لكنه كان مزلزلًا، تم شطب اسمها من ملف القضية ولا يحق لها حضور الجلسة كمحامية للشركة!

طاش عقلها، حاولت الاتصال بأبيها مرات لا تُحصى، ولا مجيب، كيف يفعل ذلك دون علمها؟ أخذت جدران المحكمة تضيق وتضيق، دفعها الاختناق للوقوف في الخارج.

عندها رأت «غراب» مُقبلًا صوبها وعلى وجهه نظرات جادة، يرتدي بذلة رسمية سوداء اللون، بدا غريبًا فيها، حتى تصفيفة شعرِه بدت على غير عادته. ليس «غراب» رئيس العمال في شركتهم، والذي التقته أمام بيت الخالة ليلة أمس.

الشيء الوحيد الذي بقيَ على حاله هو الجرح الطويل في وجنته، تعجّبتْ للحظات من هيئته، وما إن دنا منها حتى تلاقى الأسودان!

حاولتْ أن تخفي تأثرها بمظهره خلف قسمات جادة، ونبرة حازمة، قالت:

- تم شطب اسمي من القضية.. هناك محامٍ آخر سيحضر الجلسة.

ثم استطردتْ بهستيرية:

- سيفعل كل شيء كي تتم محاكمتكَ.. سيستغل كل ثغرة قانونية.. سيرفض الدليل ويطعن به.. سيفعل كل شيء.. كل شيء.

أخرج من جيبه بضعة صور ووضعها أمام وجهها وقال بحدة:

- لماذا لم تخبريني عن ذلك؟

أمسكتْ بالصور ظنًا منها أنها دليل قد أعدّه من أجل إثبات براءته، لكنها فوجئت بالصور التي وصلتها مع رسائل التهديد والتي نسيتها بالأمس فوق الطاولة الصغيرة في بيت الخالة.

اتسعت عيناها دهشة وقالت بلهفة:

- كيف حصلتَ عليهم؟ هل دخلتَ بيت الخالة؟ هل تحدثتَ إليها أخيرًا؟

لم يجب سؤالها، كان الاضطراب جليًّا فوق قسماته وهو يقول بانفعال:

- كيف تتصرفين بمثل هذا التهور.. كيف لا تخبرين أحدًا بأمر هذه الرسائل.. ثم هل نظرتِ إلى الصور بإمعان؟

- نظرت إليها.. ما بها.

أشار بإصبعه صوب رجل واضح الظهور في خلفية أربع صور التقطَتْ لها أمام الشركة وأمام الفندق. ثم قال بانفعال:

- الرجل الذي أرسل خطابات التهديد ليس الوحيد الذي يسعى خلفكِ.. هناك رجل آخر يلاحقكِ!

دققت «شفق» النظر في الرجل، هيئته، جانب وجهه، ثم وضعت كفها فوق فمها وشهقت بقوة:

- أعرف هذا الرجل.. كان ينظر إليَّ في الطائرة!

البعضُ يستفيق بكلمة لينة
بسمة وهمسة ونظرة حانية
فيتبدل الحال إلى حال
وأخطاؤه تصطَف إلى مآل
والثمرة الاعتراف بالزلل
وإصلاح ما حدث من خلل!
والبعضُ يستفيق باللعنات
بالغِلظة والقسوة والاتهامات
لكن دون اعتراف بالذنب
مع إصرار على العودة إلى جنب
أبالسة الجحيم من الجن
وشياطين الحياة من الإنس!

والبعض بذنبه مُعتَرفًا
ومن حفرة القهر مُغتَرفًا
لكنه لا يقوى على الإصلاح
أو المواجهة أو الإنجاح
ومن أجل استفاقة قاضية
يحتاج إلى صفعة حامية!

الليلة السادسة عشر

الحقيقة التي ندفنها في قاع البحر لا تموت،
تعيش مُلتصقة بالملح؛ ويومًا ما نضيفه بأيدينا إلى وجبتنا الأخيرة.

(١)

وقف الأسوّدان في مواجهة بعضهما أمام باب المحكمة، ينظران إلى الرجل الذي يظهر في بعض الصور من خلف «شفق»، وعلى مقربة جلست «دهب» في سيارتها تُراقبها بحاجبين منعقدين، وقسمات تشي بانزعاج صاحبتها.

من عينيها تنطلق سهام الغضب، ترشق الأسودين في كل موضع من جسديهما، وكلما انطلق سهم حاقد تدفّقتْ معه مشاعر متأججة، ترسم في عقلها صورة حوافها سوداء، وفي وسطها بخط دموي كُتبت حروف «خيانة!».

اقترفتْ «شفق» جريمة الخيانة في حقها، لم تعبأ بكل جهودها كيلا يُفرِّقهما أحد، خضعتْ لسلطان مشاعرها أمام هذا الرجل، ونبذَتْ أختها في سبيله.

أجهشتْ في البكاء وقد أحرقتْ مرارة الخيانة حلقها، كيف تستبدلها بغيرها؟ كيف تمنح قلبها لهذا الرجل وتتركها نصف قلب منقوص لن يكتمل أبدًا؟

ولأنها لم تتعلم كيف تُروِّض غضبها، ولم تلجأ يومًا إلى الوضوء والصلاة لصرف شياطين الحقد من صدرها؛ تنامى الغضب وتعاظم، وهمستْ من بين شفتين قاسيتيْن يابستين: خائنة يا «شفق» ولكل خيانة لها ثمن.

ثم أضافت بغلٍّ وهي تمسح عبرات تفلت من مقلتيها الملتهبتين: سأعاقبكِ عقابًا لن تنسيه طوال حياتكِ!

عندما هتفت بـ:

- أعرف هذا الرجل.. كان ينظر إليَّ في الطائرة..

سألها بلهفة وعروقه تنبض قلقًا:

- مَن يكون؟

لم تُذهِب إجابتها بقلقه، ضاعفته. قالت والحيرة تعيث برأسها فسادًا:

- لا أعرفه.. انتبهتُ إليه وهو ينظر نحوي عدة مرات.. وكلما بادلته النظرات بحدة أشاح بوجهه عني.

ثم أضافت بحيرة وهي تُمعن النظر في الصور:

- لكنني أشعر أنني رأيته قبل ذلك.. لكن لا أذكر أين ومتى.

لم يعد ثمة طريقة لتفادي الخطر المحدق بها إلا بأن تتحرك الشرطة لحمايتها. لو كان يملك عليها حقًّا لبذل عُمره على عتبتها يزود عنها، ينهش بأسنانه وأظافره كل من يجرؤ على الاقتراب منها، مثلما يحمي ذكر الغراب أنثاه ويخلص لها طوال حياته، لا ينسى الغراب الإساءة إلى أنثاه أو التعدي على عشه.

- يجب آن تخبري الشرطة.

أومأتْ برأسها تقول وقد أدركتْ هول ما يتربّص بها من خطر:

- هذا ما قالته لي الخالة بالأمس.. سأفعل ذلك.. لكن بعد أن أطمئن لما سيحدث في الجلسة.

لماذا بدتْ كلماتها العادية جدًّا وكأنها عبارة غزل؟ حتى أن قلبه خفق بقوة وأرسل دفقة من اللذة في نفسه، يسهل إدمانها، ويصعب فقدانها.

قتلها في الحال ما إن وصلت إلى أعتاب عقله، ثم قال باقتضاب:

- لا تهتمي لأمر الجلسة.

- كيف لا أهتم؟ أقول لك تم شطب اسمي كمحامي الشركة.. وستجد أمامك محاميًا غيري.

رفع رأسه وقال بثقة:

- فليأتِ من شاء.

تلبّستها حيرة كبيرة، وبدا في عينيها بريقَ إعجاب خاطف، أخفته سريعًا قبل أن يُمسَك به. تساءلتْ:

- كيف تكون واثقًا بنفسكَ إلى هذا الحد؟

أجاب ببساطة شديدة:

- لأنني بريء.

لا تعرف لماذا أثارت هذا الأمر في هذا الوقت بالذات، ربما لأنها خافت من عودة البريق إلى عينيها، فيفضحها هذه المرة، اندفعتْ تقول:

- لكنكَ لستَ بريئًا من تهمة سرقة الخالة «نوّارة».

الوجوم الذي كسا وجهه دفعها لأن تقول بأسف:

- أعتذر ما كان يجب عليّ أن أذكر ذلكَ.. أنتَ ندمتَ وتبتَ.. والله يغفر لمن يشاء.

ثم استطردت بلوم:

- لكن لا يزال في رقبتكَ دين كي تُقبل توبتكِ.

قالتها وهي تُخرج من حقيبتها ظرفًا منتفخًا، قدّمته له وقالت:

- لو أعطيتُ هذا المال للخالة.. لن تقبله مني أبدًا.. لكني أريدكَ أن تأخذه.. وليكن دينًا.. أعطه لها.. وتخلّص من مَظلمتها.

رأته يهتز انفعالًا وهو يقول:

- هل تظنين أنني قد أقبل مالًا من امرأة؟

كادت أن تجيبه «وهل تسرقه فحسب؟!». أمسكت عليها لسانها، زاد تعجبها وتضاعفت دهشتها، أتراه لم يسرق من الخالة مالًا، بل شيئًا آخر؟ لكن الخالة ذكرتْ لها بوضوح أن ما سُرِق هو المال الذي جمعه زوجها طوال حياته!

لن يخبرها بأي شيء لو سألته، لن تحصل منه على ما يشبع فضولها، لكنها حتمًا ستسأل الخالة عن ذلك وتدفعها لأن تقص عليها التفاصيل كلها.

الآن عليها أن تدعه وشأنه، فهو مُقبِل على أمر مصيري يجب أن يتجهّز له. تنبّهتْ إلى الرائحة التي فاحت من ملابسه، لم يعتَد وضع العطور، أو هكذا حسبَتْ.

هذا العطر تذكره، لكن اسمه تفلّت من ذاكرتها، حاولتْ أن تصطاده من بين أسماء العطور التي تعرفها، لكنها لم تهتدِ إليه. اختلط العطر مع اسمه في رأسها، وانضم إليها صوته وهيئته، وكأن عقلها صنع مزيجًا مما بلغته حواسها من العلم، تمتمتْ تقول وكأنها تُحادث نفسها:

- لأصوات الغربان ترددات مختلفة تتعارف بها، كأنها شفرات استخباراتية تكشف عن هويتها، أليس كذلك؟

مرّ بريق بعينيه قبضتْ عليه وحاصرته، كل شيء من حولها يخبرها بهوية الرجل الذي تقف أمامه، لم ترغب في التصديق؛ ارتدّتْ فجأة إلى الخلف كمن مسّتها صاعقة، واعتذرت باضطراب وهي تعيد المظروف إلى حقيبتها:

- لن أفتح هذا الموضوع معكَ ثانية.. أعتذر إن تجاوزتُ حدي.

أومأ برأسه إيماءة بسيطة، صامتة، تُرى هل عرفته، بغير برهان أو دليل أو حتى نبرة صوت؟

شعر بقلبه يذوب أمامها، يشتهي أن يُسمِعها قصائد غزل، وحكايات يحفظها عن النجمات وأسرارها، ويرسم لها بريشة الخيال حلمًا يجمعهما. كاد أن يتقدم الخطوة التي ابتعدتها، يخبرها أنه «الصوت»، ويكشف لها عن شيء أخفاه عنها حتى اللحظة، يناشدها أن تسمح له بلقاء أبيها، ليقول له إنها مَن أراد أن يكون لها راعيًا.

لكن أنظاره وقعت على الباب الذهبي الذي أقامته بينهما، فتقهقر إلى الخلف خطوات وخطوات، حتى اختفى داخل المحكمة.

وقفت تذرع الأرض مجيئًا وذهابًا، لا تقوى لا على الدخول ولا على المغادرة، يقضم القلق قلبها. فوجئتْ بـ «نرجس» تُقبل عليها فسألتها بدهشة:

- ماذا تفعلين هنا؟

- كان صوتكِ سيئًا على الهاتف وأنتِ تخبرينني بتأخركِ اليوم على العمل.. هل من جديد؟

أشارتْ «شفق» صوب المبنى وقالت بتوتر:

- لا أعرف.. لم أدخل.. لكن أظن أن الجلسة لا تزال مُنعقدة.

لم يفتْ «نرجس» ملاحظة القلق الذي فتكَ بصديقتها، وكأن القاضي على وشك أن يصدر حكمه في قضيتها هي. دنَتْ منها تقول:

- تبدين في حالة فظيعة.. هل معك دواؤكِ؟

قالت «شفق» باضطراب وكآنها لم تسمع سؤالها:

- سيتخذون منه كبش فداء.. أنا واثقة.. هذا ما يريده أبي ووالد «أكمل» كي تنتهي القضية التي تؤرقهم.

ثم استطردتْ والألم يشق قسماتها:

- كيف يبيت أبي ليلته هانئًا وهو يعلم أنه يزج ببريء في السجن؟

حاولتْ «نرجس» التخفيف عليها. قالت:

- لعله يصدق فعلًا أنه مذنب.

انفعلتْ «شفق» مُستنكرة مقالة صديقتها:

- كيف ذلك؟ هل يمكن لأحد أن يعرفه ويظن أنه ارتكب هذه الجريمة البشعة.. ومن أجل ماذا؟ المال!

كانت تعلم أنها تتكلم بما يُناقض الواقع، فهي بالفعل تعرف أنه ارتكب من قبل جريمة سرقة، لكن عقلها خلق له ألف عذر حتى دون أن تُدرك ذلك. عقدتْ «نرجس» ذراعيها وقالت بخبث وهي تنظر إليها نظرة ذات مغزى:

- ربما لا يراه الجميع بالعين التي ترينه بها!

استوقفتها كلمات «نرجس»، حتى إنها نسيت أن تتنفس، ضجّتْ الدماء في عروقها مطالبة بحصّتها من الأكسجين، أطلقت زفرات متواترة ثم قالت بارتباك:

- أنا لا أراه.

رفعتْ «نرجس» حاجبيها وقالت ساخرة:

- إن كان هذا حالكِ وأنتِ لا ترينه.. يُدهشني كثيرًا أن أعرف حالكِ وأنتِ ترينه!

لم تتخابث «نرجس» لتزعج صديقتها، بل لتتبع شكوكها. منذ أن حكت لها عن «الصوت» وهي تُحاول أن تُلائم صفاته مع عمال الشركة وموظّفيها، ورغم أنها لا تعلم إلا القليل عن «غراب» فإنه كان المرشح الأكثر قُربًا لأن يكون هو نفسه «الصوت».

لكن ما منعها من الجزم بذلك أمران؛ أولهما كيف خلط بين «شفق» و«دهب» إن لم تكن «دهب» نفسها متواطئة في حياكة خدعة خبيثة؟

وثانيهما كيف لم تعرف «شفق» صوته وقد أكّدتْ لها أنها قادرة على تمييزه؟ كيف تبدّل صوته؟

ورغم هذا يتزايد الشك في نفسها في كل مرة تراه، أو تتحدث صديقتها عنه.. وكأن «شفق» في أعمق نقطة في نفسها تُدرك من يكون، لكنها ترفض التصديق لأن الحقيقة مروِّعة.

والآن وهي تراها على هذه الحال من الجزع مخافة أن يُزج به في السجن، دفعها ذلك لأن تضغط على الورم أكثر، كي يخرج قيحه:

- «شفق» أنتِ لستِ خطيبته لماذا تهتمين لأمره؟

تراجعتْ «شفق» خطوات إلى الخلف وقالت باضطراب كبير:

- ماذا تقولين؟ أنا أهتم مثلما تهتمين أنتِ لا أكثر من ذلك.. إنه بريء يريد أبي توريطه في جريمة لم يرتكبها.. كيف لا أهتم؟

هزّتْ «نرجس» كتفيها وقالت ببساطة:

- ما دمتِ تقولين ذلك.. سأصدقه.

- ولماذا أكذب عليكِ؟

- ولماذا تتخذين وضعية دفاعية هكذا؟ سألتكِ سؤالًا عاديًّا.

انفعلت «شفق» بشدة، حتى أن أطرافها كانت ترتعد انفعالًا:

- ليس سؤالًا عاديًّا.. هل أنتِ مدركة بماذا تتهمينني؟

- لم أتهمكِ بشيء.. كان سؤالًا بسيطًا.

قالت بحزم وقد احمر وجهها انفعالًا:

- لم يكن سؤالًا بسيطًا.. كان سؤالًا بشعًا.. إياكِ أن تسأليني إياه مرة أخرى.

الشفقة التي تنامتْ من قلب «نرجس» تجاهها دفعتها لأن تعتذر منها، وتُطيّب بخاطرها، لكن ذلك لم يرخِ أعصابها، ظلّ جسدها مشدودًا مثل قوس، أي كلمة أخرى ستُطلق منه سِهام الحقيقة الدامية.

خرج محامي أبيها أولًا، عرفته إذ التقت به عدة مرات في الشركة، اندفعت صوبه تسأله عمَّا جرى داخل الجلسة. بشّرها قائلًا بابتهاج:

- لا تقلقي يا أستاذة «شفق»، نجحتُ في إقناع القاضي برفض الدليل الذي قدّمه محامي الخصم.

امتقع وجهها وغامَتْ عيناها، لم ينتبه المحامي لنظرات الجزع في عينيها واستكمل قائلًا:

- يُحاول الآن محامي الخصم أن يلعب لعبة خبيثة هدفها المماطلة.. لكنها لن تسفر عن شيء.

رددتْ مشدوهة:

- أي لعبة؟

بدا وكأنه تذكّر بغتة فقال:

- معذرة.. نسيتُ أن والدكِ نبّه عليّ ألا أتحدث إليكِ في تفاصيل القضية.. يجب أن أذهب الآن.

ماذا فعلتْ كي تستحق الإقصاء والمعاملة بحذر وكأنها محامي الخصم؟ توقفت للحظة وقالت في نفسها: لأنكِ بالفعل تتصرفين وكأنكِ محامي الخصم.

رأته يخرج من المحكمة برفقة محاميه، لم تتقدم صوبهما، ولم تسمع

الحديث القصير الذي دار بينهما، كان محاميه يقول له عابس الوجه:

- كان المحامي شرسًا جدًّا.. الآن بعد أن فقدنا الدليل الوحيد الذي نملكه لم يعد أمامنا ما نتمسك به سوى ما قلته للقاضي.. لكن دعني أسألكَ شيئًا.. هل أنت واثق أن رجال الإنقاذ الذين أخرجوكَ من تحت الأنقاض لن يتعرفوا عليكَ؟

أكّد «غراب» مطرقًا برأسه:

- كان الوقت ليلًا ووجهي مُعفّر بالتراب.. وعلى ضوء مصابيحهم لن يتذكر أحدهم وجهي.. ثم إنني حاولتُ بالفعل التحدث معهم.. وكما توقعتُ لم يتذكرني أحدهم.. أي لا يمكن لأحدهم أن يشهد لصالحي.
فكّر المحامي قليلًا ثم قال مُتمسّكًا بأهداب الأمل:

- هل أنتَ واثق من عدم وجود أي شاهد آخر رآكَ ويستطيع التعرف عليكَ؟

ألقى من فوق كتفه بنظرة صوب «شفق» الواقفة خلفه مع صديقتها، وما إن التقتْ أعينهما حتى اضطرب، كيف لنظرة أن تخترق شغاف القلب وتستقر على عرشه؟ ألهذا السبب حرّم الله إطلاق النظر؟

إن كانت نظرة واحدة قد أذابته وحرّكتْ في القلب سواكنه، فما بال كلمة، وهمسة، ولمسة؟

عاد يتطلع إلى وجه المحامي قائلًا بحزم حاول به طرد بواعث الضعف في نفسه:

- واثق.. لا يوجد شهود.

اتخذ قراره بينما هو في قاعة المحكمة، كادتْ أن تتعرفه، أوشكت أن تكتشف أنه الصوت الذي التقته خلف الباب في تلك الليلة، عرف في تلك اللحظة أن جهاده لنفسه أصبح فرضَ عين.

هي حرب عليه خوضها كيلا يقع في وحل الذنب، هي مخطوبة لآخر، لا يحق له أن يألَف صوتها، ويشتهي وصلها، ويشتاق لصُحبَتها، وضحكتها وحديثها. لا يحق لقلبه أن يرجف إذا نطق باسمها، ويشتعل فتيل الغيرة إذا النسيم مسّها.

إنه غارق في بحور الشوق حتى لم يبقَ على السطح سوى سنتيمترات يلتقط منها أنفاسه بالكاد، وبحور الشوق غدّارة، تسلب اللُبّ في لحظة.

عليه أن ينزع رايات الشوق التي يصنعها قلبه، راية راية، ويزرع مكانها رايات «ممنوع الاقتراب».

رغم أنها حاولت أن تتجاهل الأمر فإنها لم تستطع أن تمنع نفسها من الاندفاع صوبهما لتسأل بلهفة:

- ما اللعبة التي مارستماها في الداخل؟

تحفّظ المحامي في حديثه لإدراكه هويتها:

- معذرة يا أستاذة.. هذه أمور يجب ألا يتم ذكرها لكِ.

يعاملها الجميع وكآنها حليف للطرف الآخر، آشعرها ذلك بقلة الحيلة، وبالضيق، واليأس. التفتتْ إلى «غراب» تسأله:

- حتى أنتَ لن تخبرني؟

أتاها ردّه باردًا وكأن الريح حملته على نُتَف الثلج:

- هذا أفضل لكلينا.

استأذن محاميه مغادرًا، فاستطرد «غراب» مُتمًّا حديثه بغلظة مُتعمّدة:

- الجمود الإدراكي الذي تشعرينني به الآن أتفهمه.. لكن أظن أن دوركِ يجب أن يتوقف عند هذا الحد.

رددتْ ذاهلة:

- جمود إدراكي!

قال موضِّحًا:

- عندما يحدث أمر مفاجئ يتجمد تفكير المرء ولا يرى ما بعد الأزمة.

رددتْ ثانية وكأنها لم تسمع شرحه:

- جمود إدراكي!

وعندما انعقد جبينه ابتعدت عنه خطوة وهي تهتف ملوّحةً بكفيها:

- لماذا لا تتحدث مثل عامل.. لماذا لا تبدو مثل عامل؟

شعلة الغضب التي توقّدتْ بداخلها زادت أفكارها حرارة. اقتربتْ منها «نرجس» وأمسكت بكتفيها تحاول إبعادها، لكنها تملّصت من قبضتها واستطردت:

- لماذا لا تتصرف كما يتصرف عمال الموقع.. لماذا أنتَ واثقٌ بنفسكَ طوال الوقت؟ لماذا تبدو وكأنكَ مختلف عن الجميع.. لما تتظاهر بأنكَ شخص آخر؟

أطرق برأسه وتسلّح بالصمت، أمسكتها «نرجس» وأبعدتها، وفي المقعد بجوار السائق أجلستها، لكن «شفق» نهضت عنه، وأصرت على القيادة بنفسها.

انطلقتْ بالسيارة تأكل المسافات، أمتارًا في أمتار، وكأنها عقدت النية وشحذت عزمها على ملاقاة أحد القطبين، حيث يُمكن للعالَم أن يُطوى من جديد، فيلتقي الشمال بالجنوب!

لم تتحدث بكلمة، لكن جسدها كان مشدودًا، متوترًا، أصرّت «نرجس» عليها كي توقِف السيارة إلى جانب الطريق كي تتولّى القيادة بدلًا عنها، لم تند عنها أي استجابة، سوى عبرات تتساقط فوق وجنتيها، حارقة، تحفر أخاديد بطول وجهها، تستقر فيها ولا تجف.

طفقتْ تهذي بهستيرية:

- آرآيتِ كيف يتظاهر آنه شخص آخر؟ آرآيتِ كيف يصر على اقتحام عقلي بغريب أفعاله؟

مسحت عبراتها ونظرت إلى أناملها تستطرد:

- لماذا أبكي؟ ما الذي يؤلمني كي أبكي؟

«نرجس» التي كانت دومًا تُراهن على المعرفة، اتخذت مقعدًا بارزًا في صفوف الإنكار، تجذب صديقتها إليه، وتمنعها من مغادرة ساحته، تُقيّدها بالصمت!

«نرجس» التي تُشجِّعها دومًا على المواجهة، تشعر الآن بانقباضة قلبها، النصائح دومًا سهلة حينما نكون الطرف الناصح لا المنصوح!

كيف توصيها الآن بالمواجهة وقد بات واضحًا أن «غراب» هو الصوت الذي تبحث عنه منذ البداية، وأن لهذا كله معنى واحدًا فحسب، أن «دهب» ارتكبتْ في حق أختها جريمة مُنكَرة.

حين علمت «نرجس» أن «شفق» كانت تحت الأنقاض، وأنها خرجت سالمة وعادت إلى القاهرة، لم يهدأ روعها إلا عندما سافرت لرؤيتها بعد يومين من الحادثة.

كانت تعرف أن «شفق» قدمَتْ للعريش من أجل ملاقاة «سهيل» في الموقع، ثم حدث الانهيار فجأة.

وفي مكتب «شفق» بالقاهرة تحدثا طويلًا، عن الحادثة، وعن «الصوت»، وكانت المرة الأولى التي تراها ترتدي غير الأسود، منذ وفاة المعلمة «آمال».

الآن ترى «نرجس» بعين الخيال ما حدث بوضوح، «دهب» كانت تتنصت من خلال نافذة مكتب «شفق» المُفضية إلى الشرفة! تذكر أنها يومها أنها لمحت خيالًا يتحرك خلف النافذة المغلقة، ظنّته طيرًا، الآن تأكّدت أنه كان طيرًا جارحًا يتربّص بلحم أخيه كي ينهشه!

تمتمت «شفق» وكأنها تهذي:

- لماذا يُصوِّر لي عقلي المريض أشياء بشعة؟ لماذا يُحاول أن يوهمني بأنني التقيتُ هذا الرجل قبل أن ألتقيه؟

يستحيل أن تركَن لما يحاول عقلها إقناعها به، هذا الرجل التقته لأول مرة في الصحراء حين ظنّته قاطع طريق، وأي شيء يحاول عقلها إيهامها به إنما هو حجة خبيثة اخترعها كي يُبرر خطيئة قلبها!

تعرف ألاعيب العقل وخدعاته، يُحاول أن يُبرر ميلها إلى الرجل المُحرّم عليها بأن صوّر لها أنه الصوت الذي تبحث عنه.

ما أخبث عقلها، يحوك الحُجج، ويُسقط أختها في دائرة الشك.

تمتمتْ بوجه يتقزز من ملاقاة صورته في المرآة الأمامية:

- أشعر أنني قذرة جدًّا!

أضحت الرؤية أمام عينيها ضبابية، وكأن الكون قد امتلأ بدخان كثيف. هتفت «نرجس» بلوعة:

- ستتسببين في حادث.. أرجوكِ يا «شفق».

- التفتت «شفق» صوبها وكأنها تراها لأول مرة، عقلها الذاهل سقط في غيبوبة فِكرية.

تعلّقتْ أنظار «نرجس» بمقدمة سيارة مُسرعة قادمة من الاتجاه المعاكس فصرخت بها:

- انتبهي!

---

(٢)

كان على «طحنون» أن يحبسها في غرفتها بربطها بالفراش كي يتمكن من السيطرة عليها، خاف من أن تلجأ لشيخ «السخاوية» وتستجديه أن يعتقها من زواجها بـ «جبار»، فتُفسد عليه تلك الملعونة زيجة ونسبًا ما كان يحلم بهما.

وكان على «مدينة» أن تلجأ إلى الله الذي ليس لها سواه، مُتسلّحة بما بلغها من العِلم، تعرف ما لها من حقوق؛ أي زواج يتم دون رغبتها هو زواج باطل لا كرامة له.

حاولتْ أمها نزع هذا السلاح من بين يديها بقولها:

- وهل تظنين أن أباكِ سيسألكِ موافقتكِ؟

رفعت رأسها بإباء تقول:

- فليتحمل وزري إذن.

الأم التي تُشفق على «مدينة» من الضرب والإهانات قالت ترجوها:

- وما به «جبار»؟ رجل مثل أي رجل.. وافقي وأَنْهِي هذه الحرب يا «مدينة».

بعزم لا ينثني، وبقوة لا رادع لها قالت:

- أفضّل الموت على أن أكون امرأة هذا الرجل.. يده ملطخة بالدماء.. وقلبه مُشرَّب بالسواد.. لا يتعبّد لخالقه بركعة ولا تخضع جوارحه لأمر سماوي.. أموت ولا أتخيّر لأولادي أبًا فاسقًا كذّابًا.

انتحبتْ أمها وهي تجاورها في الجلوس فوق الفراش المُقيّدة إليه تقول:

- لو أصررتِ على عنادكِ سيقتلكِ أبوكِ يا «مدينة».

لاحت على شفتيها بسمة وجدت لها بين كدمات وجهها متسعًا، قالت:

- كلنا سنموت يا أماه.. المهم على أي حالة ولأجل أي غاية سنموت.

أدركتْ أمها أنها بقلة حيلتها، وضعف منطقها لن تتمكن من التأثير على قرار «مدينة»، وعندما دخل «طحنون» الغرفة هاجمًا عليها؛ انتفضتْ الأم تُخفي جسد «مدينة» خلفها، تفرد ذراعيها جناحين هزيلين هما كل ما أوتيتْ من القوة.

ابتسم «طحنون» خبثًا وهو يُعلن لها:

- جهّزيها للعُرس.. في «أربعاء أيوب» سأعطيها لـ «جبار» زوجة له.

ثم استطرد شامتًا:

- سيفعل في هذه الفرسة الجامحة ما فشلتُ أنا في فعله.. سيُروّضها كما لو كانت نعجة من نعاجه.. لا أطيق صبرًا على رؤية هذا اليوم.

أتبع كلماته بالضحكات وهو يخرج من الغرفة، تاركًا خلفه أشلاء قلبين مُنفطِرين.

بعض الناس تأكلهم الوساوس، تفنيهم، عقولهم تعمل كمستقبِل لكل شرور العالم، تخلق عالمًا يتآمر عليهم، يصدقون ظنونهم وكأنها عين اليقين.

والظن الذي نبتَ في عقل «دهب» عن خيانة أختها لم يدعها وشأنها، طفق يحوك أنواعًا شتّى من العقوبات، يبسطها فوق مائدة الانتقام، ويتركها كي تتخير أبشعها.

نظرت إلى آخر فكرة انتقامية نبتت حاكها عقلها، كانت سوداوية، كارثية، ولهذا السبب تحديدًا راقت لها!

وضعتها في حيِّز التنفيذ، وبدأ عقلها في تهيّئة نفسه لتقبل الفكرة التي ابتدعها. وضعت سيناريوهات كثيرة لتنفيذ انتقامها، لكن طرقات على الباب بوتيرة تعرفها أخرجها من شرودها.

طَوَتْ الفكرة وأخفتها في بقعة مظلمة من رأسها، فتحت الباب واستقبلتْ «شفق» متظاهرة بعكس ما تضمره في نفسها، لكن مرآها كان مفزعًا، كدمة بارزة في جبينها، وجُرحًا صغيرًا في طرف شفتها السُفلى، فهتفت بقلق حقيقي:

- ماذا حدث لكِ؟

- كدتُ أصطدم بسيارة على الطريق.

قالتها ثم انفجرت باكية، وقبل أن تضمها «دهب» بين ذراعيها، أخذت «شفق» تمسك بيديها وتذبح تحت قدميها قرابين الأسف، تُردد بهستيرية:

- آسفة، آسفة، آسفة!

بوغتتْ «دهب» بحالها، سألتها عمَّا تتأسف فقالت لها والخزي يطفو فوق قسماتها:

- لا تسأليني أرجوكِ.. ذنب قلبي أبشع من أن يُقال.

ملأتْ عينيها بوجه أختها وهي تقول بإخلاص شديد:

- لكن أعدكِ أن أؤدّبه.

ابتهجتْ «دهب» لمرأى الأسف في وجه أختها، وعودتها بين يديها نادمة صاغرة، كان العذاب في عيني «شفق» هو فرحة «دهب» وأمانها!

أدركتْ «دهب» ومنذ زمن طويل أن استعباد قلب أختها بالحب وحده لا يكفي، يجب أن تلف حول عنقها حبال الندم والأسف والألم.
تقلب الطاولة، تُشعرها أنها أسوأ، وأن جهودها مهما بلغت عَظمتها لا تكفي.
تُشعرها أن عليها البَذل حتى آخر قطرة من أنفاسها، ورغم ذلك لن تكفي.
تبخ السُم في أكثر موضع سيحترق بنيران الألم، ضميرها!

هكذا لن تقوى على فراقها، أو التفكير باستبدالها. مثل ذئب يتلبّس برداء الحَمَل قالت وهي تعزف على أوتار إحساسها بالذنب:

- لن آسآلكِ عن ذنبكِ في حقي.. سآسامحكِ هذه المرة.. لكن اعلمي أنني سأكرهكِ طوال عمري إن فعلتِ ما يُفسد علينا رابطة الرحم.. خيانة الجميع قد تمر.. لكن خيانة الأخوات جرح نازف لا يندمل.

هزّتْ «شفق» رأسها بقوة، تعتصر قلبها بيد باردة، بغير شفقة أو رحمة، تقول بخفوت وصوت مرتجف:

- لن أخونكِ أبدًا.

عانقتها «دهب» كمكافأة سخية، غاصت «شفق» بين ذراعي أختها خجلة من مسامحتها البهية، وكرمًا أغدقته عليها!

ومن عليائها نثرت «دهب» فوق أختها ورود العفو وأمطار الصفح، ومحَتْ من صفحة آثامها خطيئة الخيانة المُنكرَة!

وهي تستحضر معاني الخيانة في نفسها لم تستحضر ما فعلته كي تفسخ خطبة أختها الأولى، لم تتذكر محاولاتها المستميتة لتشكيك خطيبها في أخلاقها، عن طريق رسائل مجهولة المصدر، ترسلها إلى حساباته الشخصية.

ولم تستحضر كذلك قلة حيلتها التي دفعتها للإعداد للضربة القاضية، قبل الموعد الذي تقرر للزفاف بأيام، تحصّلتْ على ورقة رابحة، دلائل تكشف تورط خطيب «شفق» في جرائم اختلاس داخل عمله، كشفت جريمته بطرقها الملتوية، وتحصّلتْ على دليل الإدانة.

وببهجة مَن حاز الدنيا بأسرها ذهبت إلى البيت الذي أعدّه له ولـ«شفق»، نثرت تهديداتها فوق رأسه، إما «شفق» وإما الحرية!

طاش عقله، فاندفع يجذب شعرها المصبوغ بالأصفر، التفَّ حول أصابعه وتساقطت بعض شعيراتها أرضًا. حررتْ نفسها وأقسمتْ أن تتوجه من فورها إلى الشرطة إن لم يصلها خلال ساعات خبر انفصاله عن «شفق».

غادرت وتركته مثل المجنون يُفكر في قتلها، ثم هدأتْ ثائرته، وعاد المنطق يتخذ صدر مجلس الحكمة في رأسه. يحب «شفق»، لكن الحرية أحب إليه من السجن، وفضيحة لن تزول أثارها مهما فعل.

جاءتْ «شفق» برفقة أبيها لتتأكد من إتمام عش الزوجية، تنثر لمسة حب هنا، ولمسة شوق هناك، لكنه جمع باقات الحب والشوق وألقاها تحت قدميها مُعلنًا قرار الانفصال.

لم تبكِ أمامه، ابتلعتْ كرامتها المُهدرة حين أخبرها أنه زهَدهَا. لمحت شعرة ذهبية فوق كتف بذلته، نظرت حولها، فأشارت أيادي الشمس إلى أخرى فوق السجادة السوداء، تخطف نظرها بلمعان بريقها، فأمسكتها وأخفتها في قبضتها.

فهمت وقتها من تكون صاحبة الشعرة الذهبية، وتظاهرتْ بأنها لم تفهم، ثارت شكوكها وتظاهرت أنها لم تشك. أخفت الشعرة الذهبية في صندوق مغلق، وتظاهرتْ بالجهل. الجهل لا يؤذي لكن الحقيقة مؤلمة.

وكانت «دهب» حولها، ومن آجلها تبذل الوقت والجهد، تساعدها على الشفاء، وكأنها ليست موطِن الداء.

وهكذا لا يمكن للناس أبدًا من أن يروا أنف «بينوكيو» يستطيل، لأنه يُصدّق الكذبة التي اخترعها كما لو كانت الحقيقة الوحيدة الباقية!

حينما أراد قاتل المائة نفسٍ التوبة كان عليه مُفارقة الأرض التي ارتكب فيها خطاياه، هذا ما خطر لـ «شفق» منذ اللحظة التي أغلقت عليها باب غرفتها بالفندق.

كي تتخلص من موبقات قلبها عليها أن تُفارق «العريش»، في الحال. لم يبقَ هنا ما يستوجب بقاءها، لم تعد ضلعًا في القضية، وأبلغها المهندس «منعم» على الهاتف منذ قليل أن أباها أصدر قرارًا بفصلها من الشركة.

هكذا يتعامل دومًا بقرارات تعرفها مِن غيره، تُجبرها على الذهاب لمواجهته، لا يذهب «منصور النمر» إلى أحد، فلديه طرق كثيرة تُجبر الآخرين على المجيء إليه.

أيّدتْ «دهب» قرار عودتها بحماس، تُساعدها على حزم حقيبتها وتقول بابتهاج كبير:

- أحسنتِ صنعًا.. لا داعي لبقائكِ هنا.. يجب أن تعودي إلى القاهرة.. بقي القليل وينتهي العمل هنا وسآتي إليكِ على الفور.

كان الطريق إلى الشركة ثقيلًا، وإعلام «نرجس» بسفرها أشد ثقلًا. قالت «نرجس» بينما تحاول التماسك كيلا تبكي:

- لا تبتئسي.. سنعود للالتقاء قريبًا.. تعرفين أنني نُقِلتُ إلى «العريش» من أجل المشروع.. وحينما ينتهي سأعود إلى عملي في الشركة بالقاهرة.

ارتجف قلب «نرجس» لمرأى عُمق الألم في عيني صديقتها، لكن دورها الآن أن تكون صديقة ناصحة، وفيّة، تُيسر لها من سُبل الخير ما تحبه لنفسها. وهي تدرك الآن أن الحكاية وصلت إلى طريق مسدود ليس فيه فُرجة ضوء.

الضوء الذي يتخفّى خلف السد سيكون حارقًا للجميع.

الآن عليها أن تؤدي إليها حقوق الصداقة كاملة، وأن تنتشلها من حفرة موحلة ليس لها قرار. تحاملت وتصنّعتْ المرح، وهي تُعاونها على جمع أغراضها القليلة من المكتب، وترسم خططًا مستقبلية حين يتلقيان في القاهرة.

لم تند عن «شفق» كلمة، تتحرك في آلية، تفوح من بين مسامها رائحة الألم، هل للألم رائحة؟ لم تتوقف «نرجس» عن الكلام، تُزاحِم بكلمات لها معنى وبعضه ليس له معنى ما في نفس «شفق» من أوجاع. وعندما انتهَتَا من جمع الأغراض وقفتا متقابلتين على باب الشركة.

رآت «نرجس» في عينيها رجاء صارخ، يستنطقها كي تحثها على البقاء، لكن «نرجس» لم تستطع أن تدفعها إلى طريق يؤجج النيران في صدرها. رفضتْ الرجاء ولم تستجِب له. فهمتْ «شفق» رسالتها المضمرَة، فأطرقت في يأس المقهور على ما لا يريد.

قدمَتْ «دهب» وقالت بمرح كبير:

- سأوصِّلكِ إلى المطار.

فاستجمعتْ «شفق» شتات نفسها وقالت بخفوت:

- لا داعي.. سأمر على «أكمل» في الموقع أولًا من أجل توديعه.. ثم أتوجه إلى المطار.

انزعجت «دهب» تقول بامتعاض مخافة أن يحدث ما يُغيّر رأيها:

- وما الداعي لتوديعه.. ستلتقيان قريبًا في القاهرة.

لكن «شفق» تحرّكتْ قبل أن تتخلى عنها إرادتها، وغادرت الشركة لا تنظر خلفها.

فوجئت «دهب» بـ «نرجس» تسحبها من ذراعها بشكل عنيف آلمها، وصلت إلى مكتبها وأغلقت الباب من الداخل بالمزلاج، حررتْ ذراعها وهتفت بحدة:

- كيف تجرُئين على دفعي بهذا الشكل؟

الغضب الذي كان يشتعل في عيني «نرجس» اتحد مع نبرة صوتها الحازمة وهي تقول:

- كيف تجرُئين أنتِ على أن تؤذي أختكِ بهذا الشكل؟ أي مسخ مخيف أنتِ؟

اختل توازن «دهب» للحظات، ثم قالت:

- ماذا تقولين؟ كيف تجرُئين؟

- ما أجرؤ عليه سيدهشكِ كثيرًا.. هل تظنين أنكِ ذكية جدًّا؟ أنتِ مسكينة يا «دهب».. مفضوح أمركِ ليس لي فحسب.. بل لأختكِ كذلك.

- ماذا أخبرتِ «شفق» عني؟ تريدين التفريق بيننا، أليس كذلك؟

أجابتها «نرجس» بازدراء:

- ليستْ بحاجة لأن يخبرها أحد.. هي تعرف جيدًا مَن تكونين وما أنتِ قادرة على فعله.. إنها فحسب تختار عدم التصديق.

ازدردتْ «دهب» ريقها بصعوبة تحاول الفرار، لكن «نرجس» أمسكت ذراعها بقوة. قالت بقسوة:

- أنتِ بائسة جدًّا.. كل شيء تفعلينه كي تستعبدي «شفق» ينقلب ضدكِ.. قيود العبودية تخنقها وتؤلمها.. إذا استمررتِ على هذا النحو يومًا

ما ستتحرر منها.. ومنكِ.

- أنتِ خبيثة تريدين إحداث شقاق بين أختين.

- أختين؟ هل تظنين نفسكِ أختًا؟ ألا ترين ما تفعلينه بها؟ ألا ترين كم هي تتعذب؟

حررتْ «دهب» ذراعها وقالت باستعلاء:

- «شفق» سعيدة بالعودة إلى القاهرة.. هو قرارها لم أجبرها.

- سعيدة! هل نظرتِ في عينيها؟ ألا تقرأين كم هي تتألم؟ ألا ترين في عيني أختكِ أنها وحيدة جدًّا.. عاجزة جدًّا.. مقهورة جدًّا؟ هل حقًّا أنتِ عمياء إلى درجة أنكِ لم تري أنها بالكاد تتنفس؟

ثم أشارت إلى صدرها تقول:

- ألا تشعرين بذلك الشيء الذي يجثم فوقها ويخنقها؟ وأنها كلما حاولتْ أن تتحرر غاصت أقدامها أكثر؟ ألا تفهمين أنها تُفضّل أن تعيش هذا العذاب لأنها لا تريد أن تخسركِ؟ وأنكِ حين تكونين في مقارنة مع نفسها تختاركِ دومًا؟

بُهتتْ «دهب»، احتشدت عبرات في مقلتيها، بينما «نرجس» تستطرد:

- ألا ترين كم تحبكِ؟ كيف تفعلين هذا لشخص يحبكِ؟ كيف تسرقين فرحتها.. مرتين! بينما هي تُحبكِ كأخت لها لماذا تحبينها أنتِ كعبدة لكِ؟

- هزّتْ «دهب» رأسها نفيًا بقوة. تقول وقسماتها تنطق بالألم:

- لا أفعل ذلك.. أنا لا أؤذيها.. توقفي عن قول ذلك.

- أنتِ لا تؤذينها فحسب.. أنتِ تقتلينها! يومًا ما ستنام في فراشها ويختار عقلها ألا يستيقظ.. يؤرشف عقلها كل ما تكره ويضعه في خانة «لم يحدث».. وهكذا رويدًا سيمحو عقلها الحد الفاصل بين الواقع والخيال.. سيُفضل الهرب ويعيش في عالمه الخاص.. ستكون بيننا بجسدها لكن عقلها في عالم آخر.. إذا استمررتِ على هذا النحو لن يبقى ما تستعبدينه منها إلا أشلاءها.

بعد مغادرتها، أعادت «دهب» غلق الباب، جلست على الأرض مُتكئة إليه بظهرها، تدفن رأسها في ساقيها، وتنتفض باكية.

العمل في الموقع كان العذاب ذاته، تتفلّتْ نظراته من عقالها كل حين وترنو إلى موضع جلوسها المعتاد تحت المظلة.

لم تبدُ له الصحراء موحشة كهذا من قبل، الرمال التي أحبها صار مرآها يبعث بالبؤس في نفسه، الأصفر لم يعد مُبهجًا، وكأنه لون الفراق.

لماذا لم تحضر اليوم دون أن تترك خبرًا؟ أتراها مريضة؟ منشغلة؟ مُرهَقة؟ هل عرفته أم ما زالت تحوم حول حِمى الشك؟

رغم كل شيء لا يتمنى أن تسقط في قاع اليقين، إذ إن السقوط سيكون

مؤلمًا. حاول صرفها عن تفكيره بالتركيز على العمل، لكن القلق آعدّ من قلبه وليمة كبيرة، وعندما تحدث إليه «أكمل» موضحًا ما يخص العمل، تأمله «غراب» بإمعان، يبحث فيه عنها!

يحاول أن يرى أثرها في وجهه، في نظرته، في نبرة صوته. لم يجد لها أثرًا في «أكمل»، وكأنها لم تمر بخاطره يومًا؛ أسعده ذلك، وأبهج قلبه للحظة.

وفي التالية رآها تقترب، فانتفض، وأدار لها ظهره في الحال، أغمض عينيه آملًا أن تختفي!

قطع «أكمل» الطريق بينهما، وقال لها مبتهجًا:

- هل جئتِ لتودعيني قبل السفر؟

اغتم «غراب» وامتعض، تمنى أن تختفي، وها هي ستختفي. لماذا استكثر على نفسه أن يتمنّى شيئًا أجمل، وأكثر بهجة، علّه كان قد تحقق الآن. سمعها تقول:

- موعد رحلتي قد اقترب.. هل كل شيء يسير على ما يرام هنا؟

- لا شيء يسير على ما يرام، كيف تسأل سؤالًا كهذا مُتظاهرة أنها بخير، وأن كل شيء سيكون بخير؟ عندما قطع عامل حديثها مع «أكمل»، تفلتتْ منه ودنَتْ من «غراب»، أحس بها دون أن يلتفتْ، ودّ لو تذهب وتختفي.

نعم، كانت أمنيته الأولى في موضعها الصحيح، عليها أن تختفي.

- عرفتُكَ!

ارتجف لوقع الكلمة على نفسه، التفتَ صوبها ببطء، يستكشف حقيقة ما طوته كلمتها من معنى. استطردتْ مؤكدة وهي تزفر بقوة:

- كذّبتُ نفسي كثيرًا.. لكن لم يعد يسعني الكذب.. نعم.. عرفتُكَ.

أطرق برأسه لا يقوى على النظر، تقبض يداه بقوة على كوب زجاجي، يضغط عليه بكل قوته إذ سمعها تقول:

- علينا أن نواجه الأمر بشجاعة شخصين ناضجين بما يكفي كي يفهما أن الحياة تضحية.

تهشم الكوب في يده، تناثرت أجزاؤه بين يديه موسومة بدمائه.

انفعلتْ تقول بصوت ضعيف مضطرب:

- «غراب» توقف عن إشعاري بالذنب.. أنا لم أخطئ في حقك.. كل ما حدث كان خطأ «دهب» لكن هذا لا يُغير الحقيقة في شيء.. فعلتُ ما بوسعي لأجل قضيتك.. لكن كما ترى لم يعد بوسعي إنقاذكَ.

غابت أمارات الانفعال عن وجهه جامد القسمات، أضافتْ باكية أمام ناظريه:

- لا أستطيع خسارة «دهب».. لا تكُن السكين الذي ينغرس في قلب أختين.. سأعود الآن إلى القاهرة.. وسيبقى كل ما حدث في «العريش» وما شهدتْ عليه الرمال مجرد حكاية منسية.

ثم استطردتْ وهي تمسح عبراتها بظهر كفها:

- لا تُحمّل الحكايات أكثر مما تستحق.. لا يُمكن أن يخرج من تحت الأنقاض حكاية حيّة.. ما يُولَد تحت الأنقاض يُولَد ميتًا.

أصدر طائر الحبّاري صوتًا متوسلًا، واعتراضًا نافرًا من كلمات الشَجَن.
استدارتْ مغادرة، لم تكد تخطو ثلاث خطوات حتى بوغتتْ بقوله:

- أنتِ لستِ «شفق»!

استدارتْ بحدة، تنظر صوبه مستنكرة، فقال وهو يُشبِّك كفيه خلف ظهره:

- أولًا «شفق» لا تنظر في عيني بوقاحة مثلكِ، إنها تخجل من النظر المباشر في عيني رجل.. ثانيًا حينما تتحَدّث معي تقف على مسافة ولا تقترب.. ثالثًا «شفق» لا تترك يدًا في منتصف الطريق، حتى وإن عادَتْ إلى القاهرة ستسعى من هناكَ لمحاولة إنقاذي.. رابعًا إنها تغار على دموعها ولا تهدرها دون استحياء أمام عشرات من عيون العمال المُتربصة.. خامسًا إنها لا تُناديني باسمي مُجرّدًا، وحمدًا لله أنها لا تفعل لأن اسمي بصوتها سيكون فاتنًا.. سادسًا «شفق» يُسحرها طائر الحبّاري ويخطف بصرها، وأنتِ لم تلتفتي إليه بنظرة واحدة.. هاكِ ستة أسباب تحضرني الآن.. ولو كان لي حق إطلاق البصر لأتيتكِ بضِعفهم.

صدمتها صفعاته! لم تخجل من فعلتها وهي مُتنكرة في ملابس سوداء متظاهرة أنها «شفق»، بل تعاظم الغيظ في صدرها لأنه عرف كيف يُفرّقهما، حتى المعلمة «آمال» نفسها ما كانت تستطيع أن تفعل!

لم تُفكر «دهب» في الذهاب إلى الموقع منتحلة هوية أختها إلا لتضع كلمة التتمّة على حكاية منتهية، تظل الحكايات مفتوحة ما دام كلمة «تمت» لم تُكتب بعدُ.

ذهبت لكتابتها ولم تُدرك أن «غراب» ليس «أكمل»، ليس حتى كخاطب أختها الأول، إنه مختلف، وما بينهما مختلف.

اقترب منها «أكمل» مُستكملًا حديثهما، نبتتْ على شفتي «غراب» ابتسامة ساخرة، أي خطيب هذا الذي لا يُفرّق خطيبته عن أختها، حتى وإن امتلكا الوجه نفسه؟

أبهجه ذلك؛ هذا يعني أن هذا الرجل جاهلٌ بها.

لوعة الفراق التي أحسّ بها دفعته لأن يُقدم على تصرف متهور، غادر الموقع بسيارته، يقطع الطريق بسرعة كبيرة، يتساءل عقله في عجز: هل ستمنعها؟ وماذا ستقول لها؟ كانت «دهب» على خطأ في كل ما قالته إلا في أمر واحد، لا يصح أن يكون السكين الذي ينغرس في قلب أختين، ولا يجرؤ على إفساد ما بينها وخاطبها طالما لا تزال ترتدي خاتمه.

أبطأ من سرعته، حتى أوقف السيارة على جانب الطريق.

ليس رجلًا بهذه الخسة، لا يُمكن أن يؤذيها من أجل أنانيته.

لقاؤها الآن آذى، بل طعنة نافذة. استدار بسيارته إلى الطريق المعاكس، طريق الهرب.

ولم يعلم أنها فعلت المثل واختارت الاتجاه المعاكس.

بعدما كانت قادمة إلى الموقع، تباطأت سيارتها حتى توقفت إلى جانب الطريق، تُعنّف نفسها بلوعة، ومرارة الحنظل في حلقها: هل أنتِ ذاهبة لتوديع «أكمل» حقًّا أم لرؤيته؟ من تخدعين؟ هذا لا يليق بكِ.

اتصلت بـ «دهب» تُخبرها أنها عدّلَت عن ذهابها، وأنها ستتوجه إلى المطار الآن.

لم تستطع توديع الخالة «نوّارة»، خافتْ أن تسمع منها ما يكسر عزمها ويستبقيها في قلب الخطر.

المشاعر المكبوتة تحتاج فسحة للخروج وإلا هيّجتْ في الصدر براكينه الخاملة. لم يجد ما يفرغ فيه غضبته، وقهرته وقلة حيلته سوى أن يمسك بمعول وينهال به فوق البيت هادمًا!

البيت الذي لم يكتمل بناؤه بعد، طوب أحمر رصّه فوق بعضه راسمًا حدودًا فاصلة بين عالمين، عالم بالخارج لا يعنيه أمره، وعالم في الداخل مكونة منه والفتاة التي التقاها خلف الباب المغلق.

الآن لم يبقَ سواه في عالمين بئيسين، لا يسعه لا الذي في الخارج، ولا الذي في الداخل، فانهال فوقه هادمًا كل طوبه وضعها.

فتت البيت وشتت أركانه، ثم انهار أرضًا عندما هدّه التعب.

وجهٌ بلون أحمر دامٍ، ويدٌ تقرّحت، ونزفٌ لا ينقطع. يُناجي الله متسائلًا، عن الحكمة من تعلُّق قلبه بفتاة لن تكون له ولن يكون لها.

لم يتقرَّب منها عامدًا، حدث كل شيء بمقادير الله وحكمته، لكنه عاجز عن رؤية السبب، لماذا كُتِب على قلبه أن يتفتت من الشوق إلى المستحيل؟

ناجَى لربه من بين شفتين مرتجفتين، يبحث عند الشافي عن الدواء: أحبها، كيف أتخلص من هذا المرض؟

ومن بعيد راقب «بشير» كل ما حدث، أتى ليطمئن على حاله عندما أبلغه العمال أن «غراب» اليوم كان صامتًا، حزينًا، يائسًا، يبدو أن مسار القضية يُزعجه.

نخز الندم ضمير «بشير» وأوجعه، أتى ليُخفف عنه ويستفهم منه، فرأى ما رأى. اقترب منه، وربّتْ فوق كتفه، وقال بإشفاقٍ:

- أنتَ لا تستحق ذلك أبدًا.

وقبل أن يفهم «غراب» لكلماته معنى كان قد عاد من حيث أتى، عازمًا

النية هذه المرة على التخلص من حمل ضميره الذي يصرخ بين جنباته مُعنِّفًا.

لم يعرف «مستور» السبب الذي دفع أحد العساكر إلى إحكام قبضته على ذراعه، وإيداعه في عربة الشرطة وتوجه به إلى القسم.

لم يعرف السبب إلا حينما دخل مكتب الضابط ورأى «عبقرينو» يجلس أمامه. نظر إليهما «مستور» مضطربًا، التفتَ «عبقرينو» إليه وواجهه قائلًا وهو يتحسس كدمة في وجهه:

- هل ظننتَ أنكَ ستفلتَ بفعلتكَ؟

---

(٤)

تحرّك أهل القبيلة مثل خلية نحل، يعدّون الزينة، والطعام، والشراب، ويذبحون الإبل والبقر والأغنام استعدادًا لعُرس «عين» على ابن عمها.

يبيتون النية على أن يكون الاحتفال بزواج ابن شيخ قبيلتهم احتفالًا تتحدث عنه القبائل أيامًا وليالي.

اليوم هو «أربعاء أيوب»؛ الأربعاء الذي يليه «شم النسيم»، وكان من عادات السوارفة في هذا اليوم الذهاب إلى البحر للتبرك به، ينزل الرجال للاستحمام في البحر من الصباح وحتى قبل العصر، وتنزل النساء بملابسهن قبيل غروب الشمس وحتى بعد المغرب، يُطعمونه أرجل الذبائح، ويتبركون به من أجل الشفاء والرزق!

ثم مَنَّ الله عليهم ومنذ دخل العِلم قبيلتهم، وعرفوا أن ما يفعلونه شِرك عظيم، فتوقفت العادات لكن بقيَ لذكرى «أربعاء أيوب» احتفاءً خاصًا في نفوس بعضهم. ولعله السبب الذي وقع به الاختيار ليكون يوم زفاف أبناء العم.

لم يظهر «بحر» يومها، فعزى الجميع ذلك إلى انشغال العريس بالتجهُّز للعُرس، ولم يدرِ سوى «أم ذيل» أن «بحر» اعتكف في غرفته، ممددًا فوق فراشه، ينظر إلى السماء البادية، ويرجو الشمس كيلا تأفَل.

لاح الشفق بلونه الدامي مفترشًا السماء؛ انقبض صدره، كما لو كانت السماء قد اصطبغت بدمائه هو.

- انهض يا «بحر» وارتدِ شيئًا لائقًا.. الرجال مجتمعون في المجلس من أجل كتب الكتاب.

أدار رأسه ونظر صوب «أم ذيل»، ثم نهض متكاسلًا وهو يقول بحزم:

- أنتظرُ جواب الشيخ.

نهرته أمه تقول:

- أي جواب هذا الذي تنتظره من الشيخ؟

لم تكد تنهي عبارتها حتى برز الشيخ من خلفها، فانتفض «بحر» واقفًا، لم يطل الشيخ البقاء، قال باقتضاب ما خلُصَ إليه بعد تفكير أضناه أيام وليالٍ:

- تزوج «عين» ولكَ ما شئتَ.

لم يصدق «بحر» أذنيه، قائلًا بحماس كبير:

- هل تعني هذا حقًّا يا شيخ؟ هل ستسمح لي بالزواج من فتاة ليست سوارفية؟

شهقت «أم ذيل» بصوت مسموع، تكتم فمها بكفها، بينما الشيخ يقول بألم لم يخفَ على «بحر»:

- بعد هذا العمر لويتَ ذراعي يا «بحر».. وجسد أبيكَ كبر عظمه حتى لم يعد قادرًا على تحمل الألم أكثر.

أطرق «بحر» بخجل، خجل لم يدفعه للرجوع عن رغبته. الآن بعد آن نال كل شيء لن يسمح لنفسه بأن تضعف لكلام الشيخ الحاد بحدة شفرات قاطعة، الآن امتلك كل شيء بين يديه، صار حرًا كما تمنّى.

لم يخسر شيئًا على الإطلاق، ولن يخسر.

كل الوداع مؤلم، فكيف بوداع امرأة كانت زوجته لعام كامل، شاركها الطعام والشراب والأنفاس، ونبتَ من بذرتيهما طفلة مثل البدر؟ كيف له ألا يتأثر؟ وأن يُوصّلها إلى السيارة بوجه جامد، وبقلب جاحد، كالرجال!

هكذا زعموا، لكنه لم يرَ ما ينتقص من رجولته عندما ناشدها لآخر مرة أن تعود عن قرارها، أن تجلس فوق عرش بيته، وتُراعي شؤون مملكتها.

«عِيدة» التي اشتمّتْ نسيم الحرية من فرجة الباب أبَتْ إلا وأن تفتحه على مصراعيه، ولبيته مُفارِقة.

ولكي يحتال على مشاعرها ويستجلب عطفها، حمل صغيرتها وأسرع بها إليها. وقفت أمام السيارة التي أرسلها «جبار» لإحضارها، لم يحضر بنفسه وأرسل إليها أخًا لهما في الرضاع كي يأتي بها.

غلّقتْ أبواب قلبها، وسدّتْ أذنيها أمام بكاء الصغيرة ونظرات «حَمَد» المنكسرة، أشاحت بوجهها كيلا تنظر إليها، وأخفت دمعة هاربة بطرف ردائها.

ستنسى هذا العام وكأنها لم تعِشه، ستنساه وكأنها لم تخطُ بقدمها أرض «السوارفة» قط.

عندما دخل والد «عين» غرفة ابنته دمعت عيناه لمرآها في فستان زفافها الأبيض، لطالما رآها في رقتها ووداعتها وجمال قلبها مثل الحَمامة. الآن صارت حمامة بالفعل، وتستعد لتطير مُبتعدة عن العش الذي فيه كبرت، كي تبني عشها الخاص.

دنا منها وكتم تأثره، كانت قد أسدلَت برقعًا أبيض مطرزًا فوق وجهها لم يرَ منها سوى عينين مكحّلتين دامعتين، حمامته الصغيرة فرِحة، تبكي فرحًا!

أخذ نفسًا عميقًا ثم نطق بالسؤال الذي لطالما اشتهى لفظه:

- هل أنتِ موافقة على الزواج من «بحر»؟

تشتت نظراتها وتحركت عيناها في أركان الغرفة، ثم استقرت فوق وجه أمها التي هزّتْ رأسها بقوة دافعة إليها لنطق الكلمة. شعرت أنها وحيدة جدًّا، حَيْرى جدًّا، فتساقطت منها الدمع ولطّخ الأبيض بالأسود.

اقتربَ منها أبوها وربّت كتفها وهو يقول بحزم:

- كل شيء سيكون بخير.. لا تقلقي.. صحيح ستكونين زوجة لـ «بحر».. لكنكِ ستظلين في حمايتي وحماية الشيخ.. لن يجرؤ «بحر» على

إزعاجكِ.. لن نسمح له.

كانت تلهث، صدرها يعلو ويهبط انفعالًا، لم تقوَ على النُطق بالموافقة، لكنها هزّت رأسها في إشارة لا تخفى على أحد!

دخل أبوها المجلس مهللًا، مُبشّرًا بأنه أخذ الموافقة من ابنته، ضحكت الوجوه واستبشرتْ.

وعندما دخل «بحر» التفتت إليه عيون الرجال مُبتهجة، تدعوه للاقتراب والجلوس في صدر المجلس، كي يضع يده في يد عمه، مُتمًّا زيجة كانت مُقدّرة ومكتوبة منذ زمن طويل في كتاب الغيب.

بيت «طحنون» وكأنه بيت حداد ينتظر لحظة الصلاة على الميت المُكفّن بجهل العادات.

«مدينة» لم تكن جسدًا ميتًا، لا تزال الروح الأبية تتحرك بين جنباتها. ورغم أنها تعرف أن أباها الآن في رفقة «جبار» ومع أهل القبيلة عند البحر استعدادًا لتزويجها إياه بعد الانتهاء من مراسم التوسُّل للبحر من أجل الشفاء والرزق، فإنها لم تستسلم لليأس، ولم تطلب من أمها غير ما تقدر على فعله.

- لن أطلب منكِ الوقوف في وجه أبي.. أعلم أنكِ لم تملكي طوال عمركِ القوة الكافية لحمايتي من بطشه والدفاع عني من أفعاله الظالمة.. أرفض ضعفكِ.. وأكرهه.. لكنني أفهمه.. وأسامحكِ من كل قلبي.. لكن أرجوكِ يا أمي فكّي قيدي.

عندما نظرت لها أمها بلوعة طمأنتها «مدينة» بلهفة:

- «مدينة» لن تفعل أبدًا ما يخجلكِ.. أنتِ تعرفينني.. كل ما سأفعله أنني سأتوجه إلى البحر.. سأرجو شيخ السخاوية أن يوقف أبي ويمنعه من تزويجي من «جبار».

ثم أضافت متوسلة:

- أرجوكِ يا أمي.. ساعديني هذه المرة فحسب.. وأعدكِ أنني لن أطلب منكِ شيئًا آخر طوال عمري.

تحاملت أمها كي تُغالب خوفها من «طحنون» وغضبته عندما يرى «مدينة» أمامه تشكوه إلى شيخ السخاوية، لكن فطرتها دفعتها لتنقض على القيد وتحلّه، قائلة بلهفة وهي تدفعها إلى الخارج:

- أسرعي!

وقفت تراقبها بأعين دامعة، وجسد عاجز عن الحركة، ونفس اعتادتْ الهوان.

تعدو «مدينة» مبتعدة عن البيت، تحاول أن تنقذ نفسها من مصير كمصير أمها.

المسافات التي قطعتها بقدميها العاريتين، وسرعتها في مواجهة الريح والظلام واليأس وتقرح قدميها، كل ذلك لم يكن كافيًا.

عندما وصلت إلى الشاطئ كان أبوها يجلس فوق الرمال مُبتهجًا، وفي يدِ «جبار» غصن شجرة أخضر اللون، الجميع يلتف حولهما ما بين مصدوم، ومن يضرب كفًّا بكفٍ في امتعاض.

هبط قلبها في قدميها، هل زوّجها أبوها كما أعلن قبل خروجه من البيت؟ لماذا يقف شيخ «السخاوية» مخاطبًا «جبار» بأمارات حادة، بينما يقف أبوها من خلفهما ضاحكًا!

خطَتْ صوب الجمع بقدمين مرتعدتين، وقلب واجف.

---

(٥)

- ما الذي حدث لوجهكِ؟

هكذا استقبلها أبوها عندما دخلت مكتبه بغير استئذان، كانت طوال الطريق تُمعن النظر في الصور التي أُرسِلَتْ إليها مع رسائل التهديد، كانت تشعر بعدم ارتياح كلما وقعت أنظارها على الرجل في الخلفية، والذي التقته في الطائرة.

لم تحتَج إلا مساعدة بسيطة من ذاكرتها طويلة الأمد، تُرَاكِم بها كل المعلومات التي يُهملها العقل الواعي ويضعها في سلة النسيان. لذلك عندما أخذت غفوة في الطائرة، نسج لها عقلها اللاواعي حُلمًا، ومن الحلم جمعت أين رأت هذا الوجه من قبل.

ألقت بالصور فوق المكتب تسأله بحزم:

- هذا أحد رجالكَ يا أبي.. لماذا جعلته يتعقّبني؟

ألقى أبوها نظرة على الصور دون أن يمسّها، ثم أراح ظهره إلى ظهر مقعدة وقال بنبرة متعالية:

- هل أتيتِ إلى هنا لتسأليني عن هذه السخافات؟ ظننتكِ ستأتينني معتذرة عما بدر منكِ من حماقات.

تعب الطريق، وآلام قلبها، جعلوا الكون من حولها وكأنه يدور، قالت بلسان ثقيل:

- حماقات! ماذا فعلتُ أنا؟

احتد «منصور النمر» وهو يضرب فوق المكتب بكفيه قائلًا:

- وتسألين أيضًا؟ أرسلتكِ إلى العريش في مهمتين لا ثالث لهما.

ثم رفع إصبعيه مُعددًا:

- تُسيطرين على العمال حتى نكسب القضية.. تُفرّقين بين أختكِ وهذا المجرم.

- «غراب» ليس مجرمًا.

قالتها ببساطة وتلقائية دفعت بالدماء إلى أن تندفع إلى رأس «منصور النمر»، كان عليها أن تسكت ولا تثير حفيظته لكن وقع الكلمة كان غير محتمل. نهض عن مكتبه صائحًا:

- عندما أقول مجرمًا إذن فهو مجرمًا.

- ليس بأقوالكَ.. بل بأفعاله.

قالتها بهدوء، وقبل أن يرد عليها، انطلق السهم من القوس:

- بعدما أخرج من مكتبكَ سأتصل بمحاميه وأتفق معه أن يدعوني للشهادة.. سأشهد بأنه أبعد ما يكون عن الشبهات.. وأنكَ تلقي بالتهمة عليه كي تنقذ سمعة شركتكَ.. وأنني أظن أن سبب الحادثة لم يكن له علاقة بمواد البناء.

نظرت في عينيه تقول:

- أنتَ تعرف أنني ذهبتُ يوم الحادثة للقاء «سهيل».. وأنني حُبِستُ في المبنى الثالث.. وقتها سمعتُ صوت الانفجار الذي قيل أنه حدث لخط الغاز بسبب سقوط البنايتين.. لكن هذا غير صحيح.. أتى صوت الانفجار أولًا ثم انهار المبنيان.. هذه الحادثة كانت بفعل فاعل.. أصبحتُ واثقة من هذا الآن.

بُهتَ أبوها، فاستطردت تقول:

- أرجوكَ يا أبي أوقف هذه المهزلة ولا تتمادَ أكثر.. وإلا أقسمُ إنني سأفعل كل ما قلتُ.

اندفع ثائرًا في وجهها:

- هل تُهددينني؟

اندفعت تُمسك بكفه تُقبّلها وتقول:

- بل أرجوكَ.. أوقف ذلك.. أنتَ تعرف أنه بريء.

نفض يده منها قائلًا:

- ما قالته «دهب» حقيقي إذن.. أنتِ! كيف تفعلين ذلك؟ هل ذهبتِ إلى العريش كي تسجني هذا الرجل أم لكي تقعي في حبه؟

كان وقع كلماته غير محتمل، غطّتْ أذنيها بكفّيها، ناشدته بنظراتها كي يتوقف عن اتهامها. أعلن قراره الأخير بغلظة:

- ستنتهي هذه القضية.. وهذا الرجل سينال عقوبته.

رغم كلماته الواثقة، استطاعت أن ترى في عينيه ينابيع القلق، والخوف!

لم يسبق لها أن رأت الخوف في عيني «منصور النمر»، كانت عيناه دائمًا تطفح بالقوة والثقة.

ماذا يخفي أبوها؟ لماذا يُصر على اتهام رجل يثق ببراءته؟

- أنتَ تعرف الفاعل الحقيقي، أليس كذلك يا أبي؟

ليتها ما نظرتْ في عينيه، ليتها ما ألقتْ بسؤالها؛ وجهه كان يصرخ بالإجابة حتى وإن لم ينطق بها. أبوها لا يخفي عنها سرًا صغيرًا، بل أمرًا هائلًا، نطقت أمارات وجهه بفظاعته!

هل لوالد «أكمل» يدٌ في الحادثة، هل يُكمم فمه بالتهديدات المضمرة بالشر؟ أوصلها الشك إلى أن تتساءل هل لـ «أكمل» نفسه علاقة بالحادثة؟

هالها أن تسأل نفسها سؤالًا كهذا وكأنها لا تعرف أبدًا معدن الرجل الذي ترتدي خاتمه.

فجأة، اقتحم المكتب بعض رجال الشرطة، نهر «منصور» سكرتيرته ورجل الأمن الذي رافقهم، وفي الوقت ذاته تقدم أحدهم إلى «شفق» يتأكد من هويتها.

ثم آخرج آصفاده الحديدية، ووضعها حول معصميها وهو يقول:
- كُلّفتُ بالقبض عليكِ لأنكِ متهمة بالتسبب في حادثة العمال التي وقعت بالعريش!

الحِمل على الظهر يثقله
والحِمل على القلب ينقله
من عالمٍ إلى عالمٍ
فيه الآلام تقتله!
بخنجرٍ أو بلطةٍ
أو سهام بالسم ملطخة
أو سيف حادّة ضربَته
ومنه الحياة تسلبه!
لكل قلب طاقة ألم
وقدر من العذاب والسقم
إن زاد عن حدهِ
مات الفؤاد في لحدهِ!
رفقًا بالقلوب وشغافها

وآمالها وأحلامها
لا تسلبوها طاقة الاحتمال
فما هذا إلا اغتيال!

الليلة السابعة عشر

إذا تعبتَ من مسح الماء المُنساب فوق الطاولة؛
حِل المشكلة من منبعها، بإفراغ الكوب الذي يفيض بحِمله.

(١)

تظل عيون الفتاة مهما بلغت من العمر تبحث عن بوصلة للاهتداء إلى الجهات الأربع، وبوصلة البنت هي عين أبيها..

تهادتْ نظراتها عند عيني أبيها، تبحث فيهما عن بوصلة توجهها، أو أمارة ترشدها إلى بر الأمان، لكن نظرات «منصور» كانت خالية من التوجيه، قلقة، جزوعة، هلوعة.

حررتْ نفسها من أيدي الضابط وارتمتْ بين ذراعي أبيها، أليس حضن الأب حصنًا للفتاة؟ لماذا إذن تشعر فوق صدره أنها في العراء بلا حماية، مُعرّضة لكل أنوع الخطر؟

جذبها الضابط أمام ناظري «منصور»، وحين بكت ورفضت الانصياع، قال لها «منصور» برباطة جأش:

- اذهبي معهم.. سأتصرف.

انصاع جسدها وانساق بين يدي الضابط، وحين مرّتْ على النظرات الشامتة في الطريق إلى سيارة الشرطة، طأطأتْ برأسها خجلًا، يُثقل ظهرها عار ذنبٍ لم تقترفه.

عندما فارقت «العريش» منذ ساعات لم يخطر ببالها أنها ستعود إليها في اليوم نفسه، مُرحّلة في سيارة شرطة!

هل هبطتْ الطائرة بأمان؟ هل أزعجها أحد الركاب؟ هل قطع طريقها الرجل الذي يراقبها، أو ذاك الذي يُهددها؟

هل وجدت سيارة تقلها إلى البيت؟ هل ضايقها السائق؟ تطاول عليها؟ مسَّها بكلمة أو بنظرة؟

طوفان من الأسئلة أغرق عقل «غراب» حتى كاد أن يصيبه بالجنون.

وكلما مرّت الدقائق والساعات؛ تتقافز الأسئلة ولا تهدأ، وكأنها تُخلَق من العدم.

هاتفه الجديد لا يحوي أي أرقام سوى رقم المحامي والشركة. كان يجلس في الخارج، على صخرة أمام البيت الذي هدّه بيديه، عندما فاض بحمله من القلق وجد أنامله تتسابق للاتصال بالشركة، أتاه صوت أنثوي لم يتعرفه للوهلة الأولى؛ تلجلج لسانه، وتاه عن عقله صيغة سؤال مناسب، وعندما أنهت الفتاة المكالمة التي لم تسمع فيها صوتًا؛ أعاد الاتصال ثانية. هذه المرة بادرها بـ:

- مَن معي؟

أتاه ردها بنفاد صبر:

- أنا الأستاذة «نرجس»، تفضّل.

تحررتْ عقدة لسانه، لكن الاضطراب لا يزال يساور نبرة صوته حين قال:

- آنا الريس «غراب».. آردتُ فقط الاطمئنان.

هكذا قالها وكأنها رسالة مُشفّرة، أدرك ذلك حين أتاه صمتها كجواب، بالتأكيد لم تفهم مقصده، لكنه كذلك عاجز عن الشرح، فلماذا اتصل إذن؟

لام نفسه، وفي اللحظة التي أوشك فيها على أن يعتذر منها وينهي المكالمة فوجئ بها تقول:

- تحدثنا فور وصولها.. كانت متوجهة إلى الشركة.

صدمه جوابها، كيف فهمت مقصده؟ ما قالته لم يكن كافيًا لتبديد قلقه. أضاف بالاضطراب ذاته:

- أحدهم يلاحقها و...

قطعت عليه عبارته التي لم يكن يعرف كيف يُنهيها وقالت:

- لذلك اتصلتُ بها ثانية وكانت قد وصلت إلى الشركة بالفعل.. أبوها أيضًا هناك.

أكثر الأماكن أمنًا حين يكون المرء في كنف أبيه، لكن ذلك لم يُشعِره بالراحة، فالأب الذي تتحدث عنه «نرجس» لا يولي العناية الكافية لأمن فلذة كبده، ربما يضع على أمواله حراسة أكبر، ويتخذ تدابير أمنية أعظم من تلك التي يضعها من أجل أمان ابنته.

لم يسع «نرجس» أن تُطمئنه أكثر، لذلك شكرها، وكاد ينهي المكالمة لكنه سمعها تقول:

- ريِّس «غراب»..

بدا أن كلامًا كثيرًا يصطف على لسانها، يُزاحم بعضُه بعضًا، لكن ثمة ما جعلها تتراجع وتقول:

- لا شيء.. ليلة سعيدة.

نظر إلى النجمات اللامعات هازئًا، ليلة سعيدة!

وقف «بحر» أمام المجلس في أبهى حُلة، يتلقّى الدعوات كي يجلس في صدره، يضع كفه في كف عمه.

يده في جيب جلبابه ناصع البياض، يُقلّب بين أصابعه خلخالًا ذهبيًّا يتدلّى منه نجمات صغيرة. وفجأة، جاءه رجل من خلفه وهمس له:

- هناك رجل يُصر على الحديث معكَ يا «بحر».. يقول إنه أمر مهم لا يحتمل التأجيل.. ينتظركَ بالخارج.

تعجَّب «بحر»، واستثار فضوله، فقفل راجعًا. تعجب البعض، أما الآخرون عزوا ذهابه المفاجئ إلى الترحيب بضيف من الكبراء، عادوا إلى لهوهم ومرحهم إلى حين عودته.

وفي الخارج أشار الرجل إلى السيارة التي قدمت من أرض «السخاوية» لتحمل «عِيدة» إلى «جبار». هذا الرجل الذي يقودها يعلم «بحر» أنه أخ لـ«جبار» في الرضاع، لذلك احتار بشدة، ما الأمر العاجل الذي أراد أن يحادثه فيه في لحظة كتلك؟

بددّ الرجل حيرته إذ قال بنبرة ذات مغزى:

- وصّاني «جبار» أن أبلغكَ رسالته عند لحظة كتب كتابكَ.. لا أعرف ما المغزى لكنني رسول وما على الرسول إلى البلاغ.

توجستْ نفس «بحر» خيفة، فتنحنح الرجل قائلًا:

- يقول لكَ «جبار».. في اللحظة التي تعقد فيها على ابنة عمك.. هو الآن في أرض «السخاوية» أمام البحر.. يأخذ «قصلة» عروسه الثالثة.

هل يُمكن للكلمات أن تصطف في شكل خنجر وتندفع لتُحدث في الصدر طعنة نافذة؟ هكذا فعلت كلمات «جبار» في نفسه.

الخنجر كان مسمومًا، سرَى السم في عروقه حتى وصل إلى مخه وأفسد فيه مواضع المنطق وآيات التفكير. حسب «جبار» أنه سيُنغّص ليلة «بحر» برسالته، ولم يحسَب أن كلماته كانت مزلزلة لدرجة أن تدفع ذرات التهوّر للفوران في جميع أنحاء جسده.

اندفع صوب سيارته يُخرج من جيبه مفتاحها. يد «حَمَد» التي أطبقت على ذراعه جعلته يتوقف بينما أخوه يستصرخه:

- إلى أين أنتَ ذاهب يا «بحر»؟ الرجال ينتظرونكَ بالداخل!

نزع «بحر» يده هاتفًا والغضب يحتشد في مقلتيه:

- دعني يا «حَمَد».

أطبق «حَمَد» على ذراعه مجددًا يهتف بحدة:

- لن أسمح لكَ باستصغار أبي وعمي وابنة عمي.. عُد إلى رشدكَ يا «بحر».

دفعه «بحر» عنه وقد حجبت أبالسة الغضب عن عقله صفاء التفكير:

- قلتَ لكَ دعني يا «حَمَد».

- قلتَ لكَ لن أسمح لكَ.. هل تريد للقبيلة بأسرها أن تلوك سيرة «عين»؟
قال «بحر» بازدراء:

- أنا لا أؤذيها.. ضعفها هو الذي يؤذيها.

- هي ضعيفة.. كسيرة.. حسنًا.. كن رجلًا وأجبر كسرها.. أو على الأقل لا تسحقها أكثر.

- لستُ رجلَ تضحيات مثلك!

ثم أشار صوب السيارة التي تحرّكت بـ «عِيدة» مبتعدة عن أرض «السوارفة» وقال مُعنّفًا:

- انظر إلى أين أوصلتك تضحيتكَ.. زوجتكَ أخت قاتل أخيكَ تركتكَ.. وابنتكَ ستكبر بغير أم.

ثم فتح باب سيارته واحتل مقعد السائق، توقف للحظة، قال بينما يسترق إلى أخيه النظر، شاعرًا بوقع كلماته القاسية عليه:

- أخبرهم أنني سأتأخر قليلًا.. لكنني سأعود.

اندفع بسيارته يشق الرمال صوب أرض «السخاوية»، سيقبض على رقبة «جبار» بيديه، يقتلعها من جسده، هذا الحقير.

آخر ما نما إلى أسماعه قبل أن يبتعد كانت كلمات «حَمَد» وهو يهتف بغضب:

- ليس كل ما تدير له ظهركَ ينتظركَ يا «بحر»!

---

(٣)

أدركَتْ «مدينة» كل شيء حين رأت غصنًا أخضر في يد «جبار»، ومن خلفه يقف أبوها الضاحِك متفاخرًا.

إذ كان من عادات «السخاوية» وأجدادهم إذا رضي والد البنت أو وليها بالخاطب؛ أخذ غصنًا أخضر وناوله إياه قائلًا: «هذه قصلة فلانة بسنة الله ورسوله».

وتصبح زوجة له عندما يأخذ الخاطب «قصلة» عروسه وقال: قبلتها زوجة لي بسنة الله ورسوله.

وما إن رأت الغصن الأخضر في يد «جبار» حتى علمت أن أباها قد أعطاها له. هرولَتْ صوب شيخ السخاوية الذي أفزعه نداءاتها ثم مرآها وهي تقول بفزع:

- لم أرضَ بهذا الزواج يا شيخ.. زوّجني أبي دون رغبتي.

«طحنون» الذي سبها واندفع صوبها كي يضربها، أوقفته كلمة الشيخ قسرًا، إذ قال:

- دعها ولا تضربها يا عديم المروءة.

لكنه الشيخ الذي يعلم عادات قبيلته وطقوس أجداده، وما كان بوسعه أن يفهم الخطأ في هذه العادات، ولا الظلم والجور الذي وقع على الضعيف من أهل قبيلته، الجهل لا يضر بصاحبه فحسب، إنما يَطال رعيَّته.
التفتَ إلى «مدينة» قائلًا بغير رضا وهو يسترق النظر إلى «جبار»:

- سبق السيف العزل.. أصبحتِ زوجة «جبار» وانتهى الأمر.

لا الشيخ ولا أبوها ولا «جبار» نفسه كان أحد منهم بقادر على إجبارها على الرضوخ لزواج باطل، هكذا هتفت بها ولم تخشَ في الله لومة لائم:

- هذا الزواج باطل.. لم أصِر زوجة لأحد.

وكان ما قالته كافيًا كي ينقم عليها «جبار» ويهم بالقبض على ذراعها مُعنّفًا، لكن الحرة لم تقبل بمساسها، أخذت تحث التراب في عيني «جبار» وترجمه بما طالته يدها من الحجر.

ثم جرَتْ مهرولة، لكن «طحنون» قبض على غطاء رأسها، وسحبها يسب ويلعن، حتى أتى بيته وألقاها في صحنه، وغلّق الأبواب بالمفتاح عليها وأمها قائلًا:

- فلتبقَ هنا حتى يأتي زوجها لأخذها.

---

(٣)

عندما اتصل محاميه في هذا الوقت من الليل، بينما هو لا يزال مكانه فوق الصخرة أمام أنقاض البيت المُتهدّم، رجّح عدم الرد، لم يجد في نفسه طاقة للحديث عن شيء، غيرها.

لكن إلحاح محاميه في الاتصال دفعه أخيرًا لأن يجيب متبرمًا. حمل صوت المحامي الكثير من البهجة وهو يُبشِّره:

- لن تصدق ما حدث.. أولًا قد تعرّفتْ الشرطة على هوية المجرميْن اللذين هاجماكَ وسرقا سيارتكَ.. ثانيًا براءتكَ صارتْ وشيكة جدًّا.

انتفض «غراب» واقفًا يقول بحماس كبير مُتجاهلًا البُشرى الأولى:

- صحيح براءتي أصبحت وشيكة؟ كيف ذلك؟

- ظهر دليل جديد استبعدك تمامًا من الاتهام.. ويُدين المجرم الحقيقي.. ألف مبارك.. البراءة أصبحتْ في قبضتنا.. إنها مسألة وقت فحسب.

توجّس «غراب» وهو يسأله:

- ومَن يكون المجرم الحقيقي؟

- لن تصدق ذلك أيضًا.. صُدمتُ عندما بلغني الخبر.. هناك شاهد قدّم فيديو يُظهِر المجرم الحقيقي وهو يزرع قنابل موقوتة أسفل المبنى الثاني.

- من يكون؟ أخبرني.

- إنها الأستاذة «شفق»

زلزلته كلمات محاميه، هتف «غراب» بلوعة غير مصدق:

- «شفق» مَن؟

- «شفق منصور النمر».

طاش عقله، وطفق يتحرك حول نفسه وهو يقول غاضبًا:

- أي مزحة سخيفة هذه.. هذا ببساطة مستحيل.

احتار المحامي في أمره، قال بإصرار:

- لكنّ هناك دليلًا تم تقديمه للشرطة بالفعل.. وصدر قرارَ القبض عليها هي الآن في طريقها إلى «العريش».

- دليل فاسد!

هكذا أصدر قراره دون حاجة لفحص الدليل المزعوم، ثم سأل بحدة لم يجد لها محاميه ما يبررها:

- هل تستطيع الحصول على هذا الفيديو؟

- حاليًا لا.. لكن ربما غدًا قد...

قاطعه بنبرة أكثر حدة:

- مَن الذي قدّم هذا الدليل؟

- إنه «بشير».. عامل في الموقع.

- «بشير»!

ردد «غراب» اسمه ذاهلًا، تذكر ما قاله له، ونظرته الغريبة التي حدّجه بها قبل وقت ليس بالطويل.

- هل لديكَ رقم «بشير»؟

قال المحامي بحماس:

- بالطبع أنا أحتفظ بكل أرقام العمال لكنه لن يُجيب عليكَ لأن الشرطة تحفّظتْ عليه.

الصباح الذي بدأ بمثوله أمام القاضي في المحكمة كمُتهم في القضية كيف انتهى بمساء أضحت فيه «شفق» هي المتهمة؟

تحرّك بسيارته على الفور قائلًا بلهجة آمرة:

- قابلني أمام القسم.. الآن.

«عبقرينو» الذي توعّد «مستور» وفّى بوعيده، وقف «مستور» مكبوت الغيظ أمام الضابط مثل فأر وقع في المصيدة، دار الضابط حول المكتب، وبجُل قوته نزل فوق رقبة «مستور» بضربة دفعتْ به مترًا صوب المكتب واصطدم به. قال معترضًا:

- ماذا فعلتُ يا باشا لتضربني؟

أمسك الضابط بياقة جلبابه، أداره ثم صفعه بقوة قائلًا:

- أنتَ لم ترَ شيئًا بعد.. تتعدى على صحفي بالضرب في منطقتي وتريدني ألا أُحرّك ساكنًا.

أمسك «مستور» بيد «عبقرينو» ونزل عليها بشفتيه مُقبّلًا وهو يرجوه:

- سامحني.. ظننتكَ صحفي في جريدة ببئر السلم.. لم أعلم أن لكَ أصدقاء مثل الباشا.

كلماته التي أراد بها إذهاب الغضب من صدر «عبقرينو»؛ أججتْ غضبه أكثر، فقال وهو يبعد كفه عنه:

- تقيس الناس بمعارفهم وأصدقائهم إذن.. أنتَ رجل بلا كرامة يا «مستور».. ما كان عليكَ أن تتهجم عليّ بالضرب مهما كانت هويتي.

- أخطأتُ والله.. سامحني.

ثم هجم على يد الضابط قائلًا:

- وأنتَ يا باشا سامحني.. إن رأيتني أضرب أحدًا مرة أخرى اقطع يدي.

دفعه الضابط ثم دار حول مكتبه وقال له بازدراء:

- حتى وإن سامحكَ.. فهناكَ تهمة أخرى موجهة ضدكَ.

وقف «مستور» متوجسًا وهو يسأل عن التهمة الثانية، وفي اللحظة

التالية كان «بشير» يدخل الغرفة ويقف أمام مكتب الضابط بجوار «مستور»، وعندها أشار الضابط صوب «بشير» قائلًا بتشفٍ:

- يتهمكَ هذا الرجل أنكَ ساومته على دليل مهم في قضية العمال.. سقطتَ ولا أحد سيُسمِّي عليكَ يا «مستور».

اندفع «مستور» صارخًا في وجه «بشير»:

- غبي.. لم تُسقطني فحسب.. أسقطتَ نفسكَ كذلك.

التفتَ إليه «بشير» يقول بوجه راضٍ، زارته الراحة بعد غياب طويل:

- وليكن.. المهم أن ضميري مرتاح الآن.

أمر الضابط بإيداعهما في الحجز، ثم التفتَ إلى «عبقرينو» مُخاطبًا إياه باسمه الحقيقي وهويته الحقيقية قائلًا:

- اسمع يا «طاهر» أقول لكَ هذا كصديق.. ابتعد عن «منصور النمر» وشركته.. هذا الرجل يده طويلة.

امتعض «طاهر» قائلًا وهو ينزع نظارته كي ينظفها:

- أنتَ مَن تقول لي ذلك؟ لم يكن هذا هو رأيكَ عندما أخبرتكَ برغبتي في العمل متخفيًا في شركة «منصور النمر».

- كان هذا قبل أن نمسكَ بالمجرم الحقيقي.. وافقتكَ.. بل وشجعتكَ على ذلك من أجل أن تحصل على السبق الصحفي الذي حلمتَ به.. والآن قد حصلتَ عليه.. توقف ولا تُعرّض نفسكَ للخطر أكثر.
أعاد «طاهر» وضع نظارته فوق قصبة أنفه وهو يقول:

- لا أظن أنني حصلتُ على ما أردتُ.

سأله الضابط بحيرة:

- كيف ذلك؟ تم القبض على الفاعِل الحقيقي في حادثة العمال.. هذا أكثر مما حلمتَ به.

أجابه «طاهر» وهو يميل صوب صديقه:

- صدقني مستحيل أن تكون «شفق» هي من دسّتْ تلك المتفجرات أسفل المباني.. ليست شخصًا من هذا النوع.. مستحيل أن تنتهي القضية عند هذا الحد.

- لكنكَ رأيتَ بنفسكَ الفيديو الذي سلّمه «بشير» إلينا.. وجهها واضح بما لا يدع مجالًا للشك.

هزَّ «طاهر» رأسه قائلًا بحماس:

- صحيح أنها ترتدي الأسود والحجاب يُغطّي شعرها.. لكنني أؤكد لكَ أن الفتاة في الفيديو توأمتها.. «دهب».

حكَّ الضابط ذقنه قائلًا:

- لكن ما الدافع إذن؟

هزّ «طاهر» كتفيه وقال بحيرة بالغة:

- وهذا أشد ما يُحيّرني أيضًا.. المباني غير مؤمّن عليها.. أي أن الخسارة فوق رأس «منصور النمر» لم يكن بديل ما يعوضها.. هذا غير الهجوم الذي طال سمعة شركته بسبب موت العمال.. حتى «دهب» ليس لها مصلحة في فعل ذلك.. أما «أكمل» وأبوه فإنهما شركاء «النمر» وطالتهم الكارثة كما طالته، فما مصلحتهم في ذلك؟

قال الضابط مُفكّرًا:

- ربما «شفق» عندها الدافع الذي نبحث عنه.

وقبل أن يعترض «طاهر» رفع الضابط كفه قائلًا:

- لا تقول لي مستحيلًا.. اسمع يا «طاهر».. قابلتُ في عملي هذا أناسًا يحملون وجوهًا أشد براءة من وجوه الأطفال.. ثم يتضح بعد ذلك أنهم أتوا بموبقات لا تحتمل أذنيك سماعها.. الناس أبشع مما تتصور يا «طاهر».. المجرمون يحملون وجوهًا عادية جدًّا.. يسيرون في الطرقات.. وتجلس بجوارهم في المترو والحافلات دون أن تدرك وجوههم الحقيقية التي أجادوا إخفاءها.

ثم استطرد:

- وأظن أن لـ «شفق» وجهًا آخر سنراه قريبًا.

تردد «طاهر» للحظات قبل أن يميل بجسده صوب صديقه قائلًا:

- اسمع.. أنا أظن أن حادثة العمال مرتبطة بجريمة أخرى حدثت في الجنوب.

اجتذب بكلماته جُل انتباه الضابط الذي هتف مُفكّرًا:

- جريمة أخرى حدثت في الجنوب؟ أي جريمة تقصد؟

أراح «طاهر» ظهره إلى المقعد قائلًا:

- سرقة المخطوطة الأثرية من «دير سانت كاترين».

أطلق الضابط ضحكة عالية ظنًا أن «طاهر» يمزح، لكن أمارات الجدية على وجهه بددتْ ضحكته، فطفق يقول:

- لكن يا «طاهر» ما علاقة جريمة السرقة التي حدثت في الجنوب بحادثة المباني التي وقعت في الشمال؟ ثم إن جريمة السرقة هذه فاعلها واضح.. كان رجلًا أجنبيًّا ممن يعملون في الدير.. عندما تم اكتشاف أمره هرب من الدير ومعه واحدة من المخطوطات التي سرقها، والبقية وُجِدَتْ في مخبأه السري.. القضية تم غلقها لأن الفاعل تم القبض عليه واعترف بجريمته.

طقطق «طاهر» إصبعيه قائلًا بحماس:

- الفاعل اعترف بجريمته.. لكن لم يجد أحدٌ قط المخطوطة التي هرب بها قبل أن تتمكن الشرطة من القبض عليه.. هو نفسه لا يعلم كيف وأين

فقدها.

فكّر الضابط قليلًا وهو يحك ذقنه ثم قال:

- أنتَ تظن أن في هذه المخطوطة الدافع الذي نبحث عنه لمُرتكِب حادثة العمال؟

مال «طاهر» صوب المكتب وقال بجدية:

- السبب الذي جعلني أعمل متخفيًا في شركة «النمر» لم يكن حادثة العمال بل قضية أخرى بحقٍ مُغتَصَب.. ثم ظهرتْ أمامي علامات استفهام جعلتني أربط حادثة السرقة التي وقعت في الجنوب بحادثة العمال.. وأظن أن شخصًا ما يملك الخيط الخفي الذي يجمع بين الحادثتين.

- ومَن يكون هذا الشخص؟

تمتم «طاهر» بغموض:

- «غراب السيناوي».. أو «مُسفر السوارفي».. أو كلاهما!

---

(٤)

لم يرَ «بحر» أمامه وهو يقود سيارته بسرعة جنونية سوى وجه «جبار» الضاحك، امتلأ غيظًا على غيظ، ولم يكد يصل إلى الشاطئ القريب من أرض «السخاوية» الذي اعتادوا أن يمارسوا فيه طقوس «أربعاء أيوب» حتى كان الجمع قد انفضّ، لم يجد سوى رجلين لا يعرفهما، دنا منهما يسأل عن «جبار» فقال له الرجل الذي عرفه:

- لماذا تريده يا «بحر»؟ اترك الرجل وشأنه فقد تزوّج للتو.

هبطت كلماته كالصاعقة فوق رأس «بحر»، ردد ذاهلًا:

- تزوّج؟!

أجابه الآخر وهو يرمقه بفضول، يحاول أن يستكشف غرض ابن «السوارفة» من زيارة أرض «السخاوية»، والبحث عن «جبار» في تلك الساعة:

- نعم تزوج ابنة «طحنون».. ثم ماذا تفعل هنا.. أليس عرسكَ الليلة؟

أمسكه «بحر» من ياقته وسحبه ليقف على قدميه وسأله صارخًا بوجهه:

- ماذا تقول.. كيف تزوج بها؟ وهل وافقت على زواجها به؟ هل وافقت؟

هتف الرجل وقد أفزعه جنون «بحر» الذي طالما رآه برباط جأش قوي:

- ومنذ متى والنساء يؤخَذ رأيهن في الزواج.. أعطاها له أبوها وانتهى الأمر.

دفعه «بحر» بقوة وهو يصيح به:

- هذا الزواج باطل إذن.

قال الآخر وهو يُعين صاحبه على استعادة توازنه:

- لقد جننتَ تمامًا يا «بحر».. ما شأنكَ بنسائنا؟ أم أن لكَ عينًا في ابنة «طحنون»؟ خسئتَ يا «بحر».. إنها زوجة رجل آخر الآن.. وأنتَ زوج لابنة عمك.

لم يسمع «بحر» من حديث الرجل حرفًا، أو سمعه لكن أذنيه توقفتا عن إرسال إشارات إلى المخ، كل ما فكّر فيه في تلك اللحظة، كيف يُنقذ «مدينة» ويستخلصها لنفسه.

عاد إلى حيث أوقف سيارته، وانطلق بها مخترقًا قلب «السخاوية»!

لم تستطع «مدينة» أن توفّي بوعدها لأمها حين أخبرتها أن فك قيدها هو الشيء الوحيد الذي ستطلبه منها طوال حياتها، إذ عاجلتها برجاء أشد لوعة من الأول:

- دعيني أذهب يا أمي.. والله أموت ولا أدخل بيت هذا الرجل.. زواجي منه باطل وذنبي في رقبة كل من سمع وكل من شهد.

قالت أمها بلوعة:

- إلى آين ستذهبين يا «مدينة»؟

أمسكتْ «مدينة» بكفَيها تقول بحماس:

- أتذكرين الحكاية التي قصصتها عليكِ والتي سمعتها من راعي الغنم في المرعى المفتوح؟ ثمة امرأة من قبيلة مجاورة زوّجوها غصبًا بالقصلة كما حدث معي.. زوّجوها بغير موافقتها من رجل بغيض تكرهه.. ولم يساعدها أحد للتخلص من هذا الزواج الباطل.. فتوجّهَتْ إلى محكمة العريش.. وقالت للقاضي كل شيء.. فحكم لها ببطلان زواجها(1).

فكّرتْ الأم قليلًا ثم قالت برجاء:

- دعك من ذلك يا «مدينة».. اقبلي بزواجكِ من «جبار» ولينتهي هذا العذاب.

- لا وربي لا أفعل.. لن أجعل فاسقًا يمسّني.. ولن أسمح أن يكون مثله أبًا لأولادي.

- سيقتلكِ أبوكِ إن عثر عليكِ قبل وصولكِ للقاضي.

رفعتْ «مدينة» رأسها بإباء وقالت باسمة:

- «مَن مات دون عِرضه شهيد».. أي ميتة أرجوها من الله أجمل من هذه؟

الأم التي أهلكها الخوف وقفت عاجزة عن اتخاذ قرار، وكانت «مدينة» تعلم أنها أضعف من أن تتخذ هذا القرار لذلك مالت على كفّيها تُقبّلهما وتقول:

- فقط أخبريني أنكِ راضية عني.. والله لو أخبرتني أنكِ غاضبة سأبقى هنا ولن أذهب.

قالت أمها بابتهاج من بين عبراتها:

- وستقبلين بـ «جبار»؟

هزّتْ «مدينة» رأسها نفيًا بقوة، فخَبَتِ البهجة من وجه أمها وعادت تبكي وتقول:

- سيقتلكِ أبوكِ إذن.. أو «جبار».. لماذا تصرين على اختيار الطريق الأصعب يا «مدينة»؟

- لا أختار الطريق الأصعب بإرادتي يا أمي.. لكن طريق الحق دائمًا أصعب.

- اقبلي بالباطل هذه المرة فقط.. من أجل أمكِ.

- من أجلكِ أفعل كل شيء.. لكنكِ تطلبين مني ما لا أملكُ.. نفسي أمانة.. وروحي أمانة.. وجسدي أمانة.. كيف تطلبين مني أن أخون الأمانة؟ لا والله لا أفعل.. لن يراني الشيطان أسلك طريقًا إلا ويجري خائفًا يسلك طريقًا آخر.. هكذا عشتُ وهكذا سأموتُ.

فكّرتْ الأم في أن الطريقين كل منهما أشد وعورًا من الآخر، يحفهما خطر الموت والفقد، لكن في أحدهما يلوح أمل الخلاص، وهذا الشعاع الهزيل من الأمل هو ما دفعها لتقول بخفوت:

- اذهبي يا «مدينة».

ابتهجتْ «مدينة» وسألتها بحماس بعبرات تملأ مقلتيها:

- أراضية عني يا أمي؟

رمقتها بلوم من بين عبرات تغشي عينيها وقالت:

- كيف لا أرضى؟ وهل كنتُ أحلم بابنة مثلكِ؟

قالت «مدينة» بابتهاج وهي تعانقها بقوة:

- سنجتمع معًا قريبًا جدًّا.. وسنضحك ضحكة لن نحزن بعدها أبدًا.. هكذا رأيتُ في منامي.

تعاونتا على كسر الألواح الخشبية التي دقّها «طحنون» في النافذة، ومنها فارقتْ «مدينة» البيت تُشيِّعها عبرات أمها ودعواتها بقلبٍ وجل.

قصة حقيقية.

(٥)

أوقف «غراب» سيارته أمام القسم، وبحث بعينيه عن محاميه بلهفة. دنا منه يقول بلهفة:

- هل حصلتَ على الفيديو الذي قدّمه «بشير»؟

- سأفعل.. لكن بعد الاستجواب.. إن الأستاذة «شفق» قادمة الآن.

لم يكد يتم عبارته حتى أتت عربة الشرطة التي رحّلتها من القاهرة، رأى وجهها فغاص قلبه في صدره، ليس الوجه الذي رآه صباح اليوم في المحكمة. وجهها شاحب ذابل، وكأن أحدهم امتصّ منه رحيق الحياة.

ما إن رأته أمامها حتى تعلّقتْ به بأنظارها، الوجه المألوف الذي تصادفه بعد ساعات من السفر مع غرباء يُقيِّدونها بالأصفاد، ويُعاملونها كما لو كانت مجرمة. تماسكتْ كيلا تبكي، عضّتْ شفتها حتى كادت أن تُدميها.

اشتهتْ نظراته أن تتعلّق بوجهها، تمسح عنها وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المُنقَلَب. اشتهتْ نظراته أن تُطمئِن، وتحنو، وتُعانِق، لكنه أدّبها بإبعادها عما تشتهي، وعلّقها بأكثر ما تبغض، خاتمها الذهبي.

تأججتْ مشاعره تأججتْ، وهبّتْ جوارحه واستنفرت عندما أمسك العسكري بذراعها كي يسوقها إلى الداخل. النيران التي تأججتْ بداخله دفعته لأن يفزع إليه يُمسك بكفه يُبعده عنها، وعندما حاول العسكري أن يدفعه بقسوة، أمسك «غراب» كتفه بلُطف وقال:

- يا أخي أنتَ رجل ذو نخوة.. لن تقبل المساس بأهل بيتكَ.. ما حاجتكَ إلى لمسها وهي مُقيدة وتسير أمامكَ على قدميها حيث تأمرها؟

تغالَظ عليه العسكري:

- وهل هي من أهل بيتكَ؟

- نعم.

أدهشها ردّه الذي صرّح به دون تردد، ولدهشتها أيضًا أعجبها ذلك، أعجبها كثيرًا، إلى الحد الذي جعلها تُطرق برأسها أرضًا بندم.

سألها بخفوت:

- هل معكِ دواؤكِ؟

دون أن تنظر إليه هزّتْ رأسها نفيًا. اختفت داخل المبنى، وقبل أن تدخل مكتب الضابط فوجئتْ بـ «أكمل» يخرج منه، لم يكد يراها حتى بادرها:

- لا أصدق يا «شفق».. أنتِ!

- أنا ماذا؟ أنتَ لا تُصدّق أن لي يدًا في هذه الجريمة!

زفر بضيق قائلًا:

- تلك هي المرة الثانية التي تدخلين فيها القسم كمتهمة.. رأيتُ الفيديو.. إنها أنتِ يا «شفق» فلماذا تُنكرين؟

نظرتْ له بذهول كمن تراه لأول مرة، بينما يستطرد:

- عليكِ إثبات براءتكِ حتى وإن لم تكوني بريئة.. انكري كل ما يُوجّه إليكِ من تهم.. إذا اشتمّتْ الصحافة هذا الخبر فسيُقضى على سمعة الشركة إلى الأبد.

عندما دخلت مكتب الضابط وجلستْ فوق المقعد المقابل لمكتبه، أراها الفيديو الذي صوّره «بشير» يوم الحادثة.

امتلأ صدرها بعبرات قهرٍ غزيرة، فيضان لا قِبَل لها به، حطّم كل السدود التي أقامتها في وجهه. شعرتْ وكأن الدنيا كلها قد ألقت بأحمالها فوق ظهرها، وهذه المرة ما عادت تحتمل!

رأى «أكمل» يخرج من القسم؛ دنا «غراب» منه يقول بصوت حاول قدر استطاعته أن نزع عنه رداء اللهفة:

- دواؤها ليس معها.. لو أنكَ أحضرت لها علبة.

كان يعلم أنه يتمادى كثيرًا، لكن ماذا يفعل بوحوش القلق التي تنبث بأظافرها في لحمه؟ كان قادرًا على أن يحضر لها دواءها، لكنه ارتأى أن يُذكّر الرجل الأحق برعايتها. ما استقر في نفس «أكمل» كان مختلفًا، إذ هتف بغضب:

- ما شأنكَ بها؟ إنها بخير ولا تحتاج إلى دواء.

كيف يُفهِم غليظ الفهم هذا أن النوبة قد تأتيها في لحظة دون استئذان؟ وأن التوتر الذي ستشعر به خلال التحقيق حتمًا سيُصيبها بنوبة هلع.

قال وهو يجز على أسنانه:

- بالضبط لا شأن لي بها.. لذلك أقول لكَ تحرّك واجلب لها دواءها.

ساقته أبالسة العناد فقال:

- من أنتَ لتُملي عليّ أوامركَ.. أنتَ من تعمل عندي ولستُ أنا من أعمل عندكَ.

بادره «غراب» وهو ينظر له بقوة:

- أنا لا أعمل عندكَ.. بل معكَ.. ونحن خارج الأوقات الرسمية للعمل.

اغتاظ «أكمل»، فقال:

- اهتم بشؤونكَ وابتعد عنا.. لا تتظاهر بالقلق وأنتَ في داخلكَ تتراقص فرحًا لأن براءتكَ قد صارت قاب قوسين أو أدنى.. بينما المجرم الحقيقي تم الإمساك به.

لم ينطق باسمها، إذ لا يملك هذا الحق أمام خاطبها، لكنه قال حازمًا:

- ليستْ الفاعلة.

أطلق «أكمل» ضحكة عصبية، ساخرة، ثم أخرج هاتفه وشغّل الفيديو أمام ناظري «غراب» وهو يعض لسانه بعصبية، ثم قال:

هل هذا ما تستفزني كي أريكَ إياه؟ هل ارتحت الآن وقد تأكّدتَ أنكَ

ستخرج منها مثل الشعرة من العجين؟

قبض «غراب» على الهاتف، نظر إلى الفيديو بإمعان حتى انتهت دقائقه المعدودة، وعندما نزع «أكمل» هاتفه منه فوجئ بـ «غراب» يقول بثقة متناهية:

- ليستْ هي التي تظهر في الفيديو.

فَقَدَ «أكمل» توازنه للحظة، أعاد النظر إلى الفيديو، ثم قال بغيظ:

- إنها «شفق».

- ليست هي.. هي لا ترتدي في موقع العمل سوى الأحذية الرياضية فحسب.

قال «أكمل» بعناد وغلظة:

- ترتدي الأحذية في المدينة.. فلعلها قدمتْ إلى الصحراء فجأة ولم تتسنَّ لها فرصة تغيير حذائها.

- الأحذية التي ترتديها في المدينة مُسطّحة.. لم ترتدِ قط حذاءً ذا كعبٍ مرتفع ورفيع بهذا الشكل.. ومَن يعتاد ارتداء الأحذية المُسطّحة يحتاج وقتًا كي يعتاد السير بتوازن عندما يرتدي فجأة كعبًا رفيعًا.. وفي الفيديو تسير الفتاة بشكل متزن للغاية.

أطلق زفيرًا قصيرًا ثم كرر:

- ليست هي.

وبدلًا من أن تُشعل هذه الحقيقة الأمل في صدر «أكمل» لإثبات براءتها، أشعلت نيران الغيظ، كيف يعرف هذا الرجل عنها أكثر مما يعرف هو، كيف ينتبه للتفاصيل التي تفلتْ من حيز إدراكه؟

وقبل أن يتهمه وإياها بتهمة وقحة سارع «غراب» يقول باقتضاب:

- أنتبه لحذائها لأنني لا أنظر إلى وجهها حين أحادثها.

لكن ذلك لم يكن كافيًا لأن يتفهّم «أكمل» سبب تذكّره لهذه التفاصيل عن «شفق»؛ دفعه «أكمل» دفعة قوية في صدره صائحًا:

- اهتم بشؤونكَ وابتعد عنا.

أمسك المحامي بكتفي «غراب» وأبعده، ثم نهره قائلًا:

- هل جننتَ؟ ماذا تفعل أمام القسم؟ هلا هدأتَ قليلًا وتوقفتَ عن جذب الأنظار إليكَ.

انفلتتْ أعصابه من عقالها فقال مُهتاجًا:

- أحتاج إلى التحدث إلى «بشير».. افعل شيئًا.

انفعل المحامي قائلًا:

- وماذا بإمكاني أن أفعل؟ إنه محبوس داخل الحجز.. أنا محامٍ ولستُ ساحرًا.. هل آتي لكَ بقبعة وأقول «جلا .. جلا» فيخرج منها «بشير»؟ اهدأ

آرجوك.

محبوس داخل الحجز! قبل أن يفهم المحامي نية «غراب»، اندفع هذا الأخير صوب «أكمل» يلكمه بقوة أخلّتْ بتوازنه في الحال، لم يكد يستفيق «أكمل» من هول المفاجأة حتى انقض على «غراب» بلكمة قوية لم يجتهد لتفاديها.

عدة لكمات تبادلاها قبل أن يخرج أحد الضباط آمرًا بغضب أن يودَع الاثنين داخل جدران الحجز!

---

(٦)

أدركتْ أم «مدينة» أن شيئًا ما يدور على مقربة من بيتها، ومن الشباك القريب استرقتْ النظر والسمع، فوجئتْ بـ «بحر» وعلى وجهه أمارات الغضب، مُحاطًا برجال من «السخاوية» يمنعونه عن «طحنون» الذي احتمى بـ «جبار» بدوره.

لم تسمع من الحديث الدائر بين الرجال الكثير لكن المرأة التي مرّتْ أمام شباكها وقفت عندها تُمصمص شفتيها وهي تقول بنبرة ذات مغزى:

- هل ما يُقال صحيح يا أم «مدينة»؟ يقولون إن «بحر» ابن «السوارفة» له عين من «مدينة».

انفعلتْ الأم هاتفة بها كي تحتشم وتمسك عليها لسانها. قالت المرأة قبل أن تستكمل طريقها:

- فاحت رائحة ابنتكِ وما زلتِ تُدافعين عنها.. الرجل ترك زفافه وجاء إلى هنا كي يمنع زواجها.

«بحر» الذي فقد كل منطق، اندفع باغيًا على «طحنون» و«جبار» محاولًا المطالبة بـ «مدينة»!

اغتاظ شيخ «السخاوية» من تعدي «بحر» السافر على رجال قبيلته، وذِكره لإحدى نسائهم؛ أمره أن يتأدّب بأخلاق العرب، لكن «بحر» عمَتْ عيناه بالكامل، لم يعد يرى سوى ما يشتهي ويرغب!

لن يقبل بفقدان «مدينة» حتى وإن وقفت القبيلتان بأكملهما في وجهه، هتف بالشيخ:

- أقول لكَ أريدها زوجة على سنة الله ورسوله.

انفعل الشيخ قائلًا وهو يضرب عصاه بالأرض:

- وأنا أقول لكَ إنها صارتْ زوجة رجل آخر.. استحِ يا «بحر».

قال بازدراء وهو يُنقل نظراته إلى وجه «جبار» الشامتْ:

- زواج باطل.. مستحيل أن توافق على رجل مثله.

وكأنه تلفّظ بكبيرة، هيّجت كلماته رجال القبيلة وتعالت صيحاتهم في وجه «بحر» يدفعونه صوب حدود أرضهم، كي يُخرجوه منها. أراد «جبار» أراد أن يستمتع أكثر برؤية أمارات القهر فوق وجه «بحر»، فأمر «طحنون» بإخراج «مدينة» ليأخذها إلى بيته.

وقف «بحر» ينظر بلوعة صوب البيع، يُقاوم تدافع الرجال وغلظتهم، خرج «طحنون» يضرب كفًّا بكف وهو يصيح بلوعة:

- أين «مدينة»؟ لا أجد «مدينة».

طاشتْ عقول الرجال، اندفع البعض محاولًا فَهم كيف ومتى اختفت الفتاة، أما «جبار» الذي خسر الجولة اندفع صوب «بحر» يصيح:

- أنتَ خطفتها.. «شارد» لَعِين.. أين زوجتي يا «بحر»؟

يُسمى خطف البنات عند البدو «الشرود»، والخاطف «شارد». آراد «جبار» بخبثٍ أن يلقي عليه تُهمة «الشرود» المُنكَرة.

نزع «بحر» يدي «جبار» عنه بقوة، ثم أخرج طبنجته من ثيابه وضرب ثلاث طلقات في الهواء أيقظت القمر النائم والنجمات المتثائبات، ثم هرول صوب سيارته وانطلق بها باحثًا عن «مدينة» في قلب الظلام.

المجلس الذي كان يضج بالفرح صار منبعًا للقلق والتوتر، ازدادت الأسئلة، وتصاعدتْ الهمهمات، تُطالب بحضور العريس كي يتم مراسم الزواج.

انفرد الشيخ بابنه خارج الديوان، سأله في حدة عن مكان «بحر»، أجاب «حَمَد» محاولًا امتصاص غضب أبيه:

- قال إنه سيعود.

- أين ذهب يا «حَمَد»؟

قالها بحدة هيَّجتْ الدماء الحارة في عروقه، قرصتْ قلبه قرصة آلمته، وضع الشيخ كفه فوق صدره يُمسِّده بقوة. أمسكه «حَمَد» قائلًا بجزع:

- أرجوكَ يا شيخ اهدأ.

لكن الشيخ لم يكن أمامه متسع للهدوء، إذ هجم أخوه «برهوم» حاملًا رياح الغضب، يسأل عن مكان «بحر». وفي اللحظات التالية كان أحد الرجال يدنو من وقفتهم الجانبية وهو يبلغهم على عجالة بالخبر المشؤوم. اقتحم «بحر» أرض «السخاوية» مُطالبًا بفتاة من فتياتهم، ولما لم يعطوها إياه خطفها! ورجال «السخاوية» وشيخهم في طريقهم الآن إلى أرض «السوارفة» الآن. هكذا حملت الريح الأخبار عبر الرمال والجبال. كاد الشيخ أن يسقط أرضًا لولا أن أسندته ذراع «حَمَد» القوية، والذي قال مؤكدًا:

- أخي لا يفعل شيئًا كهذا.

امتلأ «برهوم» غضبًا وأغلظ على أخيه في القول:

- أهذا هو ابنكَ يا شيخ الذي أردتَ أن تخلفه مشيخة القبيلة من بعدكَ؟ أهان شرف «السوارفة» صغيرهم وكبيرهم.. وأهان ابنتي ليلة زفافها.. لن أستطيع رفع رأسي في وجه القوم من بعد هذه الليلة.

وللمرة الأولى لم يستطع الشيخ الرد على أخيه، ماذا يقول وقد أمسكه ابنه الذي أحبه من أكثر موضع يؤلمه، ودسَّ جبينه وسط طين العار؟

كيف يواسي أخاه وهو الذي يحتاج إلى مواساة في مصابه. طفق يسترجع ويستغفر ربه.

- أنا سأتزوجها يا عماه!

التفت زوجان من العيون الجاحظة واستقرتْ فوق وجه «حَمَد» الذي بدت الجدية على مُحيَّاه، كيف جرؤ على قول مقالته، بل ومتى فكّر فيها حتى يتلفظ بها بأريحية؟

لم يدرك الشيخ أنه كان الشعلة التي أضاءت الفكرة في رأس «حَمَد» حين أثنى عليه في غرفته ونعته بأنه رجل يُعتمد عليه، لم يعلم أن «حَمَد» انتظر طيلة عمره كي ينظر له أبوه كرجل مسؤول يستطيع تولي زمام القبيلة التي أحب ترابها وأحب عاداتها وقوانينها.

لم يدرك الشيخ أنه وفي هذا اليوم قد رفع «حَمَد» إلى مصاف القادة، والقائد يتخذ القرارات التي تُريح من حوله، وتُقلل خسارتهم، لذلك لم يجد ما تلفّظ به مُستهجنًا على أذنيه.

انفعل «برهوم» مُستهجنًا ومُستقبحًا مقالته:

- ماذا تقول أنتَ الآخر؟

أمسك «حَمَد» بذراع عمه قائلًا:

- اسمع يا عماه ما أريد أن أقول لكَ.. لن أسمح أن تمس ابنة عمي كلمة أو نظرة تزعجها.. أو تسير مُطأطأة الرأس وسط الناس.. الناس قد أتوا اليوم لحضور زواج ابنتكَ على ابن عمها.. وهذا ما سيحدث.

لم يهدأ انفعاله إذ قال:

- كيف تكون عروسَ أخيكَ ثم تتزوجها أنتَ؟ تأدّب يا «حَمَد»!

وعلم «حَمَد» بفطرته أن من صفات القائد المصارحة، لذلك قال بأكثر نبرة هادئة يمتلكها:

- وأنتَ تعلم أن «بحر» لم يكن له رغبة في الزواج منها.. إنما هي العادات التي دفعته صوب ما يكره.. الجميع يعلم ذلك.. ويتظاهر بأنه لا يعرفه.. لكن إنكار الحقيقة لا يعني اختفاؤها يا عماه.. أنا سأتزوج ابنة عمي فأكون لها زوجًا.. وتكون لابنتي أمًّا.

وجد «برهوم» في اقتراح «حَمَد» ما ينقذ به بعضًا من ماء وجهه ووجه ابنته، فهي في النهاية ستتزوج ابن عمها وابن شيخ «السوارفة»، خاصة وقد أصبح «بحر» رهانًا خاسرًا لن تقوم له قائمة بعد الآن.

لكن الغيظ حاكَ رداءً وأسبغه فوقه إذ قال وهو يمسك بعود من الأرض:

- ورب هذا العود لا يكون لـ «بحر» كلمة مسموعة في القبيلة ما دمت أنا على قيد الحياة.

سقط رأس الشيخ على صدره، للمرة الأولى لا يستطيع أن يرفع عينيه في عين أخيه، ولا يستطيع أن يثني له كلمة، ماذا يقول وقد وأد «بحر» بأفعاله كل ما يمكن أن يُقال؟

توجه «برهوم» إلى بيته، وأمر بخروج النساء اللائي لم يبلغهن الخبر بعد، مع أن فتورًا ما أصاب ابتهاجهن وفرحهن لتأخر إتمام مراسم الزواج.

وقف «حَمَد» خارج بيت عمه، لا يسمع من داخله إلا صوتَ بكاء مختلط بصوت عمه وهو يهتف بما حدث، لاعنًا «بحر» وأفعاله.

وعندما خرج عمه من بيته أحمر الوجه، منتفخ الأوداج وقال له بغلظة:

- هيا نتمم هذا الزواج المشؤوم قبل آن يصل رجال «السخاوية» ويفسدون كل شيء.

فاجأه «حَمَد» بقوله على استحياء:

- أريد التحدث مع «عين» للحظات يا عماه، هلا أذنتَ لي؟

رأى في وجه عمه الامتعاض. قال بحدة:

- وما الداعي إلى ذلك، أخبرتها وأخذتُ موافقتها وانتهى الأمر.

- أرجوكَ يا عماه.. لدقيقة فحسب.

على مضض أمرها أبوها أن تأتي وتقف خلف الباب، ووقف ثالثهما والحنق باديًا على مُحيَّاه. تلجلج «حَمَد» قليلًا وهو يقول:

- «عين».. أُشهد الله أنني لا أريد لكِ إلا الخير.. إن كان أمامكِ طريقان كلاهما مُرًا كالعلقم لا أريد سوى أن أعاونكِ على اجتياز أيسرهما عليكِ.. أما إن كنتِ ترين أمامكِ طريقًا ثالثًا.. فأخبريني الآن ولا تخافي.. أنا كفيل بأن أعاونكَ على بلوغه.

كانت تعلم أن اليوم سينتهي بكارثة ما، هكذا شعرت منذ أن فتحت عينيها في الصباح. طال صمتها، لا يُسمع من خلف الباب سوى نشيج بكائها. استجمعت شتات قوتها كي تقول بحسرة:

- لا أرى أمامي أي شيء.

وضع «حَمَد» كفه على الباب يُعاهد من خلفه قائلًا:

- سأختار أيسر الطريقين عليكِ إذن.

أما داخل المجلس فقد بلغتهم الأخبار، واحتل الغضب مكانًا بارزًا من وجوههم وصدورهم، نقمة على «بحر» وفِعلته التي يندي لها جبين الشرفاء.

صحيح أنهم يثقون بخلقه، لكنهم لا يثقون أبدًا بنزعة طيش في طبعه. ربما فعلها عن طيش لا عن قلة شرف، وسيدخل عليهم مُعدّدًا بالأسباب المنطقية لفعلته، لكن المنطق وحده لا يكفي ليشرح لهم لماذا غادر أرضه ليلة زفافه وخطّ فوق أرض «السخاوية» متحدثًا عن بنت من بناتهم، هذا شيء لا يمكن للمنطق أن يشرحه، ولا لعقولهم أن تستوعبه.

رأوا جميعهم أن الشمال قد أفسده، العلم والسفر قد صنعوا منه خليطًا ينبذه كلا الجانبين ولا يألفه.

وحين دخل ثلاثتهم وتصدّر «حَمَد» المجلس مع أبيه وعمه، تساقطتْ العيون فوقه تجمع بين الحيرة والدهشة، استهل حديثه بالحمد والثناء، ثم قال بما يعلم أن من شأنه أن يستدر به عواطفهم:

- كما تعلمون أن زوجتي فارقتني إلى أرض قبيلتها.. وابنتي صارت بغير أُم.. وقد توسّمتُ في ابنة عمي خيرًا أن تكون أمًّا لها تعوضها عن تلكَ التي فقدتْ.

نظر الرجال بعضهم إلى بعض في حيرة، حتى قال «حَمَد»:

- إن أردتم أن تتربى ابنتي في أرض «السخاوية» مع أمها و..

كان يعلم أنهم لن يسمحوا لجملته أن تصل لتمامها، إذ ثارت ثائرتهم، فـ«السوارفة» لا يتخلون عن أطفالهم. تشاوروا فيما بينهم، فارتأوا أن فكرة التخلص من «عِيدة» أخت قاتل «مُسفر» أحب إليهم مما سواها، ولحبذا أن تكون «عين» هي الأم البديلة لابنة «حَمَد»، وهكذا يكون الجميع قد حضر زواج أبناء العم كما انتوى.

رفع أحد الرجال عقيرته بالسؤال:

- و«بحر».. كيف سنتصرف معه؟

لم يدع «برهوم» فرصة لأحد كي يتكلم، قال بغيظٍ يُعلنها على الملأ:

- «بحر» لن تقوم له كلمة في أرضٍ «السوارفة» بعد الآن.. سيعيش بيننا مثل أصغر أفراد القبيلة وأقلّهم شرفًا ونسبًا!

---

(٧)

ما إن دخل «غراب» الحجز حتى اندهش لرؤية «مستور»، تحرر من دهشته سريعًا وتوجه صوب «بشير» مطالبًا إياه بأن يخبره كل ما يعرف. قال «بشير» والخجل ينخز ضميره:

- كان يجب أن أخبركَ من البداية.. سامحني يا ريِّس «غراب».

ثم أخذ يسرد عليه ما رآه ليلة الحادثة، وما صوّر، ثم مساومة «مستور» له، ثم عدم قدرته على مس المال الحرام. كان يُطمئن نفسه بأن «غراب» يملك دليل براءته كما أخبره، وعندما علم اليوم أن محامي الخصم أفسد حق استخدام الدليل في القضية؛ لم يتحمل واعترف للشرطة بكل شيء.
هتف «غراب» مغتاظًا:

- ليتكَ أخبرتني أولًا يا «بشير».

- لكن يا ريِّس «غراب» الشرطة عرفت كل شيء.. وأصبحتَ بريئًا.

قال «غراب» بحسرة كبيرة وهو يرمقه بلوم:

- لكنّ شخصًا آخر بريئًا ظُلِمَ بسببك يا «بشير».

- أتقصد الأستاذة «شفق»؟

هزّ «غراب» رأسه مؤكدًا بما لا يدع مجالًا للشك:

- ليست الفاعلة.

- لكن يا ريّس «غراب» رأيتها بنفسي.. كنتُ أعلم أن للباشمهندسة «دهب» أختًا تشبهها لكنها مُحجبة.

تجاهل «غراب» ما قاله وسأله:

- وماذا حدث بعد ذلك؟ هل رأتكَ؟ وماذا فعلتْ وإلى أين ذهبتْ؟

- لم ترني.. كنتُ أول الواصلين من العمال.. كنتُ متخفيًا وراء أحد الأعمدة الخرسانية.. بعدها رأيتها تُسرع للمغادرة.

سأله «غراب» بلهفة:

- ألم تتوقف لتتحدث إلى أحد؟ تذكر جيدًا يا «بشير».

- نعم نعم.. توقفت للتحدث إلى هذا الفتى عامل البوفيه بالشركة.

- «عبقرينو»؟

- نعم هو.

امتلأ صدر «غراب» بهجةٍ، هذا يوضح لماذا أصر «عبقرينو» أنه التقى بـ«شفق» في الموقع مُتحدثًا عن رغبته في العمل، بينما أنكرتْ هي ذلك، هذا لأنها لم تلتقِه من الأساس.

أختها «دهب» من فعلتْ وهي متنكرة في هيأتها!

- ليست الفاعلة.

قالها «غراب» بصرامة هذه المرة، دفعت الدماء لأن تغلي في عروق

«آكمل» فهتف ساخرًا:

- من العجيب أن تكون واثقًا من براءة فتاتي أكثر مني، أليس كذلك؟

«فتاتي» كم هي كلمة بغيضة مبتذلة، أسرّها «غراب» في نفسه ولم يمنحه فسحة للعراك، فهناك ما يجب أن يصرف إليه جل تركيزه، لكن «أكمل» لم يتوقف، قال:

- سواء كانت «شفق» بريئة أم مذنبة.. فأنا واثق أنكَ لص.. سرقت مواد البناء وبدّلتها لتنتفع بالفارق.

«مستور» الذي استطاع أخيرًا بعين ثاقبة أن يعثر على العائل الصحيح، التقط طرف الخيط سريعًا وشدّ البكرة كاملة:

- ليس جديدًا عليه يا «أكمل» باشا.. هذا الرجل اعتاد السطو على ما في يد غيره.

التقت عنده العيون كلها، فاستطرد بغلٍ دفين وهو يميل صوب «أكمل»:

- لقد ارتكب من قبل جريمة شرف!

تأهَّب «أكمل» في جلسته ومال على «مستور» يستنطقه، رمق «مستور» «غراب» بنظرة تشفّي، إذ تجمّعتْ لديه خيوط الحكاية لحظة أن ضرب «عبقرينو» وعلم منه هوية «غراب» الحقيقية.

هتكَ «مستور» ستر السر قائلًا:

الحكاية تبدأ بحادثة سرقة وقعت في دير سانت كاترين!

ثم أخذ يُفرغ سمومه كاملة في أذن «أكمل»، يستمع «بشير» إلى كلماته برهبة، بينما وجه «غراب» يمتعض، وجسده ينكمش، كلمة فكلمة.

شعر أنه يتعرّى! ولم يجد في نفسه كلمة يستر بها سوءَته.

انتبه الجميع إلى حدوث جلبة بالخارج، وقف «غراب» متحفّزًا وهو يسأل العسكري أمام الباب عمَّا يحدث، لم يتلق منه جوابًا.

دقائق وسُمِع صوت سيارة إسعاف تقترب، وازدادت الجلبة أكثر، عندها أطلّ العسكري برأسه قائلًا بلا مبالاة:

الفتاة التي أحضروها للاستجواب كانت تحتضر وكأنها غريق وسط البحر.. ثم سقطتْ أرضًا بلا حراك.

التفتَ «غراب» صوب «أكمل» يرمقه بكل غضب الدنيا وغيظها.

أخيرًا رآها! كخيال أسود يتحرك تحت ستار الليل، تعدو وكأن جحافل من الوحوش تسعى خلفها. قطع الطريق عليها بسيارته؛ جفلت، وانحنت صوب الأرض تلتقط حجرًا، تُلوِّح به في وجهه.

رفع يده قائلًا:

لا تخافي.. أنا «بحر».

رأت «مدينة» وجهه على ضوء مصابيح السيارة فهتفت بغضب:

- هذا تحديدًا ما يجب أن أخاف منه.

صدمته كلماتها، جمّدته للحظة، وفي التالية حاول أن يدنو منها، فرفعت الحجر عاليًا تصرخ بوجهه:

- ارحل عني.. أما كفاكَ ما طالني من أذى بسببك؟

آلمه ذلك، أشعره بالاختناق، قال مُدافعًا:

- لم أقصد أن أؤذيكِ.. أنا فقط...

قاطعته بحدة:

- أنتَ فقط «بحر» ابن «السوارفة» الذي يفعل ما يحلو له في الوقت الذي يحلو له.. لا يفكر في مشاعر غيره ولا رغباتهم.. المهم عنده مشاعره هو ورغباته هو.

ثقل كلامها عليه، حاول صرف بواعث الاختناق عن صدره قائلًا:

- ليس ذنبي أنهم فهموا كل شيء بطريقة خاطئة.. نيتي كانت طيبة.. لم أضمر لكِ السوء قط.

عاجلته بإباء:

- النية الصالحة لا تُصلح العمل الفاسد.. عملك كان فاسدًا حين دنوتَ مني وأنت تعلم أننا من قبيلتين بينهما عداء ودم.. وعملك فاسد حين احتلتَ عليّ كي تقابلني في المرعى المفتوح.. لو لم تدنُ مني لما وسمتني النار بختمكَ.. ولما رأى أبي اسمك مطبوعًا على كفي.. ولما ضربني.. ولما أهانني.. ولما حاول أن يزوجني غصبًا من رجل لا يزن في سوق الرجال جرامًا واحدًا.

نظر بفزع إلى مكان وسم النار في كفها، والذي شوّهته خطوطًا متعرجة حدثت بسبب نصل حاد! لم يعد يطيق سماعها، أمرها:

- اسكتي.

- لن أسكت.. أنتَ ظالم.. ظلمتَ نفسكَ وظلمتني.. والآن ارحل عني لا أريد أن أرى وجهكَ بعد الآن.

ما إن تحرَّكتْ خطوات حتى تبعها، فصاحت به وعيناها تشتعلان ثورة:

- لماذا تلحق بي؟ قلتُ ابتعد.

- اسمعي.. الجميع يبحث عنكِ.. إذا عثر عليكِ أبوكِ أو «جبار» سيرغمونكِ على زواج باطل.. تعالي معي.. سنذهب إلى أرضي.. ستكونين بأمان هناك.

وقفت تستهزئ به والغضب يرج جسدها انفعالًا:

- سأكون بأمان في أرضكَ، أليس كذلك؟

لم تعجبه طريقتها في الاستهزاء، ولا عنادها الذي فاق الحد، فقال منفعلًا:

- سنحميكِ.. ألا تعرفين من يكون «السوارفة»؟

- والله إن «مدينة» لتُفضّل الموت على أن تسمح بأن يُقال عنها «هربَتْ من رجل لأجل رجل!».

مسحة من البرود غطّتْ وجهه وهو يقول:

- أنا لستُ أي رجل.. أنا «بحر».

قالت هازئة:

- ربما تكون «بحر».. لكنكَ والله في ميزاني لستَ رجلًا.

لم يسبق له أن شعر بتلك المهانة من قبل، انفعل صائحًا:

- انتبهي لكلامك يا امرأة.

- المرأة هذه أرجلِ منكَ.. على الأقل لم تطعن أحدًا في ظهره.. كم ظهرًا طعنتَ عندما تركتَ عروسكَ وأهلكَ ليلة زفافكَ ومضيتَ باحثًا عن غيرها؟

- أنا أحاول أن أنقذكِ.. لماذا أنتِ عنيدة إلى هذا الحد؟

قالت بنبرات قوية حازمة:

- أنتَ لا تنقذني.. أنتَ تشدني لتغرقني في الوحل الذي أغرقتَ فيه نفسكَ.. ألم تقل لي أن البحر حين يدخل مدينة فإنه يُغرقها فيه؟ هنيئًا لكَ.. لقد أغرقتني!

الازدراء الذي لمسه في صوتها أعجزه عن الرد، عن الحركة. استدارت على أعقابها تستكمل طريقها.

بينما استقر هو في موضعه جامدًا لا يُحرك ساكنًا.

تحامَل الشيخ على المرض، والألم، والقهر حتى سمع «حَمَد» يقول لعمه:

- قبلتُ زواجها على سنة الله ورسوله.

عندها فقد كل قدرة له على الاحتمال، سقط أرضًا فاقد الوعي، اندفع أولاده صوبه يحملونه إلى البيت. وعندما خطّ رجال «السخاوية» فوق أرض «السوارفة» كان الجميع في انتظارهم. هاج رجالهم لاعنين «بحر» وفِعلته. وقف لهم والد «عين» صائحًا:

- ابن آخي لا يُقدِم على فعل خسيس كهذا.. هل رآه آحد.. هل سمعه أحد.. هل تشهد الفتاة بأنه خطفها؟

وعندما أجابه «طحنون» بغيظ:

- لن تشهد عليه بالطبع.

هتف العم ساخرًا:

- إذن أنتَ تقول إن ابننا خطف ابنتكم.. لكن ابنتكم لن تشهد عليه.. هل أنتَ مُدرك يا رجل بما تتهم به ابنتكَ؟

أسكت الرجال «طحنون» خفيف العقل، وقال كبيرهم بغلظة:

- والله إن عثرنا على الفتاة وقالت إن «بحر» مسَّها ولو بنظرة فلن تكفينا رؤية رقبته منحورة فوق أرض «السخاوية».

قالها ثم جمع الرجال وانصرف. مال العم صوب «حَمَد» قائلًا بحدة:

- اجمع إخوتكَ واذهب لتبحث عن أخيكَ الطائش هذا.. أحضره إلى هنا قبل أن يمسَّه أحد.. «السخاوية» فيهم مسحة غباء.. إن عثروا عليه قبلنا سيقتلونه أولًا ثم يفهمون ثانيًا.

اندفع «حَمَد» مع الرجال في إثر أخيه باحثًا عنه، وقلبه يكاد ينفطر من الخوف.

ما إن بلغت «عِيدة» منزل أخيها حتى دخلته وهي تصيح ببهجة مُنادية باسمه، لم تجد سوى زوجتيه تجلسان وكل منهما تتعارك مع الأخرى، وعندما دخلت بينهما لتفض النزاع وتسأل عن مكان «جبار» أجابتها إحداهما:

- ذهب ليبحث عن عروسه الهاربة.

رددتْ «عِيدة» ذاهلة وهي تضرب صدرها:

- عروسه؟ هل تزوّج الثالثة؟

قالت الأخرى:

- وكأن هذا لا يكفي.. أتيتِ أنتِ وأصبحنا أربع نساء نعيش تحت سقف واحد.

- أين «جبار» الآن؟

لم تمنحها أي منهما جوابًا، فقد عادتا إلى متابعة العراك، بينما الأطفال من حولهما يتحدان في معارك صغيرة، هي نسخة عن الصورة الكبيرة.

يمكن للعالم أن ينهار في لحظة، هكذا شعرت دكتورة «ثريا» وهي تتلقى خبر القبض على ابنتها، كانت تجلس على المنصة، في خضم ندوة كبيرة عن نجاحاتها العملية، وقدراتها الفذة على الموازنة بين عملها ودراساتها وأسرتها وحياتها الشخصية!

شعرت بحسرة كبيرة في بداية الندوة عندما تقدّمتْ ابنة إحدى زميلاتها تُثني على أمها أمام الملأ، تُعدد كيف كانت لها مِحضنًا ودعامة ارتكاز، وكيف خاضتا معًا صراعات الحياة، بكفيّن متعانقين، وقلبين يرجف كل منهما من أجل الآخر.

أكلتْ قلبها الغيرة، لماذا لا تتحدث عنها ابنتاها بهذا الشكل؟ قصّرتْ في حقهما، نعم تعترف، لكن هل يوجد أم غير مُقصّرة؟ ما الفارق بينها وبين زميلتها إذن؟

وعندما أقبلتْ البنت تُعانق أمها بحبٍ كبير وامتنان طاغ، يختلط الدمع بالدمع، والنفس بالنفس، تهمسان كل منهما للأخرى بكلمات لم يسمعها سواهما، بينما الحضور يُصفق بقوة تأثرًا؛ انقبض قلب «ثريا»، لا تذكر متى آخر مرة عانقت إحدى ابنتيها بهذا الشكل، لعلها لم تفعل قط.

أتتها مكالمة زوجها لتُبدد الأضواء الزائفة من حولها، جُل كلمات الثناء الجوفاء التي مرّتْ بأذنيها منذ قليل لم تكن كافية لدفع الحقيقة العارية.

اعتذرتْ عن استكمال ندوتها، وبقلب حمل جزع الدنيا وسخطها جلست إلى زوجها جنبًا إلى جنب في طريقهما إلى العريش، الآن لم تعد الأعمال المهمة مهمة!

المفاجأة التي انتظرتهما حال وصولهما كانت ساحقة، ثمة دليل على إدانة «شفق»، وعندما شاهدا المقطع أدركَ الاثنان في اللحظة ذاتها أنها لم تكن «شفق». وفي اللحظة التي فتحت فيها دكتورة «ثريا» فمها كي تُخبر الضابط بهذه الحقيقة، أسكتها «منصور» إذ أمسك يدها قائلًا:

- لا نعرف شيئًا عن هذا المقطع، ونرفض الاتهامات الموجهة إلى ابنتنا.

لم تفهم دكتورة «ثريا» فعلته، لكنها استدارت إلى الضابط تطلب منه رؤية «شفق»، فأجابها بقوله:

- تم نقلها إلى المستشفى.. وحولها حراسة مشددة.

لكن الحراسة المشددة لم تكن لتقف أمام «منصور» وعلاقاته، وفي الدقائق التالية كانا في طريقهما إلى المستشفى لرؤية ابنتهما.

في الوقت الذي كاد فيه «غراب» أن يفقد عقله جزعًا، أتاه الفرج إذ انفتح باب الحجز وأطل العسكري مُناديًا باسمه ثم قال:

- إخلاء سبيل.

صاح «أكمل» معترضًا، فأسكته العسكري بغلظة:

- اقعد آنت.

تفاجأ الجميع برؤية «عبقرينو» يقف بجوار العسكري؛ انفعل «مستور» غيظًا وأشار إليه وهو يقول لـ «أكمل» كي ينال عنده حظوة:

- هذا الرجل خدعنا جميعًا.. اسمه لا «عبقرينو» ولا «مبقرينو».. اسمه «طاهر» ويعمل صحفي.. كان يتجسس على الشركة طول الوقت.

كانت المفاجأة الكُبرى من نصيب «غراب»، رمق «طاهر» مستهجنًا، فسحبه من ذراعه قائلًا:

- سأخبركَ بكل شيء.

ثم أضاف بغموض:

- وأنتَ أيضًا ستخبرني بكل شيء!

في المستشفى سمح لهما فَردَا الحراسة بدخول غرفتها، إذ أتتهم الأوامر بذلك، وفوق الفراش رأيا جسدها الهزيل مُسجّى وكأنه قد فارق الحياة، انخلع قلب الدكتورة «ثريا» وهي تُعلِّق أنظارها بالطبيب الذي قال آسفًا:

- يبدو أنها لم تأكل شيئًا منذ يوم أو أكثر.. علّقنا لها محلول تغذية.. اتركاها تستريح وعندما تستفيق ستكون أفضل.

ولم يدرِ أي منهما أن الأسوأ ينتظرهما حال استفاقتها! أشارتْ برأسها إلى «منصور» كي يلتقيها في الخارج، فبينهما حساب طويل.

في دولاب غرفتها بالفندق، وفي قلب الظلام تقوقعت «دهب» على نفسها، تبكي وترجف دون انقطاع، تنتظر قدوم «شفق».

بعد قليل ستسمع طرقها على الباب، ووقع أقدامها بجوارها، وذراعيها مفتوحتان على مصراعيهما. لن يُعجزها قيد حديدي وقضبان، ولا ضباط وعساكر ومتاريس، ستأتي رغم كل شيء، ستصفح عن أخطائها وزلاتها، ستمسح آثار خطاياها كما كانت تفعل في صغرها، وستُخرجها من رحم الظلام كأنها تولَد من جديد.

وفي قعر السماءِ تجلَّ الدُجَى
شاهدٌ على كل ساهر حَكَى
للنجماتِ فرَحَهُ وأسرَّ
آهاتٍ أخفاها في قلبِ الحَشا!
ألا ليتَ قومي يعلمون
وقدْر أنفسهم يدركون
ما خلقَ الله النفسَ لتُعذّب
بل تُصان ولتزكيتها تُهَذّب!
لا يُغيِّر الله ما بقومٍ
إلا إذا أبدوا هِمّة
أدركوا أن الفردَ
من شأنه أن يُحيي أمّة!
لا يهتم بصيانة الجسد

والنفس والروح وعقل ذي ذِمة
سوى امرئ كان مَرامه
أن يبلغَ من السماءِ قِمّة!

عندما نجهل قدر أنفسنا؛

نسمح للآخرين أن يقلصوا أحجامنا

كي نسع قوالبهم الجاهزة.

(١)

استيقظتْ «شفق» يلفها الظلام، لا تعرف أمِن كابوس خرجَتْ، أم إليه دخلَتْ. الحلم والواقع سواء، كلاهما ألم.

لكنها في عالم الأحلام غير مطالَبة بشحذ طاقتها للحركة أو الكلام، إنما تُحرّكها قوة خفية مثل عرائس الماريونيت، ولوهلة بدا لها أن تكون عروسة ماريونيت أمرًا مريحًا مُحببًا، لن تكون عندها مُطالَبة بشحذ عزمها لتأتي بحركة أو تنطق بكلمة.

في عالم الأحلام يختفي الشعور المقيت بانتهاء الحلم، أما الواقع فمُستمر، ومشاعره تتدرج من سيئ إلى أسوأ.

كل ذلك دفعها لأن تُغمض عينيها، وتتلحّف بالظلام، ولا يزال بداخلها بقايا رغبة لأن تتشبّث بتلافيف النور، رغبة لم تمت بعد.

وفي رواق المستشفى كان سجال كلامي قائمًا بين الأبوين، كعادتهما كل منهما يُحمّل الآخر فاتورة ما حدث.

انفعلتْ قسمات الدكتورة «ثريا» بينما تقول:

- لا أفهم كيف وصلنا إلى هذه الحال.

قال لها «منصور» ساخرًا:

- لا تفهمين.. أم تتظاهرين أنكِ لا تفهمين؟

أغاظتها كلماته فانفعلتْ وهي تهمس:

- كالعادة ستتهمني بأنني السبب.. ابنتكَ فجّرتْ مبنى قُتل تحته عدة أرواح.. كيف تتصرف بهذا البرود؟ لماذا لا تبدو عليكَ الصدمة؟

ثم فطنتْ إلى الأمر فقالت بصوت أكثر خفوتًا، وبالتأكيد أكثر انفعالًا:

- كنتَ تعرف أن «دهب» هي الفاعلة، أليس كذلك؟

سكت «منصور» وكان في سكوته عين الموافقة. نهرته بشدة:

- وأين كنتَ طوال هذا الوقت؟

- كنتُ أنظف الآثار التي تركتها ابنتكِ خلفها.. دفعتُ المال وكممتُ الأفواه وأرسلتُ من يُراقب تحركاتها.. والآن أخبريني أين كنتِ أنتِ خلال هذا الوقت؟ آه معذرة.. دكتورة «ثريا» كانت منشغلة بندوة ما أو سفرة ما، أليس كذلك؟

معالم الصدمة على وجهها أفقدتها النطق للحظات، ثم قالت:

- كنتَ تعرف! لا أصدق.. لماذا فعلَتْ «دهب» شيئًا كهذا؟ ولماذا أرسلتها مرة أخرى إلى «العريش»؟

قال بغضب مكبوت:

- وكأنني أستطيع السيطرة عليها! كل ما استطعتُ عمله أن أرسلت مَن

يراقب «شفق» في رحلة «الصين» التي آعددتها لأبعدها عن «دهب» لفترة، ولتتم خطبتها بـ «أكمل».. وعندما عادت أرسلتها إلى «العريش» لتكون بجوار أختها وكلّفتُ الرجل نفسه بمراقبة «دهب» وإخباري بحركاتها أول بأول.. ابنتكِ خرجت تمامًا عن السيطرة.

قالت بشك وهي تبحث في وجهه عما يؤكد أو ينفي ما يساورها من مخاوف:

- أنتَ تستطيع السيطرة عليها.. لكن هناك ما يمنعكَ يا «منصور»، أظن.. أعتقد أنها تساومكَ على شيء، أليس كذلك؟

صمته والمسحة الباردة على وجهه دفعتها لتستطرد:

- شيء ما تمسكه «دهب» ضدكَ منعكَ من إجبارها على مغادرة العريش، ما الذي عرفته عنكَ كي تهددكَ يا «منصور»؟

أطبق «منصور» بشفتيه ملتزمًا الصمت، فثار جنون الدكتورة «ثريا» وهي تشير صوب الغرفة التي تنام فيها «شفق» قائلة:

- وابنتكَ هذه ألم تُفكر فيها للحظة؟

خرج عن صمته أخيرًا ليقول:

- أفكر فيها.. أفكر في كل شيء.. توقفي عن الصراخ ستلفتين الأنظار إلينا.. في هذا الوقت علينا أن نتكاتف كأسرة واحدة كي نتمكن من الخروج من هذا المأزق.

- ماذا تعني؟

- أعني أن علينا أن نستبدل «دهب» بـ «شفق».. «دهب» فتاة قد أشرب قلبها من الحقد والغِل ما ملأه وفاض.. إن أخبرت الشرطة أنها التي تظهر في الفيديو ستدمرني وتدمر الشركة وتدمر كل شيء.

- أنت وشركتكَ.. هل هذا كل ما تفكر فيه؟!

- الشركة يعني المال، يعني السمعة، يعني القوة، هل أنتِ مستعدة للمخاطرة بكل ذلك يا دكتورة؟

تلجلج منطقها وأطبقتْ شفتيها على بعضهما فاستطرد هازئًا:

- وهذا ما ظننته أيضًا، لذلك اصمتي.. وعاونيني كي نطلب من «شفق» أن تصمت.

- إلى متى؟

- إلى أن أجد مخرجًا لهذه الورطة.

عندما عاد كلاهما إلى الغرفة رأياها تفتح عينيها وتنظر إلى السقف، وما إن اقتربا منها حتى حركت رأسها صوبهما، طفقت العبرات تنهمر من عينيها لتتشرّبها الوسادة البيضاء.

ودّتْ لو نطقتْ بكلمتين فحسب «أمي.. أبي»، لكن لسانها كان ثقيلًا جدًّا، بطيئًا جدًّا، وكأنه لم يتعلم الكلام يومًا.

وما نطق به «منصور» وما وافقته عليه «ثريا» كان الكثير من الكلمات الملغّمة. يأمرانها أن تسكت، ولا يعلمان أنها مُسيّرة وليست مُخيّرة، إذ إن الكلمات تستعصي على لسانها، ويثقل بها حلقها.

تبكي، فيظنان بكاءها الصامت أمارة قبول مُضمرَة، بكل ما حاكه «منصور»، وصدّقتْ عليه «ثريا». اتخذت وضعية الجنين ومالت إلى جانبها الأيمن، ثم دفنت رأسها في الوسادة، ومع القهر والحسرة والألم، ولم ترفعه بعدها.

عندما وصل إلى المستشفى مع «طاهر»، تسابق قبله للدخول، أقصى أمانيه أن يراها ويطمئن على حالها، هذا مَبلغه من الأماني، أن تكون بخير، حتى وإن كانت بعيدة عنه بُعد السماء عن الأرض.

أمسك جسده بلجامٍ من نار، بأي صفة سيراها ويتحدث إليها في حضرة أهلها؟

التفتَ «طاهر» صوبه متسائلًا:

- ألن تدخل؟

أجاب «غراب» باقتضاب ونغزات كالشوك تؤلم حلقه، وتُغيّر من نبرة صوته شيئًا فشيئًا:

- كلا.

انفرطَ عِقد اللهفة وتسابقتْ حباته أرضًا، تشتتْ في الأركان، وتدحرجتْ حتى بلغتْ فراشها وأحاطته، دون أن يراها أو تراه.

لا يجرؤ على أن يؤذيها، أبوها وأمها بالداخل، و«أكمل» سيُطلَق سراحه بعد قليل. كيف يدنو من مرقدها متسائلًا عن حالها، من يكون لها؟

نبذَ الأنانية من صدره قائلًا:

- سأنتظركَ هنا.. اطمئن وبلغني.

رمقه «طاهر» بنظرة مشفقة غابت عن إدراك «غراب»، لم يفُته ملاحظة المشاعر الوليدة في كهف «غراب» المظلم، ولم يغِب عنه إدراك أنه أخطأ خطأً كبيرًا حين أخبره أن التي رآها في موقع العمل كانت «دهب»، إذ إن «غراب» ومن البداية كان يبحث عن «شفق»؛ أراد «طاهر» مساعدته، للتكفير عن هذا الخطأ غير المقصود.

جلس «غراب» أمام المستشفى فوق الرصيف يتآكله القلق، يضج صدره بالخوف، ويحيك عقله عشرات الأحداث المرعبة.

ينهض ويجلس، لا تسعه أرض ولا سماء، يضيق الهواء بصدره، يختنق، يشعر بالظمأ، يبحث عن شربة ماء فلا يجد.

وما إن رأى «طاهر» حتى أقبل عليه إقبال الملهوف. كفاه «طاهر» مؤنة السؤال قائلًا:

- إنها بخير.

ارتوى قلبه من كلمته المطمئنة، حتى إن حلقه ما عاد يشعر بالظمأ.

- يبدو أنها لم تأكل جيدًا.. ينتهي المحلول وستخرج في الحال.

أومأ «غراب» برأسه شاكرًا، فجاوره «طاهر» في جلسته على الرصيف قائلًا بغموض:

- والآن.. فلنكشف أوراقنا!

---

(٢)

جابَ «حَمَد» الصحراء بحثًا عن أخيه، فضّل أن يفترق إخوته بثلاث سيارات كلٍ في جهة. حين توقف على جانب الطريق وسأل أحد المارة، أجابه:

- نعم رأيت سيارته تسير في هذا الاتجاه.

انطلق «حَمَد» بأقصى سرعة ممكنة، وعلى ضوء كشافات السيارة الأمامية يبحث عن سيارة أخيه على الطريق.

وجدها؛ أطلق زمُّور سيارته بشكل متصل، وجاور سيارة «بحر» موازيًا لها، أرغم ذلك «بحر» على التوقف إلى جانب الطريق. نزل «حَمَد» من سيارته يواجه أخاه صائحًا:

- ماذا تظن نفسكَ فاعلًا؟

أجابه «بحر» بمسحة برود تُغطي وجهه وهو يرمق سيارة مُحملة بالركاب تبتعد عن ناظريه:

- اتركني الآن يا «حَمَد»، لدي ما أفعله؟

- هل خطف البنات هو ما تفعله؟

هتف «بحر» مُستهجنًا:

- خطف ماذا؟ وبنات ماذا؟

أخبره «حَمَد» بما تتناقله ألسنة «السخاوية»، وما ألقوه من تهم فوق كاهليه. هتف «بحر» مغتاظًا لاعنًا «جبار» وعشيرته.

- عد معي يا «بحر»، «السخاوية» يسعون خلفكَ.

- ليس قبل أن أنقذ «مدينة».

- ومن أنتَ كي تنقذها؟ وممَ تنقذها؟ الفتاة عروس «جبار» وصارت زوجة له.

- زواج باطل، أعطاها أبوها غصبًا بغير إرادتها.

أمسك «حَمَد» برأسه صارخًا:

- ماذا أفعل بكَ الآن؟ كيف تورَّطتَ وحدكَ في هذه المسألة؟

- أتريدني أن أقف ساكنًا بينما الفتاة تُساق إلى بيت «جبار» قسرًا؟ لا والله لا أكون رجلًا إن فعلتُ.

نهرهُ «حَمَد» مُعنّفًا:

- لماذا لم تخبرني؟ لماذا لم تطلب المساعدة كي نتحرك معًا؟ لو تحركنا في جماعة لما استطاعتْ ألسنة «السخاوية» الطويلة أن تلوك لحمكَ في غيبتكَ.

أدركَ «بحر» أن المنطق قد جانَبه، وأن فعلته المتهورة قد حادتْ به عن جادة الصواب. أطلق زفرة طويلة وهو يرمق موضع الحافلة التي غابت عن ناظريه:

- فات الأوان.

تحرك صوب سيارته فأوقفه «حَمَد» بأن أمسك ذراعه بقوة:

- إلى أين؟

أجابه «بحر» بوجه مكفهر، والذنب يثقل ظهره ويقصمه:

- يجب أن أصحح ما أخطأتُ به، الفتاة ليس لها أي ذنب.

- الشيخ مريض.

توقف «بحر» للحظات، يقسمه الواجب نصفين، أحدهما يرغب في اللحاق بـ «مدينة»، والآخر يشده صوب الشيخ وأرضه. ضرب السيارة بقبضته، وأطلق صرخة عالية شقّتْ سكون الليل، قال:

- لو لم يغصبوني على فتاة لا أريدها، لو لم يُسلسلوا قدمي بعاداتهم وتقاليدهم لما حدث كل ذلك.

- لم يعد هناك ما يُسلسِل قدميكَ يا «بحر».

نظر له «بحر» متسائلًا، فصرّح «حَمَد» بحزم:

- تزوجتُ ابنة عمنا.

بُهت «بحر» للحظات، ظنّ أخاه يمزح، أو يخدعه كي يعود معه إلى القبيلة، لكن أمارات الجدية كانت تنطق في وجهه وتؤكد مقولته، فطفق يضحك قائلًا:

- أحقًّا.. «عين» صارتْ زوجتكَ؟ دعوتُ الله أن يخلصني من هذا المرض لكن لم أظن أن الإجابة ستكون بهذه السرعة.

ساء «حَمَد» أن ينطق أخوه باسمها ويصفها بالمرض. قال بانزعاج:

- انتبه وأنتَ تتحدث عنها يا «بحر»، ولا تنطق اسمها، إنها زوجتي الآن.

قال «بحر» بحماس وهو لا يكاد يقدر على كبت ابتساماته الواسعة:

- أعتذر، صدقتَ.. إنها زوجتكَ الآن.

ثم ربّتَ كتف أخيه قائلًا ببهجة لا تكاد تسعها أرض ولا سماء:

- هنيئًا لكَ ولها.

فتح باب سيارته واحتل مقعده فسأله «حَمَد»:

- إلى أين؟

أجابه «بحر» بحماس كبير تنطق به كل خلجة من خلجاته:

- سأحضر «مدينة» وأعود.

ولمّا رأى القلق على وجه أخيه، ربّت كتفه بقوة مؤكدًا:

- سأعود.

وانطلق بالسيارة يتتبع آثار الحافلة التي ركبت فيها «مدينة» منطلقة إلى مدينة «العريش»، غير مُدرك أن توقفه للتحدث مع «حَمَد» هيأ لأحد رجال

«جبار» الوقت الكافي كي يقتفي آثره، ويتبعه بسيارته!

---

(٣)

في الغرفة الصغيرة مُغلقة الباب، وقف الطبيب مع الممرضة حول الفراش الذي ترقد فيه «شفق». وكلما أنهى فحصًا وبدأ آخر ازداد انعقاد حاجبيه حدة، لم تتحمل دكتورة «ثريا» هذا القلق فسألته:

- إنها بخير، أليس كذلك؟

قالتها بغير اقتناع، ابنتها ترقد بلا حراك، لا تستجيب لكلمة أو لحركة، حتى اختبارات الألم التي أجراها الطبيب رأتْ بأم عينيها تباطؤ جسدها في الاستجابة لها، ترفض فتح فمها لطعام أو شراب، مما اضطر الطبيب إلى حقنها بمحلول آخر.

- تبدو وكأنها في حالة صدمة.

حادَ الطبيب عن الوصف، فإن شاء الدقة لقال «حالة هرَب!».

انفعلتْ على الطبيب تأمره بتحسين حال ابنتها، كما لو أنه يملك عصا سحرية. أمسك «منصور» بذراعها ومال صوبها هامسًا:

- لعلها تُمثِّل!

نظرت له مُستنكرة فاستطرد:

- كيلا تعود إلى الحجز.. هذا أفضل.. أحسنَتْ «شفق».

مررتْ «ثريا» نظراتها على الجسد المسجّى مثل ورقة في مهب الريح وهمست بقلق:

- هذه ليست طباعها.. «شفق» طوال عمرها لا تدعي المرض.. بل تخفيه.

- إذن فابنتكِ أخيرًا قررتْ أن تفعل شيئًا ذكيًّا.

لكن الشك ظلّ يقضم قلب «ثريا» حتى خرج الطبيب، والممرضة في أعقابه، وخلَتْ الغرفة إلا من ثلاثتهم. نظرتْ في عيني ابنتها المفتوحتين، حاولتْ أن تبحث عن أثر لـ «شفق»، فلم تجد!

كل ما عثرت عليه كان دوامة مظلمة، وعبرة تتشبّث بطرف مقلتها، خارت قواها سريعًا وسقطتْ على الوسادة البيضاء تُسقيها ماء العين قسرًا.

بقلق كبير قالت:

- إنها لا تُمثّل يا «منصور».

أطال النظر هو الآخر في وجه ابنته المصمتْ، أصابته زوجته بعدوى القلق، لكنه حاول مغالبته بقوله وهو يُفتّش بعينيه في أركان الغرفة وسقفها:

- لعلها تعلم أن هناك كاميرا مراقبة.

انفعلتْ «ثريا» وهي تشير صوب ابنتها:

- انظر إليها، إنها حتى لا تستجيب لنبرة صوتي العالية، ولطالما كان يزعجها ذلك.

عجز «منصور» عن الرد، وبعقلية رجل الأعمال رجّح آن يستغل هذه الحالة لإبقائها في المستشفى بعيدة عن الحجز، وفي الوقت ذاته يسعى بكل جهده كي يفسد دليل الإدانة. يملك عقلية رجل أعمال حاذق أدرك من خلالها أن هذا وقت العمل، لا وقت الهلع.

غادر الغرفة رغم هتافات «ثريا» ونداءاتها. جلست هي إلى جوار «شفق» تتأمل وجهها برهبة، تمد أناملها لتُبعد خصلة شعر عن وجهها، حادثتها، لاطفتها، نهرَتها، صرخت بها.

لم تند عنها أي استجابة تُذكَر، سوى أن مالت إلى جنبها الأيمن مُتخذة وضعية الجنين، وقد دفنت وجهها في الوسادة، ولم تنظر صوبها قط.

الحديث الذي دار بين الرجلين قرّب كل منهما إلى الآخر، أسفرتْ جلسة المصارحة عن تجمع خيوط الحكاية في يد كل منهما.

نظر «غراب» إلى «طاهر» بشكر، وهكذا فعل «طاهر» معه، لا تُبنَى جسور الثقة من فراغ، تحتاج إلى دعامتين قويتين هما أساس الجسر، وكان «غراب» يملك دعامة الصدق، في حين كان يملك «طاهر» دعامة الأمانة؛ ضُربَ بجسر قوي بين الرجلين.

وفي الوقت الذي مرّتْ فيه «نرجس» أمامهما وهي متوجهة صوب بوابة المستشفى بوجه يعلوه الجزع؛ اختفى البِشر من وجه «غراب»، حتى إنه اندفع يسألها:

- خيرًا؟

تباطأ عقلها للحظة لا تدرك بماذا تجيب، ثم قالت أخيرًا:

- «شفق».. لا أعرف ما بها.

طمأنها قائلًا:

- إنها بخير.. ستخرج بعد قليل.

نظرتْ إلى هاتفها بغير فهم تقول بلوعة:

- كيف ذلك؟ الدكتورة «ثريا» اتصلتْ بي وطلبتْ مني الحضور بسرعة.. كان صوتها مخيفًا!

تحرّكتْ «نرجس» مُبتعدة عنه، واختفت داخل المبنى. اشتغل بالهُ، وتبدّلت حاله، رجفَ أمنه، وارتعدت سَواكِنه. ربّتْ «طاهر» كتفه مُشفقًا، ثم اختفى داخل المبنى هو الآخر.

هل يموت المرء من الانتظار؟ هل تُكتَب في شهادة وفاته «مات بينما ينتظر»؟ لماذا يقولون إن الهمّ قتّال، في حين أن الانتظار أشد منه قسوة.

عندما عاد «طاهر» لم يحتَج إلى سؤاله، فما قرأه فوق صفحة وجهه أرسَى على شواطئه سفن الجزع، وهيّج بواعث اللهفة في نفسه، رفع ناظريه صوب البناء، تطوف عيناه حول النوافذ والشرفات؛ يبحث بوجل الملهوف عن الغرفة التي تحتضنها.

علّ عينيه ترسلان لها رسولَ آمنٍ يُهدئ من روعها، ويشد على يدها كي تتمالك نفسها.

هل يُحادثها أحدهم الآن كما حادثها من خلف الباب المغلق؟ هل يعرفون أنها بحاجة إلى صيّاد ماهر بقلب رؤوف ينتشلها من بحور الظلام؟ هل وجدته؟ هل يجلس بقربها الآن؟

---

(٤)

دخل «حَمَد» بيته حاملًا طفلته الباكية، «أم ذيل» في خدمة الشيخ، والجميع يبذل له الوقت والجهد، رأى الصغيرة تبكي وحدها فوق فراش كبير في غرفة مظلمة؛ رقّ قلبه لحالها، حملها بين يديه، ودخل بها بيته.

وعلى الأريكة كانت تجلس «عين» متكئة إلى ذراعها، فما إن أحسّتْ به حتى انتفضتْ تعتدل في جلستها، ولا يزال البرقع ينسدل فوق وجهها، ثم وقفتْ وكأنها في حضرة أبيها أو شيخها.

من فتحتي العين رأى مكياج عينيها يُلطّخ قماش البرقع الأبيض، بألوان متداخلة.

وقف كل منهما أمام الآخر مُحمّلًا بأثقال الماضي وتوابعه، تشده إلى الخلف، حتى لتكاد تُمزّقه. يحمل بين يديه ابنة امرأة غيرها، وتحمل فوق جسدها فستان رجل غيره.

تلاقتْ أعينهما؛ فامتزج الألم بالألم!

حين بلغتْ «مدينة» البيت المقصود لم تشعر بـ «بحر» الذي أوقف سيارته على مقربة، لم تدرك أنه تبعها منذ أن غادرتْ جنوب سيناء مُتجهة إلى شمالها.

انفتح الباب، فرأى «بحر» رجلًا حسن المظهر يُطل برأسه، ثم يقبل على «مدينة» بحفاوة فاتحًا لها ذراعيه!

اعتدل في جلسته، وتشنّجتْ رقبته بينما يرمق «مدينة» التي عانقتْ الرجل بدورها، ثم اختفى كلاهما داخل البيت. هكذا إذن، أتت للمكوث مع أحد محارمها، لكن من يكون يا تُرى؟

ومن داخل البيت تهلل وجه الرجل واستبشر ثم اكفهر وتوتر. قال:

- سعيد برؤيتكِ يا «مدينة».. لكن أظن أنكِ لم تأتي في خير.. ماذا حدث يا ابنتي؟

قالت بينما تتمسك بكفه بقوة:

- ساعدني يا خال.. أبي زوّجني من «جبار» بغير إرادتي.

بدا التفكير على خالها للحظات ثم هتف مستهجنًا:

- «جبار»! أذاكَ الرجل البغيض الذي اتخذ منه الشيخ ابنًا له؟

- نعم يا خال.

- هل جُنَّ أبوكِ يا «مدينة»؟ لماذا يفعل شيئًا كهذا؟

أخذت «مدينة» تسرد على خالها كل ما حدث، من اللحظة التي استدعاها فيها «المُبشّع» لتشهد في حادثة سرقة الجمال، وحتى اللحظة التي طرقتْ فيها بابه. هالهُ ما سمع، فقال محتدًا:

- كيف يظن بكِ أبوكِ ظن السوء.. ألا يعرفكِ أبدًا؟ خسئتَ يا «طحنون».

ثم ربّت فوق ظهرها قائلًا بحنان آبوي افتقدته من آبيها الذي تربطها به رابطة دم:

- لا تحملي هم يا «مدينة»، أنتِ ابنتي، لو لم تسعكِ الدنيا بأسرها، يسعكِ بيت خالكِ يا قرة العين.

ارتمتْ «مدينة» بين ذراعي خالها، نابذة الخجل، إذ كانت بحاجة إلى الشعور بذراع تلتف حولها، وتستجلب لها الأمن والحماية.

قال لها خالها وهو يرمقها بحنان:

- سأحضر لكِ الطعام.. لا بد وأنكِ جائعة.. وارفعي برقعكِ هذا.. لا أحد هنا.

امتثلتْ لأمره ثم نظرت حولها تقول:

- أين زوجة خالي؟

- تزور جارة مريضة.. دقائق وتعود.

نهض خالها ليُسخن لها الطعام، فخرّتْ على قدميها تسجد لله شكرًا أن نجّاها من زواج باطل.

فم الظلام واسع جدًّا، وحلقه أملس، تنزلق فيه الأشياء بسرعة، دون دعائم للتشبُّث، ولا أطواق للنجاة.

شعرت بنفسها تنزلق في حلق الظلام، خيوط النور تتضاءل، تتباعد، مُهددة بآخر فرص النجاة. جسدها حبسها بداخله! قيّد روحها، وكأن جاثومًا ضخمًا يضجع على صدرها، تدفعه، تُصارعه بوهَن.

الاستسلام كان سهلًا ولذيذًا، لكن ثمة ما يمنعها من رفع الرايات البيضاء، شيء ما أجج بداخلها رغبة لأن تتشبّث بالحياة، لكنه غير كافٍ لتخليص روحها من قيود الجسد، صوتها محبوس في قفص، هل يُمكن للأصوات أن تُحبَس؟ وكيف تتحرر من أسرها؟

محاولات أمها كلها قد باءتْ بالفشل، لم تكفِ قوتها لمحاربة جحافل الظلام التي تتشبّث بأطراف «شفق»، وتلفها في أرديتها السوداء.

انسابتْ كلمات الدكتورة «ثريا» في قهر:

- ماذا فعلتُ لأستحق كل ذلك؟ نعم لم أكن أمًّا مثالية، كان لي أخطائي، لكنني أيضًا لم أكن أمًّا سيئة.. أحببتكما.. ومنحتكما كل طاقتي.. ما ذنبي أن طاقتي كانت ضئيلة ولا تكفي؟

وعندما انسابتْ عبرة من عين «شفق»، هتفت الدكتورة «ثريا» بلوعة:

- أعلم أنكِ تلومينني على كل شيء، أعلم أنكِ تظنين أنني أمًّا سيئة، لكنني تزوجتُ صغيرة، كل ما كنتُ أفكر فيه هو إنجاح حياتي.. الوصول إلى شهادة رفيعة ومركز مرموق، لكن رزقتُ بكما في العام الأول.. ابنتان إحداهما مريضة طوال الوقت، ماذا كان بإمكاني أن أفعل وحدي؟ أبوكِ دائمًا غائب.. دائمًا مشغول.. لم أرغب في أن أتحول إلى إحدى ربات البيوت.. أردتُ أن أكون ناجحة.. ما الخطأ في ذلك؟

عَيْنَا «شفق» خالية من التعبير، لكنّ تغضُّنًا خفيفًا تبدّى فوق جبينها، فمنحها شعورًا مؤلمًا، استطردتْ وصوتها تهتز نبراته وتضطرب:

- لم أعرف كيف أتصرف مع طفلة مريضة في مجتمع من الأهل والأصدقاء ينتبهون للصغيرة قبل الكبيرة.. طفل مريض يعني أم فاشلة.. لم أرغب في الظهور بمظهر الأم الفاشلة.. لم أرغب في أن تنظر إليَّ إحداهن بشفقة وهي تضمر بداخلها سعادة لأن لي ابنة مريضة.. أردتُ لرأسي أن يكون مرفوعًا دائمًا.. ما الخطأ في ذلك؟

انفرجتْ شفتا «شفق» بحركة ثقيلة، محاولة أن تتكلم، لكن الكلمات كانت عصية على النطق. استطردتْ «ثريا» وهي ترمقها بعينين دامعتين:

- لم أحب «دهب» أكثر منكِ.. كنتما عندي في الكفة نفسها.. فقط كرهتُ مرضكِ لا أنتِ.

ثم أضافتْ:

- حتى في مسألة «أكمل» لم أكن أفرق بينكما.. أحببتُ «أكمل» ورأيته

مناسبًا لأن يكون زوجًا لإحداكما.. لكنني أردته أن يأخذ «دهب».. نعم هذا صحيح أعترف بذلك.. لكن ليس لأنني أكرهكِ.. بل لأنني أحبكِ.

تحرّكتْ ذراعاها في الهواء وهي تقول باضطراب:

- أنتِ لا تعرفين ما الذي فعلته «دهب» بكِ في خطبتكِ الأولى.. أتت لتخبرني بكل ما فعلته في صفاقة.. تتحداني إن كنت قادرة على اتخاذ ردة فعل.. لم أستطع أن أفعل أي شيء.. لم أستطع حتى أن أخبركِ.. أي وحش ربّيتُ في بيتي! كل ما حاولتُ أن أفعله هو تزويجها أولًا.. لذلك انهرتُ عندما علمتُ أن «أكمل» يريدكِ أنتِ.. لم أرغب في أن تعيشي الألم نفسه مرتين.

لم تدرك دكتورة «ثريا» أنها كانت تنكأ جرحًا نازفًا بالفعل، وأنها تقود تفكيرها صوب الشيء الذي تحاول أن تتناساه وتتجاهل حدوثه. فما قالته يؤكد لها أن الشعرة في الصندوق كانت لـ «دهب»، وأنها قادرة على طعنها بنفس الخنجر مرتين، وأن الصوت هو...

توقف تفكيرها عند هذه النقطة غير راغب في خوض غمار الأفكار المتصارعة في رأسها. ها هي الحقيقة تأتي لشن حرب عليها لتجاهلها إياها. أرادت أن تنزلق الآن في حلق الوحش، حيث الظلام والوحدة والصمت. الظلام لا يؤذي، الوحدة لا تؤذي، والصمت لا يؤذي. باتت كلمات أمها ثقيلة على أذنها، تبتعد شيئًا فشيئًا، حتى حلّ الظلام أخيرًا!

ما زالت تحمل ذكرى عطرة لهذا البيت وساكنيه، صحيح أنها لم تزره مع خالها سوى مرتين في صغرها، لكن الزيارتين تركا في نفسها عشرات الذكريات المبهجة، دفعت بالبسمة إلى ثغر «مدينة» وهي تتذكرها بينما تجوب عيناها في أركان البيت.

وخاصة الجدار أخضر اللون المنقوش فوقه رسومات طفولية، وخطوط متعرجة، وأشكال بلا هوية، رسمها ابن خالها عندما كان صغيرًا!

دخلت المطبخ، ترقب خالها الذي يصنع لها الطعام بحب، تسأله بخجل:

- وابن خالي متى سيعود؟

فهم مرادها، فابتسم قائلًا:

- لا تقلقي لن يعود الليلة.. اتصلتُ به وأخبرته أن يبقى عند أحد أصدقائه.

أطرقتْ رأسها بأسى تقول:

- بسببي طُرد من بيته.

ضحك خالها قائلًا وهو يصب لها الحساء الساخن الذي تفنن في إعداده:

- لا تقلقي.. ابن خالكِ يحب أحيانًا المكوث عند أصدقائه.

ثم نظر لها بلؤم قائلًا:

- كما أنه لن يُمانع أن يتركَ بيته لأجلكِ.

غطّتْ وجهها بغطاء رأسها وفرّتْ من أمامه خجلًا، سمعت الباب يُفتح فتوجّستْ.

ما إن رأت زوجة خالها تدخل البيت وينضح وجهها فرحة لمرآها وهي تقول:

- «مدينة»!

أقبلتْ «مدينة» عليها بفرحة مماثلة، تعانق زوجة خالها بشوق كبير قائلة:

- افتقدتكِ كثيرًا يا خالة «نوّارة»!

حلّ الوجوم بينهما ضيفًا غير مُرحّب به، إذ هربت الكلمات من لسانيهما، وبارزا الصمت حتى انتصر.

لكنه لاقى هزيمة مُنكرة على يد «بدر»، إذ أطلقت صرخات متتالية من الألم، لا ينقطع صراخها ولا يهدأ.

حائر الوجدان أخذ «حَمَد» يتحرك بها ويدور، يهمس لها كي تهدأ، يسألها عمّ ألمَّ بها وكأنها ستُجيبه أو ستُشير بإصبعها إلى موضع الألم. تحرّكتْ شفقة «عين» على الصغيرة، فهمست له:

- دعني أحملها.

حائر الفِكر تركها بين يديها، يُتابعها بعينين حانيتين ويرجوها أن تهدأ،

هدهدتها «عين» بين ذراعيها، وضمّتها إلى صدرها ضمّة حانية.

قالت:

- أظن أنها تُعاني المغص.

بحيرة سألها، وأمارات الألم تحتشد على وجهه:

- ماذا أفعل؟

- لا بد أن دواءها في بيت زوجة عمي.

تحرّك «حَمَد» من فوره، عائدًا إلى بيت أبيه كي يحضر دواءها. وعلى الأريكة جلست «عين» تمسح بطن الصغيرة، ترقيها، وتُهدهدها، وتمسح حبّات العرق عن جبينها.

حين عاد «حَمَد» وأعطى الصغيرة دواءها، لم تهدأ في الحال، استمرتْ صرخاتها حتى أرهَقَتْ وأُرهِقَتْ. استسلمتْ أخيرًا للنوم في أحضان «عين» بعد أن أشبعتها من لبن الماعز المخلوط بالماء كما كانت ترى زوجة عمها تفعل معها.

وكلما حرّكتها أو غيَّرت موضعها؛ فزعت الصغيرة وعاودت صرخاتها. عندما تعجّب «حَمَد» من نومها السريع بين ذراعي «عين» قالت له بخجل:

- إنها تعرف رائحتي.. اعتدتُ حملها كلما ذهبتُ إلى بيت عمي.

مُشفقًا على «عين» حاول «حَمَد» أن يأخذ الصغيرة فعاجلته:

- اتركها معي.

- ستزعجكِ.. إنها تُقيّد حركتكِ.

- اتركها حتى يتعمق نومها.

شعر «حَمَد» بالإرهاق بغتة، وكأنه سيسقط على قدميه من التعب، كان عليه أن يأخذ قسطًا من الراحة ثم يذهب إلى بيت أبيه كي يطمئن على حاله. وفي المقعد الوثير سقط رأسه، وانبسطَ جسده الذي هدّه التعب.

ملّتْ «عِيدة» الانتظار، بات واضحًا لها أن «جبار» لن يعود الليلة إلى بيته. دخلت كل زوجة من زوجاته إلى غرفة وأغلقت الباب خلفها، كانت هي وحيدة في البيت، الغرفة الثالثة بها أجولة الأرز والدقيق والبطاطا، والفرن الذي يُخبّز فيه كل صباح.

أفسحت لنفسها مكانًا على الأرض، وتلحّفتْ بغطاء رأسها الخفيف، لم يستطع أن يقيها ليل الصحراء البارد، ولا وحشة البيت التي شعرت بها منذ أن دخلته، وكأنه لم يعد بيتها!

---

(٧)

جلست «نرجس» فوق الفراش الذي ترقد فيه صديقتها، تتأملها باكية. الحال الذي وجدتها عليها فطر قلبها، وهيّج وجدانها.

تُحاول أن تبحث في عينيها عن أي أثر للحياة؛ فلا تجد. تمسح رأسها، تمسك كفّها، تُحرّكها، تهزها، تتحدث إليها، ترجوها باكية أن تُجيبها.

تقترب منها دكتورة «ثريا»، تصر عليها أن تعيد لها ابنتها، وكأن «نرجس» هي السارقة!

دبيب الغضب بداخل «نرجس» تصاعدت وتيرته، لكنها راعَتْ أمورًا كالسن والمقام بينما تقول:

- ماذا كنتم تنتظرون غير ذلك؟ عندما يُضرَب الجبلُ بالفأس بقوة وإصرار.. يوما ما سيتفتت الجبل إلى كومة من تراب.

انكمشتْ دكتورة «ثريا» لوهلة، فتجرأتْ «نرجس» أكثر:

- عندما تصدمين شخصًا بسيارتكِ تتهشم عظامه.. ويتعجّن جسده.. وتتمزق أحشاؤه.. وتنزف عروقه.. الروح يحدث لها هذا أيضًا.. تتهشم وتتعجّن وتتمزق وتنزف!

ثم أشارت إلى صديقتها تقول بحسرة:

- لكننا لا نرى كل ما يحدث للروح إلا عندما يتأثر الوعاء الذي يحملها.

بلوعة سألتها، وقد عضّ أناملها الندم:

- أنتِ أحب الناس إليها يا «نرجس».. أخبريني ماذا أفعل؟

لم يأخذ «نرجس» شفقة إذ قالت بحزم:

- ما يجب أن تفعلوه جميعًا هو أن تتوقفوا عن عقابها على ذنوب لم تقترفها.. المخطئ يُعاقَب.. ولا أحد سواه.

جاورتها «ثريا» في جلستها وقد هدّها العذاب، تقول بألم:

- كلتاهما بنتاي.

- لكن واحدة أخطأت.. وأخرى لم تُخطئ.. لماذا تتحمل التي لم تُخطئ ذنب التي أخطأتْ؟ هذا ليس من العدل في شيء.

كررتْ «ثريا» كلمات «منصور»، تحاول أن تقنع بها نفسها قبل «نرجس»:

- هذا لفترة مؤقتة فحسب.. حتى نتمكن من إيجاد حل لهذه المشكلة.

أشارتْ «نرجس» صوب صديقتها وقالت:

- وهذه المشكلة.. كيف ستقومون بحلها؟

قالت «ثريا» بحماس:

- سآتي لها بأفضل الأطباء و...

قاطعتها «نرجس» بجزم:

- هي ليست بحاجة إلى أفضل الأطباء.. بل بحاجة لأن تُفهَم! هل جربتِ

أن تفهميها؟ هل جربتِ أن تضعي نفسكِ مكانها؟ هل أشفقتِ عليها ولو لمرة عندما كانت تُنبَذ بسبب مرضها؟ وعندما كانت تُعاقَب بسبب أخطاء أختها؟ وعندما كانت تُعنّف لأنها لا تستطيع أن تكون ابنة مثالية كما تريدينها؟ هل جربتِ إحساس أن تكوني غير كافية؟ قوتكِ لا تكفي.. جهودكِ لا تكفي.. تضحياتكِ لا تكفي.. فناؤكِ لا يكفي.

ثم أشارتْ إلى صديقتها تقول:

- لقد فرغتْ طاقتها.. تغذّيتم عليها.. ورغم ذلك كل ما فعلته لم يكن كافيًا.. فتساوى عندها الفِعل وعدمه.. هي في الحالتين ناقصة.

- لا أريد سوى أن تنهض من الفراش وتحاول أن تُلملم شتات أسرتنا.

- كيف تنتظرون منها شيئًا جميلًا وقد قتلتم بداخلها كل جميل؟

ولأن دكتورة «ثريا» لم تعتد من الآخرين مصارحتها بكشف سوءَة أفعالها، لم تتحمل ما سمعتْ، غادرت الغرفة في الحال. ظلّتْ «نرجس» جوار صديقتها، يدًا بيد، وقلبًا بقلب، تهمس لها، وتدعو، تُلقي النكات، وتحشد الذكريات، فتصطفُّ أمام عينيها بجمالها ونقائها.

- أعلم أنكِ تحمّلتِ كثيرًا.. لكنكِ لستِ ضعيفة أبدًا.. ستتخطين ذلك.. سنتخطاه معًا.. ألا أكفيكِ يا «شفق»؟

فلما رأت عبرة تتساقط من جانب عينها، وجبينها يتجعد ببطء استبشرتْ بسماعها، وللمرة الأولى منذ أن دخلت الغرفة تقع عيناها على الطاولة الصغيرة الموضوعة بجوار الفراش، فتلمح فوقها خاتمًا ذهبيًّا. تأملته بدهشة وهي تُمرر أنظارها على أصابع «شفق» الخالية، تساءلتْ:

- هل نزعته عنكِ الممرضة؟

حاولتْ أن تُعيده إلى إصبع «شفق»، فأطبقت قبضتها بقوة ترفض بسطها!

تحمَّستْ «نرجس» لهذه الاستجابة قائلة:

- أنتِ خلعته بنفسكِ! هذا رائع يا «شفق».. لقد أحرزتِ تقدمًا.. استمري على ذلك.. ارفضي كل ما يزعجكِ واحدًا تلو الآخر.

ادفعي كل ظلم يقع عليكِ.. أنتِ تستطيعين ذلك.

رغم أن كل ما أبدته «شفق» من استجابة هي عبرات صامتة، فإنها كانت بُشرى نزلتْ على قلب «نرجس» بردًا وسلامًا.

- أتعرفين.. لا أطيق صبرًا حتى أعطي هذا الخاتم لـ «أكمل».. وأظن أن هذا أيضًا ما تريدينه.. انتظريني.. سأعود إليكِ.

عندما سارت «نرجس» في الممر الطويل باحثة عن «أكمل»؛ وجدت «غراب» أمامها!

---

(٨)

رجفَ قلب الخالة «نوّارة» خوفًا على «مدينة»، ضمّتها إلى صدرها وكأنها تخفيها فيه من كل مُتربِّص أثيم.

تحبها كما لو كانت فلذة كبدها، لم تنجب البنات، ورأت فيها الابنة التي تمنّتْ، رغم أنها لم ترها سوى مرات معدوداتْ، أحيانًا حينما تزور وزوجها وابنها أرض «السخاوية»، ومرتين فحسب وافق «طحنون» على أن تُسافر معهم إلى «العريش»، ثم منعها عنهم لسنوات.

ادعى «طحنون» أن الخالة وزوجها يُفسدان عقل ابنته، ويُعلمونها قراءة الكتب! الكتب تُفسدها عليه، تُبصّرها بما جهله هو، الكتب تفتح عقلها، فتدرك حقوقها. طمأنتها الخالة قائلًا:

- لن أسمح لأبيكِ هذا أن يدفعكِ إلى هذا المصير من أجل أطماعه.. لا تخافي يا «مدينة».

قالت بإباء:

- لم آتِ إلى هنا لأنني خائفة يا خالة.. أتيتُ فقط لآخذ من القاضي حُكمًا بأن هذا الزواج باطل.. فأضعه في أعين كل عقل سمين بلا نفع من رجال قبيلتنا.

تأملتها الخالة بمزيج من الحسرة والعطف قائلة:

- لا أحد من رجال قبيلتكِ يليق بكِ يا «مدينة».

ثم أضافت مُتمنية:

- رغم أن «سهيل» أيضًا لا يليق بكِ.. لكنني ما دمتُ تمنيتكَ له.. أطرقتْ «مدينة» تخفي وجهها حياء، فأردفتْ الخالة:

- سامحه الله أباكِ.. ردّ طلب خالكِ وقال «مدينة» لا يتزوجها رجل فقير أبوه طباخ.. ألا يعلم هذا التعس أن الفقر ما هو إلا فقر الدين والأخلاق؟

فلمّا ألجم الخجل لسان «مدينة» مسحت على رأسها قائلة بحماس:

- فلنترك هذا الحديث لوقته.. ارتاحي الآن في نومتكِ ولا تخافي.. «سهيل» لا يجرؤ على الاقتراب من البيت ما دمتِ أنتِ فيه.

رغم كل الخطر الذي يتربّص بها خارج جدران هذا البيت، شعرت «مدينة» تلك الليلة بدفءٍ غالب عن لياليها الطويلة في بيت أبيها.

انتفض «حَمَد» حين تناهى إلى أسماعه أذان الفجر، رأى «بدر» نائمة فوق الأريكة، وعلى الأرض ومن حولها وسائد البيت كله، رغم أنها لا تعرف حتى كيف تتقلّب على أحد جنبيها.

وعندما بحث عن «عين» رآها تنتهي من وضوئها وتقبل عليه قائلة باضطراب:

- أذان الفجر.

ثم شعرت بسخافة ما قالت، بالتأكيد يسمعه، قال بعقل مُشتت:

- سأذهب إلى الصلاة ثم أطمئن على الشيخ.

عندما خلا البيت إلا منها و«بدر» النائمة، جلست على الأرض بجوارها تذرف دمع العين، لا تقوى على التحرك في البيت بمفردها، ولا على أن ترفع غرضًا وتضع آخر.

بيت غريب هو، بيت امرأة غيرها! خلعتْ البرقع، وتخففتْ من ملابسها ظنًا أن «حَمَد» سيطيل البقاء عند الشيخ، لكنه قبض عليها على غفلة حين فتح الباب ووقعتْ أنظاره عليها.

تجمد في وقفته للحظات، وكاد أن يسألها أين «عين؟» وما إن انتبه إلى نفسه حتى أغلق الباب سريعًا. وقفتْ مضطربة، تطرق برأسها أرضًا، تتمنّى لو تنشق الأرض وتبتلعها. تكلم ببساطته المعهودة وهو يرمق قسمات وجهها:

- «عين»! كم كبرتِ! أنتِ قصيرة القامة وضئيلة الحجم لدرجة أنني تخيلتكِ بنفس الوجه الذي كنتِ تملكينه في عمر العاشرة.. تفاجأتُ كثيرًا.

اضطربتْ كثيرًا، وكي تخفي ما طرأ عليها سألت بخفوت:

- كيف حال الشيخ؟

- أحسن حالًا.

وضع ما حمله من أغراض فوق الطاولة، ثم أحضر الأطباق ورصّ فوقها الطعام. قال وهو ينظر إلى وجهها ولا يزال يستغرب المرأة التي يراها أمامه، والتي كانت شديدة الاختلاف عن الطفلة «عين» التي في ذاكرته:

- هيا فلتأكلي شيئًا.

تركها وذهب إلى جوار «بدر»، جلس على الأرض في الموضع التي كانت تجلس فيه «عين» منذ قليل. وحدها حول الطاولة، تطوف عليها ذكريات الصباحات الفائتة، حين كانت تتجمع مع أسرتها حول طعام الفطور بعد صلاة الفجر، فبكتْ.

اندفع صوبها يسألها عمَّا ألمَّ بها. همست من بين نشيجها:

- لم أعتَد الأكل وحدي.

ندمت فور أن تفوهت بكلماتها، سيراها طفلة صغيرة لا حول لها ولا قوة، تضيع إن فارقتْ أهلها، لكنها بالفعل كذلك، تحتاج إلى بيت وأسرة ودعامة ركيزة تتكئ عليها، ما العيب في ذلك؟

جاورها حول المائدة، وكان هذا أصعب عليها من الأكل وحدها، لكن سبق السيف العزل.

- تركتكِ وحدكِ كي تكوني على راحتكِ.. آسف.

شنّفتْ أسماعها «آسف!»، حتى بدتْ غريبة عليها. حلّ الوجوم ثانية، واتخذ مقعدًا ثالثًا حول الطاولة.

حاول «غراب» أن يُسرع في خطواته كي يتجنب لقاء «نرجس»، لكنها رأته، ونادته:

- ريِّس «غراب».

التفتَ إليها مضطرًا، ووجهه ينطق بالندم، وكأنه تلبّس بالجرم المشهود.

قالت بأسى:

- «شفق» ليستْ بخير.

هل تعمّدتْ أن تفطر قلبه؟ لو أتت بسكين وشجّتْ قلبه نصفين لما كان أقسى من وقع كلماتها في نفسه. لماذا تخبره؟ هل أمسكتْ قلبه بالجُرم المشهود؟

أجزم بثقة، وبصوت مبحوح هدَّه الصراخ وبرد الليل:

- ليستْ الفاعلة.

انتبهتْ إلى نبرة صوته المُتغيرة، بحة أخبرتها «شفق» بأمرها، فزالتْ كل الشكوك من صدرها، إنه الصوت ولا أحد سواه.

رغم كل شيء، أبهجها ذلك بشدة، وتمتمت بحماس:

- أثق بذلك.

أراحته كلماتها، بل جرأته ليتمتم بغيظ:

- إنها «دهب».. سيخبر أبواها الجميع بذلك.

- لن يخبر أبواها أحدًا!

استبدت به الدهشة، جنبًا إلى جنب مع الغضب:

- لماذا؟

- لهما حساباتهما الخاصة.. يُفضلون أن تظل «شفق» في قبضة الشرطة حتى يجدوا للقضية مخرجًا.

- لن أسمح بذلك.

أعجبها ما سمعت فقالت بحماس:

- وهذا ما أريده.. بل ما أرجوه منكَ.. لا تسمح بذلك.

أخذ نفسًا عميقًا، حك رأسه بقوة وكأنه يود لو يقتلع هذا العقل الذي يُعذّبه، كيف يكون حاميها وهو لا يملك عليها حقًّا، وثمة رجل آخر هو أحق منه بحمايتها.

حمايتها شرف، وليس هو الفارس الذي اختارته لينال هذا الشرف. حاول أن يلجم مشاعره بلجام من حديد وهو يقول:

- لن أستطيع أن أتدخل كثيرًا.. أنا.. أخشى أن أؤذيها.. سيظن الناس بها سوءًا.. يجب على خطيبها أن يتحرك.

عاجلته بثقة:

- «آكمل» لن يتحرك.

ثم أضافت وهي ترفع الخاتم الذهبي أمام وجهه، تقول براحة كبيرة:

- كما أنه لم يعد خطيبها.

ظنها تمزح أو تحتال، رغم أنه لم يعتَد منها المزاح ولا الاحتيال. رمق الحلقة الذهبية غير مُصدّق!

علمتْ ما فكَّر فيه، فبددتْ مخاوفه:

- خلعته بنفسها.. دون تأثير من أحد.

هل يُمكن لكلمات من أحرف وحركات أن تُحيي قلبًا، أو تستمطر السماء كي تُنبت شجرًا؟ هل يمكن للكلمات أن يخرج من جنبيها جناحان يحلقان في سماء الوَجد دهرًا؟

كيف يكون للحرف موسيقى إذا وقع على القلب؛ تجمَّع لحنٌ؟ كيف يتحول القلب فجأة من قانع بالصوت إلى طامع في النظر؟

لم يعد يكفيه أن يُحلّق في الفراغ من حولها، فجأة اشتهى الوصل والسمر. أرسل القلب دمع العين مُقتصًّا من البصر، أن حَرَمه لذّة النظر، فأرسل العقل إلى القلب رسول هداية أن تأدّب، فلا ينال حق الوصل إلا من صبر.

غادر من فوره، وعندما لاقى «طاهر» أمام المستشفى وضع يده فوق كتفه وقال له بحماس يُحرّك الجبال الرواسي:

- هيا بنا.

- إلى أين؟

- سأثبتُ براءة «شفق»!

ولأن خبث الطبع داء أعْيَا مَن يداويه، تقاربت الرؤوس وتماهَتْ العقول لتحوكَ دربًا من دروب الشر.

ظلّ «مستور» حبيسًا بالداخل، لكن «أكمل» الذي أُطلِق سراحه قرر أن ينتقم، خاصة بعدما علم حقيقة الرجل الذي بدّل اسمه، رادمًا على ماضيه الذي يكره.

فكر «أكمل» في أن ينبش هذا الماضي، ويستخرج كل ما بإمكانه أن يُسقِط «غراب» في مأزق. مرّ على المستشفى أولًا، وهناك علم بحالها، وفي نهاية حديثه مع دكتورة «ثريا» منحته خاتمه قائلة:

- «نرجس» تقول إن «شفق» نزعته من إصبعها.

كانت صفعة مدوية، أيقظت شياطين الغضب من مرقدها في صدره، هتف بحقد كبير:

- «أكمل الهلباوي» لا يُرفَض بل يَرفُض!

هكذا قال قبل أن يعيد الخاتم إلى دكتورة «ثريا» قائلًا بانفعال صارخ وقد

شعر بكرامته تُهدر آمامه:

- أنا من أتركها.. هكذا سأخبر الجميع!

خرج من المستشفى وقد انتوى أن يُفرغ غيظه في «غراب»، ويُقلب عالمه رأسًا على عقب. انطلق بسيارته صوب مبنى المحافظة كي يسأل عن مكان قبيلة تُدعى «السخاوية»، كي يذهب إليها باحثًا عن رجل يُدعى «جبار»!

وصل «جبار» إلى العريش.

لم تفارق عين رَجله بيت الخالة «نوارة» ولو للحظة، وعندما التقى «جبار» بمعزل عن العيون بعد البيت بعدة أمتار قال له مؤكدًا:

- زوجتكَ في هذا البيت يا «جبار»، دخلت ولم تخرج.

نطقت قسماته بالازدراء وهو يقول:

- وخالها.. هل خرج لصلاة الفجر؟

- ليس بعد.

جاوره «جبار» في السيارة في انتظار اللحظة المناسبة لاستعادة زوجته التي فرّتْ منه هاربة ونكّستْ رأسه أمام قبيلته، طفق عقله يحوك عقوبات شتى سيُنزلها عليها لحظة أن يُمسك بها.

لم ينتبه إلى سيارة «بحر» التي كانت تقف في الجهة الأخرى من البيت. وحين فتحت الخالة «نوّارة» باب البيت لزوجها، تودعه لصلاة الفجر، انطلق «بحر» صوبه، وقف أمامه سائلًا بتوجس:

- مَن تكون لـ «مدينة»؟

تبادل الزوجان النظرات، ثم أجاب بغلظة:

- أنا خالها.. ومن تكون أنتَ لـ «مدينة»؟

أطرق «بحر» واجمًا، ثم رفع رأسه قائلًا:

- أنا «بحر».. لا بد أنها حدّثتكما عني.. أريد أن آخذ «مدينة» إلى أرض «السوارفة».. قبيلتي ستحميها.

أشاح خالها بكفه قائلًا:

- ليست لنا حاجة بك ولا بقبيلتكَ.

لم تستطع الخالة «نوّارة» من أن تمسك لسانها إذ قالت:

- ألم يكفِك ما طالها من أذى بسببكَ؟ ماذا تظن نفسكَ؟ ماذا تريد منها؟

أجاب باقتضاب:

- أريد أن أحميها.

قال خالها بحدة:

- اسمع يا بني.. أنتَ تتدخل في أمور أكبر من رأسك.. ارحل عن هنا ولا تُفسد الأمر أكثر.

انزعج «بحر» بمقالة خالها، قال:

- لا شيء أكبر مني.. أستطيع حماية «مدينة» في أرضي.. أنا كفيل بها.. سأتخذها زوجة لي.

ضرب خالها كفًّا بكف قائلًا:

- ومن قال إنها تريدكَ يا بُني؟ ألا تُسأل المرأة أولًا إن كان لها فيكَ رغبة قبل أن تُقحم نفسكَ في حياتها بهذا الشكل؟

ولماذا لا ترغب به؟ هذا ما لا يستطيع أن يفهمه. جواب سؤاله الذي لم ينطق به أتاه على لسان الخالة إذ قالت:

- «مدينة» لا تريد مُعاداة قبيلتها ولا الخروج عن قوانينهم ما دام ليس فيها ما يغضب ربها.. تثور فقط على ما يخالف عقيدتها.. «مدينة» ليست هوجاء مثلك لا تعرف متى وكيف ولماذا تثور.

نكّس «بحر» رأسه، وقد شعر بكلمات الخالة ثقيلة على أسماعه، تنثر الملح على الجرح. وفي اللحظة التي قرر فيها أن يبتعد عن البيت وعن الزوجين وعن «مدينة»، ويعود إلى أرضه بخفي حنين، يُنقذ ما يستطيع إنقاذه؛ ظهر «جبار» وصاحبه كل منهما يحمل سلاحًا في يده.

شهقتْ الخالة وتقهقر زوجها خطوات للخلف. وقف «بحر» أمام الزوجين حاميًا، فأمره «جبار» بغلظة:

- ابتعد يا «بحر».. أريد أن آخذ زوجتي.

كشّر «بحر» عن أنيابه قائلًا:

- على جثّتي.

ضرب «جبار» طلقتين متتابعتين في الهواء، صوت الطلقات لم يخف «بحر»، ولم يدفعه لأن يتزحزح خطوة واحدة.

اشتبكَ صاحب «جبار» مع «بحر» بالأيدي، فيما حاول «جبار» اقتحام البيت لأخذ زوجته، الصرخات وطلقات النار التي شقّت سكون الليل دعت البعض إلى الخروج من منازلهم والتجمع أمام منزل الخالة.

وفي الوقت الذي تمكن فيه «جبار» من دخول البيت، لم يجد أثرًا لـ «مدينة».

أبصر نافذة مفتوحة تطل على الجانب الآخر من البيت، أطلق سبة وهو يصيح غضبًا لهروبها للمرة الثانية. وحين أدرك «بحر» ما حدث انفلتَ من بين الجمع وهرول في إثر «مدينة» يعتصره الندم.

لم يعد يرغب سوى في أن يحميها ويعيدها إلى أهلها سالمة.

---

(١١)

حاكَ الشك في رأسه فكرة، أن ثمة علاقة بين المجرمين اللذين هاجماه على الطريق وحادثة العمال، ولأنه لا يملك من الخيوط سوى هذا الطرف، قرر أن يتتبعه لآخره.

لم يطق «غراب» صبرًا حتى تستدعيهما الشرطة، ولا يأمَن أن يهربا إذا اكتشفا أن الشرطة في إثرهما؛ تحرّك برفقة «طاهر» الذي يعرف خبايا بعض قطاع الطرق من أمثالهما.

وعندما تحركت الشرطة للقبض على المجرمين كان بالفعل «غراب» قد سبقهما بخطوة. ضرب الرجلين وكتّفهما، واستخلص منهما بعض المعلومات التي ضربته في مقتل.

فتاة ما طلبت منهما سرقة السيارة وحرقها بما فيها، خاصة علبة دواء ملطخة بطلاء أظافر أحمر!

لم يعثرا عليها في أثناء حرق السيارة، ومخافة أن تمنع عنهما باقي الأموال أخبراها أنهما فعلا كل ما أمرتهما به.

لم يعرفا هوية الفتاة، ولا حتى اسمها. لكنه لم يعد لديه أدنى درجة من شك في أن «دهب» هي وراء حادثة السرقة، من غيرها سيسعى بجنون خلف علبة دواء لا قيمة مادية لها؟

حتى وإن نجَتْ من عقوبة حادثة السرقة، يجب ألا تنجو من عقوبة حادثة العمال. كل شيء هباء دون إقرار «شفق» بأنها ليست الفتاة التي تم تصويرها في الفيديو، وأن الفتاة هي توأمتها «دهب».

عليها أن تكشف الحقيقة فينال المخطئ عقابه، عليها ألا تستلم لظلم أوقعه عليها أقرب الناس إليها، عليها أن تتحلى بالقوة والشجاعة كي ترفض الظلم وتتحرر من قيوده.

يعرف نبعًا من القوة أراد أن يسقيها منه؛ توجه من فوره إلى بيت الخالة «نوّارة»، وعندما فتحت الباب بادرها «غراب» بلهفة:

- «شفق» تحتاجكِ يا خالة.

دبّتْ الغيرة في قلب «ثريا» حين رأت اللهفة على وجه امرأة ضريرة تنطِق اسم «شفق» بشوق ولوعة.

من تلك التي تُقبِل على ابنتها الراقدة في فراش المرض وكأنها ابنة لها؟ ولماذا يُفسح لها «غراب» و«نرجس» الطريق وكأنها الدواء الذي به ستبرأ ابنتها وينهزم الداء!

لم تترك المرأة الغريبة لحالها مع ابنتها، لازمتهما وقد جلست على مقربة، ترقب بفضول وريبة كيف تمسح المرأة بكفها على طول جسد ابنتها، تقرأ القرآن ولا تقطعه إلا من أجل الدعاء.

- ابنتي الغالية.. علمتُ أن شيئًا قد أصابكِ.. شعرتُ بغصة في قلبي..

وحلاوة الطعام غابت عن لساني.. هل تصدقين ذلك؟ كيف ومتى أصبحنا قريبتين إلى هذا الحد.. لا أعرف.. وكأن أرواحنا التقتْ فوق جسر مشترك وتآلفَتْ.. ألم أخبركِ دومًا أنني أشعر أن الله أطال في عمري حتى أقوم بعمل أخير قبل موتي.. وأنني أظل طوال الوقت أبحث عن هذا العمل؟ أريد أن أخبركِ أنني عرفته.. وعلمتُ لماذا أرادني الله أن أفعله.. وددتُ لو أخبركِ عن ذلك.. انتظرتكِ طوال اليوم كي أحكي لكِ.. وعندما لم تمري بي شعرتُ أن ثمة ما أصابكِ.

مسحتْ فوق رأسها، ومررتْ أناملها فوق وجهها تتلمس العبرات الساخنة المنسابة فوقه:

- البكاء طهارة للروح.. الروح التي لا تقدر على البكاء هي روح مُعذّبة.. أتذكرين حين قلتُ لكِ أن الحقائق التي تتهربين من مواجهتها تدور باحثة عنكِ ويومًا ما ستُمسك بكِ على حين غرة؟ أتذكرين حين طلبتُ منكِ أن تتجهزي لها؟ الآن حان وقت المواجهة.. لا يمكنكِ أن تتركي ساحة المعركة.. ليست هذه «شفق» التي أعرفها.. والتي واجهتني بشجاعة الليلة الماضية كاشفة أمامي هويتها.. أتذكرين كم تحدثنا طويلًا بعدها؟ كم بكيتِ.. كم حكيتِ.. كم كشفتِ من أسرار تعذبكِ.. وأحوال تؤرقكِ.. قلتُ لكِ حينها أن الدنيا دار ابتلاء.. وخلق الإنسان في كَبَد.. ستتألمين.. ستتعذبين.. ستُقهرين.. ستغضبين.. ستندمين.. وستخسرين!

لا يقع على عاتقكِ أن تدفعي كل ذلك.. قوتكِ لا تكفي.. ما يقع على عاتقكِ فحسب هو أن تَعبُري الدنيا كأنكِ عابر سبيل.. قليل المكوث.. خفيف التعلّق بالدنيا وملذاتها.. عابر سبيل يمر على الأرض كي ينثر الخير والحق والعدل.. نظيف اليد.. طاهر القلب.. عفيف النفس.

القوة يا ابنتي ليست في دفع كل ما يطالكِ من ابتلاء.. بل في حفاظكِ على قوتكِ في قلب الابتلاء! نفسكِ التي خلقها الله بين جنبيكِ لم يخلقها لتُعذّب! فلماذا تتخلين عنها الآن؟

هل ظننتِ ألا أحد يتعذب غيركِ؟ ألم تري العالم من حولكِ؟ أعاش في الدنيا امرؤ سعيدًا لم يختبر البلاء ولم يعاقر الألم؟ حتى الأنبياء أوذوا في أنفسهم وأموالهم وأولادهم وزوجاتهم.

ثم أمسكتْ بذارعها تجتذبها نحوها بقوة، أراحت رأسها فوق صدرها، إذ أرادتْ أن تُشعرها بالدفء. ولشدة ما انزعجتْ الدكتورة «ثريا»، إذ أدركتْ أنها كانت تحرم ابنتها من العناق!

اتصال بشري يُولِد الحميمة والأمن والاحتواء، يضبط المزاج ويُخفف من الضغوط النفسية، والآلام الجسدية، ونوبات الاكتئاب ويقوي الجهاز المناعي، يلغي الحواجز بين جسدين، يُبدد المسافات، يزيل شوائب النفس، ويغسل القلب ويُنقيه.

أدركتْ للتو ما كانت تلقيه في محاضراتها العصماء، أنها بحرمان ابنتها من العناق والاحتواء قللتْ من فرصة أن تكون فتاة متزنة ومستقرة نفسيًّا.

كيف تقبل نفسها وتحبها إن لم تشعر بالحب والقبول من والديها أولًا؟

آدركتْ وهي واقفة تتأمل الجسدين المتعانقين أن «شفق» كانت ترضخ للظلم لأنها لم تجد نفسها جديرة بغيره، لم تشعر أنها جديرة بالحب.

وعندما هطل الغيث يصاحبه صوت رعدي، وهي تنفجر في البكاء فوق صدر المرأة الغريبة، كانت الدكتورة «ثريا» واقفة في الزاوية، ترقب من بعيد، وتشاركها دمعة بدمعة.

تذكرت «مدينة» قول الخالة «نوّارة» لها وهي صغيرة: أنتِ لا تختارين المعارك التي تُحاربين فيها، لكن بيدكِ ألا تقبلي سوى بإحدى الحُسنيين؛ إما النصر، أو الشهادة.

لم نُخلَق لنعيش سباقًا «من يعيش عمرًا أطول؟»، بل لنخوض غمار «من يموت ميتة أفضل؟» السير في طريق الحق حتى نهايتها هو فِعل أبطال الدنيا، وأسياد الحكايات، تُخلّد ذكراهم في حواشي الفؤاد، وقلوب النجمات.

وأرادتْ «مدينة» الخلود؛ سارتْ في الطريق حتى نهايته، لم تخف من بطش ظالم، أو قسوة لئيم، قلبها مُعمّر بالإيمان، وبصرها من حديد؛ يرَى الحق حقًا، والباطل باطلًا.

كان بإمكانها أن ترضخ، وتعيش مستضعفة ولها في حقوق العباد حق المظلوم، لكن نفسها الأبية كانت تأبى الخنوع. خلقنا الله درجات في القوة والصبر واحتمال الابتلاءات. لم تُكلّف كل نفس إلا بوسعها، بلا زيادة أو نقصان، ولأن طاقة «مدينة» كبيرة كان اختبارها عظيمًا.

اختارت ألا تختار، بين نار «بحر» ونار «جبار»!

الصحراء طويلة، والسماء الصافية يختلط فيها الخيط الأسود من الليل بالخيط الأبيض من الفجر. الهرولة أصابت جسدها بالإنهاكِ، التقطتْ أنفاسها المبعثرة، لم تكن تعلم أن توقفها سيُمكّن «بحر» من اللحاق بها على قمة مرتفعة من الصخور.

قال لاهثًا بعد أن جاب الأرجاء باحثًا عنها حتى عثر عليها:

- آسف.. لو عرفتُ أن كل ذلك سيحدث لما اقتربت منكِ خطوة واحدة.

لمستْ في صوته عذابًا حقيقيًّا، هل ترحمه وتقول أنها تسامحه، وأن قلبها لا يحمل غلًا ولا حقدًا لأحد، وأنها أقدار الله، لا نفر منها إلا إليها؟

ودّت لو تقول له ذلك كي تهدأ لوعته، لكن مجيء «جبار» قطع عليها الطريق، تبع «بحر» حتى أوصله إلى «مدينة» دون أن يشعر.

الآن صار ثلاثتهم وجهًا لوجه على قمة صخرية، في صحراء واسعة لا شاهد فيها سوى عُمّار السماء.

لم يعرف ثلاثتهم أن الصباح حين سيحل، سيُسفر عن فائز ومهزومين!

صاح «جبار»:

- ما شأنكَ وزوجتي؟ هل هذه أخلاق العرب؟

ابتعدت «مدينة» حتى اقتربت من حافة المرتفع الصخري، خلفها الفراغ ولا شيء سواه. أمسك «بحر» بحجر ودّ لو قذفه فيشج به رأس «جبار»، سالت الدماء الحارة فوق وجهه وردائه الأبيض:

- إياكَ أن تقول «زوجتكَ».. لم توافق على زواجها منكَ.. إياكَ أن تقربها يا «جبار».. لن أسمح لكَ.

لم يسبق لـ «بحر» أن تذلل لأحد، أو أحنى رأسه كي يستجلب عطف مخلوق، لكنه فعلها، وأمام «جبار»، أكثر مَن يكره في هذه الحياة:

- أرجوكَ دعها وشأنها يا «جبار».. أستحلفكَ بالله أن تفعل.

لكن الغِل قد ملأ صدر «جبار» حتى طفح:

- «السوارفة» في عروقهم طبع الخيانة.. أنتَ لا تفرق شيئًا عن أخيكَ.

انفعل «بحر» وقد أهاجه ذِكر أخيه بسوء، فأردف «جبار» بحقدٍ دفين:

- أخوكَ لص أثيم.. ألا يعد «السوارفة» السرقة جريمة شرف؟ لقد فعلها أخوكَ الذي تحبه.. سرق مخطوطة من رجل سرقها قبله.. كان يفهم في المخطوطات وكل هذا الكلام الفارغ.. أخبرني أنها نوع من المخطوطات يتم غسله ثم الكتابة عليه من جديد.. وفي بعض الأوقات يتبقى بعض من أثر الكتابة القديمة.. وكانت هذه المخطوطة من النوع الذي تم غسله والذي يتم الاحتفاظ به في الدير.. ومنه وقع على إحداثيات مغارة للفيروز.. كاد أن يتهور ويسلمها للشرطة.. لكن عندما ذكّرته بحلمه في السفر لم يحتج مني وقتًا طويلًا حتى كان على استعداد لبيعها إلى أول مُشترٍ.. وهكذا عرّفته على رجل يعمل في شركة كبير.. باعها له مقابل المال الذي أراد.. واقتسمنا المال معًا.

ثم بصق أرضًا وهو يقول بانفعال:

- لكنه ليس رجلًا.. ما إن استلم حصته من المال حتى ندم وأراد الرجوع عن البيعة.. لكنها كانت قد تمت وانتهى الأمر.. فهددني بأن يفضحني ويفضح نفسه إن لم أعِد له المخطوطة.

طوال هذا الوقت كان «بحر» يتساءل في نفسه عن السبب الذي دفع «جبار» لأن يقتل «مُسفر»، صحيح أن عقله الأثيم لا يحتاج من الأسباب أقواها، لكنه لم يظن قط أن الخسة قد تملكت من نفس هذا المخلوق أن يقتل أخاه كي يمنعه من إتمام شروط توبته!

لم يتحمل «بحر» ما سمع، اندفع ثائرًا يلكم «جبار» في وجهه وبطنه، يلوي ذراع ويضرب ساق، و«مدينة» تتابع الشجار الدائر بين الرجلين ولا تقوى على فعل شيء سوى الصراخ بـ «بحر» كي يتوقف.

رأت «جبار» يخرج سلاحه من جيبه، صرخت كي تنبه «بحر»، وما إن التفتَ رأس «بحر» صوبها حتى كانت الرصاصة قد خرجت، وشقّتْ ذرات الهواء كي تستقر في جسد «مدينة»!

توقف الكون في لحظة، إلا من حركتها البطيئة وهي تهوي من فوق المرتفع الصخري. جن جنون «بحر»، اندفع ثائرًا ينظر إلى الأسفل وينادي باسمها بهستيرية.

«جبار» الذي تمكن من الوقوف أطلق سلاحه في ظهر «بحر»، لكن الرصاص كان قد نفد. فاندفع ثائرًا يصرخ بقوة وهو يدفع «بحر» في ظهره نحو الهاوية.

وما إن آبصر الجسدين بين الصخور، جثتين هامدتين سائحتين في الدماء بلا حراك، حتى مسح دماء وجهه بطرف ردائه، وقفل راجعًا وقد تلبّس الحق بثوب الباطل، متفاخرًا بأنه قد ثأر لشرفه من «بحر» وزوجته الآثمة.

وفي الليلة ذاتها حين علمت أم «مدينة» من «جبار»، ما حدث شعرت بقبضة قاسية تُمسك بقلبها وتقتلعه من موضعه، تمتمت بكلمات معدودات: وعدتني أننا سنلتقي قريبًا ولن نفترق!

ثم سقطتْ مغشيًا عليها، أو هكذا ظنَّ جاراتها، حتى انتبهن إلى أنها قد فارقت الحياة بأسرها، بجلطة احتشدتْ فيها الدماء، وسدّت عليها منافذ حياة تغيب عنها ابنتها التي تحب.

---

(٣١)

أفرغتْ «شفق» ما بجعبة عينيها من الدمع، وما بروحها من قهر فوق صدر الخالة، حتى تهالك جسدها وتراخي. أعانتها الخالة كي تتوضأ وتصلي، ثم أعادتها برفق إلى الفراش، وأراحتْ رأسها فوق الوسادة.

مسحت على رأسها ثم أمرتها بالراحة:

- النوم بلسم للمهموم.. عقلكِ ذكي جدًّا.. يُعيد ترميم نفسه في أثناء النوم.. ستكونين أفضل بعد استيقاظكِ.. سترين.

حين كانت على أعتاب النوم شعرت بشيء بارد تدسه الخالة في كفها، كانت أوهن من أن تتمكن من فتح عينيها لرؤيته. غطّتْ في نوم عميق دام لساعات، تناهى إلى أسماعها صوت طرقات ففتحت عينيها. رأت من خصاص باب الشرفة المغلق بالمسامير والأقفال بعضًا من أشعة الشمس التي انسكبتْ في الغرفة على استحياء.

تقلّبتْ في نومتها، وكانت الغرفة خالية إلا منها، عندئذ ضغطت قبضتها على الشيء الذي تركته الخالة في يدها، وحين رفعته أمام وجهها كي تتفحصه خفق قلبها بقوة.

مررتْ أصابعها فوق علبة دواء فقدتها ذات ليلة، تحت الأنقاض أمام باب مغلق! ما زالت تتذكر كيف انسكب طلاء أظافر «دهب» أحمر اللون على العلبة عندما كانت تضعهما متجاورين في غرفتهما، وذلك قبل سفر «دهب» مباشرة إلى العريش، ومن ثم سفرها لملاقاة «سهيل» يوم الحادثة المشؤومة.

كيف وصلت إلى يد الخالة؟ شخص واحد بإمكانه أن يجدها ويحتفظ بها وله علاقة وثيقة بالخالة كي يبوح لها، شخص واحد وبخدعة ما أصبح خطيب أختها.

الذنب الذي لا يُعاقَب المرء عليه أول مرة، يتحول إلى طبع ودَيدَن؛ كان عليها أن تكشف الخدعة الأولى، وألا تحبس الشعرة الذهبية في صندوق باندورا، تحول الصندوق إلى مرتع للشرور لأنها حبستْ فيه الخطيئة الأولى.

كان عليها المواجهة، والمصارحة، والعتاب، ومن ثم العقاب أو المسامحة. كان عليها أن تنصر أختها ظالمة أو مظلومة، نصرتها مظلومة بدفع الظلم عنها، ونصرتها ظالمة بمنعها من ظلم نفسها وغيرها.

لا «يتفرعَن» الإنسان عن قوة، بل لأن من حوله ضعفاء، لا يأمرونه بمعروف ولا ينهونه عن مُنكَر.

تناهى إلى أسماعها صوت الطرقات مرة أخرى، نظرت صوب الباب مُستفهمة، لماذا لا يدخل الطارق؟ وما إن تكررت الطرقات ثالثًا حتى انتبهت إلى أنها قادمة من باب الشرفة المغلق.

أزاحت الغطاء واقتربت منه، حاولت فتحه فاستعصَى عليها.

ومن خلفه سمعت صوتًا يقول:

- هل آيقظتكِ؟

صوتًا سمعته ذات مرة من تحت الأنقاض، صوت به بحة مميزة!

جفلتْ، وارتعدت أطرافها، كانت لا تزال تُمسك بعلبة الدواء، فقبضت عليها بقوة.

- لقد خاطرتُ بتسلق ثلاثة طوابق مثل لصوص المنازل ومكثتُ عدة ساعات دون حركة.. لكنني لم أتحمل أكثر، لذا أيقظتكِ.

دنتْ مرة أخرى من باب الشرفة ببطء، تتمنى لو كان كل ما عاشته حلمًا، كابوسًا مزعجًا وستستيقظ منه ليلة الحادثة، ستلتقي «سهيل» كما تواعدا، ولن تسقط البنايات، ولن تلتقي الصوت.

كم هذا سهل، لكن المشكلات لا تختفي بتجاهلها، إنها تكبر وتتوحش، وعليها الآن أن تواجه تبعات أفعالها.

كانت الكلمات الأولى التي تنطقها منذ ليلة كاملة مُرهِقة:

- لا أريد أن أخسر أختًا.

هكذا قطعت مسافة طويلة من الحديث قبل أن يبدأ، أوصلت الطريق إلى نهايته، أو هكذا حسبَتْ.

- وأنا أيضًا لا أريدكِ أن تخسري أختًا.. لكنني لم أخطئ في شيء فلماذا أعاقَب؟

الألم الذي غزى روحها انطبع في صوتها وهي تقول:

أنا أخطأتُ.. لذلك أعاقَب.

لما سكتَ، استطردتْ:

- أخطأتُ حينما سمحتُ لها أن تتمادى.. أن تؤذيني.. وتؤذي كل من حولي.. أخطأتُ لأنني لم أوقفها.. لم أواجهها بحقيقة أفعالها.. لذلك أنا راضية بالعقاب.

رغم البحة، كان في صوته بعض من النبرة التي ألفَتْ سماعها، قال باقتضاب:

- إن كنتِ تنوين تحمل الذنب عن أختكِ هذه المرة أيضًا فانسي ذلك.. حتى لو لم تنظري في وجهي مرة أخرى.. لن أسمح لكِ.

كان الحديث شاقًا عليها، خاصة حين تذكرت الصحفية التي سألتها في اليوم الذي وصلتْ فيه من «الصين»، ماذا يتكون ردة فعلها إن عرفت أن لأختها يدًا في الحادثة، يومها أجابتها بثقة أنها ستنال عقابها.

- هذا صعب جدًّا.. أدركتُ الآن أن الكلمات سهلة.. مثلما يقولون «مَن يقف على البر ماهرٌ».

- لا تفعلي ذلك.

- أنتَ تقف على البر لذلك تظن أن الغوص في البحر سهلٌ.. لا أستطيع أن أؤذيها حتى وإن آذتني ألف مرة.

- آنتِ لا تؤذينها.. آنتِ تساعدينها لتلقّي العلاج.

هزت رأسها بقوة وهي تبتعد عن الباب قائلة:

- لن أفعل!

ثم تحلّتْ بالقوة لتقول:

- وأنتَ توقف عن التدخل في هذا الأمر بعد الآن.. ابتعد عن كلينا.

لم تسمع منه سوى تنهيدة عميقة، ونقرات متوترة لأصابعه فوق الباب، حتى سألها سؤالًا مُباغتًا أدهشها واستجلب دهشتها وحيرتها:

- متى يلتقي البحر بالشفق؟

اقتربتْ من الباب تضع كفها فوقه، لم تفهم السؤال ولا مبعثه. بعد برهة أجابت:

- أحدهما في السماء والآخر في الأرض.. البحر والشفق لا يلتقيان أبدًا!

عندما وصل «أكمل» إلى أرض «السخاوية»، أشار له أحد الرجال صوب بيت «جبار» فطرق بابه.

ما إن وقف وجهًا لوجه حتى كان أول ما نطق به:

- «بحر» الذي ظننتَه ميتًا لا يزال على قيد الحياة!

يتصارع بنو الإنسان
بخسة ودِعة وهوان

على الصحة والمال والحب
ويحسبون أن العدل في جُب!
يحسبون أن رب دُنياهم وآخرتهم
يُقسم المقادير بأهوائهم!
لو تُرِكَ في أياديهم خزائن الخيرات
وراحة البال والمسرّات
لضنُّوا بها على من سواهم
ولقرَّبوا فقط مَن وافَق هواهم!
ولأن رب العِزة رحيم

جوَّاد ورزَّاق وكريم
يُقسم الأرزاق بحكمته
لا بعدله بل برحمته!

الليلة التاسعة عشر

نحن ننضج بالصدماتِ؛ رُبَّ صدمة نافعة!

(١)

شمس الصحراء لم تكن حانية على وجهه قط، كانت تصفعه وتخمشه وتُهلب جرحًا طوليًّا يشق وجهه.

فتح «بحر» عينيه بصعوبة بالغة، غاب عن ذهنه صفاء التفكير، التفتَ حوله فرأى جسدها ممددًا على الأرض، فاقد الحياة.

صرخ وبكى، حتى انفطر قلبه؛ رأفت الشمس بحاله، وسرقت وعيه ثانية، فسقط في غياهب الظلمات.

فتح عينه مرة أخرى، ولم يدرِ أن نهارًا كاملًا مرّ عليه فاقدًا لوعيه، هذه المرة كانت أيادي الشمس عنه غائبة. جسده ممد فوق فراش بسيط يدنو من الأرض، وساقه موضوعة في جبيرة بدائية، وألمًا حارقًا يشق وجنته حتى ليكاد يُمزّقها، وفقد وعيه ثانية.

حين استيقظ كان ستار الليل مُسدلًا فوق السماء، والنجمات مختفيات وراء الحُجُب، حتى القمر كان مُحاقًا، ضنَّ بنوره على الأرض في تلك الليلة.

هذه المرة رأى عجوزًا يقترب، يخلط موادًا في وعاء صغير، ثم يضعها فوق جرح وجهه. صرخ ألمًا، وكأن نارًا اندلعتْ من وجهه، وهو الذي كان يظن نفسه سيد الرمال وفارس الألم.

نطق بكلمات معدودات يسأل فيها عن «مدينة»، الفتاة التي كانت راقدة بين الصخر على مقربة منه. أتاه جواب بائس، بأن روح الفتاة قد صعدتْ إلى بارئها.

هذه المرة خرَّ فارس الألم على قدميه مستسلمًا، نزع نياشينه، وخلع درعه الذي لم يعد نافعًا، وبكى كما يبكي الرجال!

وبكاء الرجال حَزَن، وهلع، ولوعة، وحسرة، وانكسار. بكاء الرجال انهيار، وهدم، زلزال، وصواعق تضرب سماوات الأمن، وأراضين السكون.

وعندما وضع العجوز المادة اللاهبة فوق جرحه لم يجد الألم بشعًا هذه المرة، لم يشعر به على الإطلاق، إذ كان لهيب صدره أشد منه بأسًا وقوة.

في اليوم التالي تحامل على نفسه كي يأكل، وهو الذي زهد الدنيا كلها. أخبره العجوز أنه مرّ بالوادي حين سمع صرخة مدوية، طار على أثرها غراب وحطّ أمام العجوز ثم عاد إلى موضع الجسدين الممدين يرشده إلى مكانيهما.

أنقذه الغراب إذن! بينما فشل هو في إنقاذ «مدينة»، لم يُحسن حتى أن يكون في قوة الغراب وحنكته.

غراب هو، لكن من فصيلة غير فصيلة الطيور، لا يملك من الحكمة مقدار

ذرة، غراب بشري، أسود القلب، قبيح المنظر، حطّ فوق رأس «مدينة» وأفسد عليها حياتها، وأغرقها فيه.

أكل القهر قلبه، تغذّى عليه ساعة فساعة، زهد الطعام والشراب والنوم والكلام؛ نحل جسده وضعف بنيانه حتى كاد أن يختفي عن الوجود في لمحة بصر.

لا يفعل شيئًا سوى الصلاة والجلوس عند قبر «مدينة»، دفنها العجوز وأهله من البدو في أرضهم لما لم يستدلوا على أهلها، إكرام الميت المُسارعة في غسله ودفنه، فأكرموها ومنحوها أشبارًا من أرضهم.

مكث «بحر» في أرضهم أيامًا وأسابيع، طال شعره، ونحل جسده، ورقّ حاله حتى لم يعد أحد بقادر على أن يتعرّفه.

عزف عن الكلام، فاضطر العجوز إلى اختراع اسم كي يُناديه به، فسمّاه باسم الطائر الذي دلّه عليه.. «غراب»!

قرر أن يغادر أرض سيناء التي أحبّ، مثله يستحق العقاب بالنفي عن كل ما يُحِب.

ودّع العجوز وشكره على العناية به طوال هذه الفترة، ثم ودّع الرمال وهو لا يملك سوى أثمال يستر بها جسده. قبل الرحيل ذهب إلى بيت خالها، كي يدلّهم على مكان القبر، كانت الخطوات ثقيلة على نفسه، وكأن الطريق يتمدد أمامه، يطول ولا ينتهي. وقف أمام البيت وطرق الباب، فتحت له الخالة «نوّارة»، نظر إليها ونظرت إليه، ورغم تبدل هيئته وجرح وجهه إلا أنها عرفته، صرخت به دامعة العينين تسأله عما فعل بـ «مدينة».

بلغها خبر وفاتها حين عاد «جبار» إلى قبيلته وأعلنها مُتفاخرًا، لكن قلب الخالة لا يزال يساوره أمل في نجاتها، تُراقب الباب بأعين تسبح فيها اللهفة، تنتظر عودتها من جديد.

هربت الكلمات من لسانه، خانته في لحظة عصيبة، أطرق باكيًا، ففهمتْ الخالة.

صرخاتها في وجهه كانت خنجرًا يُمزق قلبه، وكلماتها القاسية كانت شهبًا من نار تسقط فوق رأسه فتحرقه. أعطاها ورقة بها مكان القبر، دار على أعقابه مُطأطِئ الرأس لا يقوى على النظر.

تصيح الخالة من خلفه باكية بلوعة:

- لن أسامحكَ أبدًا عمّا فعلته بها!

أدرك أن أنانيته ليست في أنه أراد أن يعيش الحياة التي اختارها، بل لأنه أجبر الآخرين أن يعيشوا الحياة كما أرادها!

اقتحم حياة «مدينة» وأرادها أن ترفع معه رايات الثورة، فعل ما رغب دون أن يُفكر فيما ترغب، كان مُتملّكًا ظانًا بأنه لا يُرفَض.

لم تكن «مدينة» راغبة في أن تخوض معه حربًا، كان لديها معاركها

الخاصة، وآحلامها الخاصة.

هل أحب «مدينة» حقًّا، أم أحب الثورة؟!

هذا السؤال المُلغّم ما إن وطأه بفِكره حتى فجّر ينابيع الغضب في صدره، غضب من نفسه وعلى نفسه. هل أراد أن يوحد حياته مع «مدينة» حقًّا، أم أراد استخدامها كبيدق في معركته مع العادات التي كرهها؟ فجّر هذا السؤال الكُره والحقد من نفسه وعلى نفسه.

كم كان أنانيًّا كريهًا حين دفعها صوب معركته هو، تمامًا كما دفع «عين» لتنوب عنه في حربه. كان عليه أن يرحم ضعفها، لا أن يبغضه. ويرحم جُرح أبيه، لا أن ينكأه.

كان عليه أن يُعلن رفضه في وقت أبكر، ويكون واضحًا منذ أول مرة سمع فيها «بحر» لـ «عين» و«عين» لـ «بحر».

كل مرة سمعها فيها ولم يرفضها كانت بمثابة إقرار بها، ترك السفينة تُبحر حسب إرادة الرياح ومزاجها، كيلا يخسر فرصة سفره إلى الشمال ودراسته، وعندما رست السفينة عند شاطئ يكرهه، اندفع معلنًا الحرب على كل ما فيها. كان عليه ألا يتخلى عن قيادة السفينة، ويوجهها من اللحظة الأولى إلى الوجهة التي اختارها.

نحن نُفسد النهايات حين نختار الاختباء في البدايات!

لو واجه منذ البداية ولم يختبئ؛ لكان كل شيء أسهل.

رغم أنه يُدرك أنه يستحق النفي عن أرضه التي أحب، لكنه ما إن وصل إلى أعتاب القاهرة حتى كرهها كما لم يكره شيئًا من قبل. الناس والزحام والأرض الأسفلتية والطباع والعادات وغياب النجمات عن سمائها. لم يحتمل وقف راجعًا بعد ساعات.

لا تزال في نفسه رغبة في أن يواصل الحياة، وكأنه يستحق الحياة.

وانتظر من الله إشارة أنه تقبَّله وغفر ذنبه.

لم يكن يدرك أن العقاب قد وقع عليه بالفعل، وأنه سيضطر ما تبقى له من حياته أن يعيش غريبًا في أرضه، وهو لعقاب أشد قسوة من النفي!

تشجع أخيرًا على الاتصال بـ «حَمَد»، وعندها بلغه من العلم أن الجميع يظنونه ميتًا، وأن ليلتها عاد «جبار» إلى القبيلة مُعلنًا أنه قتل «بحر» وزوجته واقتصَّ منهما لشرفه.

أتاه صوت «حَمَد» على الهاتف جامعًا بين الفرحة بنجاته والرغبة في حمايته:

- يجب أن تختفي يا «بحر».. ابعد عن سيناء.. اذهب إلى أي مكان ترغب.

تساقطت عبرات «بحر»، ولم يخجل من البكاء تحت أسماع «حَمَد» وهو يقول:

- لا آستطيع يا «حَمَد».. حاولتُ لكنني لم آستطِع الرحيل.

ثم قال بحسرةٍ:

- أنا لستُ مثل «مسفر».. لم أرغب في الرحيل عن أرضنا قط.

- لكن نهايتكما واحدة يا «بحر».. «مسفر» مات.. وعليكَ أنتَ أيضًا أن تظل ميتًا.. إن عرف «جبار» أنك ما زلتَ على قيد الحياة سيسعى خلفكَ ولن يهدأ حتى يقتلكَ.. وإن لم ينجح في قتلكَ...

أكمل «بحر» عبارة أخيه:

- سيسعى خلفكَ أنتَ ويقتلكَ.. رجل مكان رجل.. إنها العادات الظالمة مرة أخرى!

- لستُ خائفًا على نفسي يا «بحر».. أنا خائف عليكَ.. وعلى أبي.. وعلى عمي.. وعلى أمي.. وعلى زوجتي.. وعلى قبيلتي.

لاحت بسمة على وجه «بحر» وقال:

- أنتَ حقًّا أفضل مني يا «حَمَد».. كان على الشيخ أن يراكَ منذ البداية.. ويفهم أنكَ الأحق بمشيخة القبيلة.

- ماذا ستفعل الآن؟

- لا أعرف.. لكنني غير قادر على الرحيل.

تنهد «حَمَد» بقوة، ثم قال بحزم:

- ستكون تلك مخاطرة كبيرة.. لكن على الأقل حاول الاختباء عن الأنظار.. لن يعرف أحد بنجاتكَ إلا أقرب الأقربين.. لذلك عليكَ أن تغير اسمك الأول.

ثم استطرد:

- «السوارفة» لقب أجدادنا ولا يظهر في الهوية الشخصية لأي منا.. ما يظهر فيها هو اسم جدنا الرابع.. «السيناوي».. إن غيّرتَ اسمك الأول واستخدمتَ اسم جدنا الرابع كلقب كما هو.. مع الجرح المميز الذي أصاب وجهكَ.. هكذا لن يعرفكَ أحد.

لما انتهى «حَمَد» من حديثه سأله «بحر» بخفوت:

- كيف حال الشيخ؟

طال صمت «حَمَد» ثم قال:

- وكيف سيكون؟ مثل رجل فقد اثنين من أبنائه.

حرقت العبرات مقلتيه وهو يقول بصوت متحشرج:

- انتبه له جيدًا يا «حَمَد».. كُن له ابنه الذي لم أستطع أن أكونه.

هجر البحر وأمواجه، اسمًا ورسمًا ووصفًا، صار غرابًا وحيدًا نبذته جماعته، يعيش على الكفاف، ولا يحلم بعش ووليفة.

سحب «حَمَد» أموالهما من حسابيهما المشترك، وفتح واحدًا جديدًا

باسمه الجديد. لم يقرب «بحر» هذا المال إلا ليشتري سيارة متهالكة تُعينه على التحرك والعمل.

سار كل شيء بوتيرة ثابتة، تتشابه فيها الشهور والأيام والساعات، حتى لاح اسم «النمر» في سماء سيناء!

ذكّره الاسم بوصية «مُسفر» الأخيرة: «فيروز.. النمر!».

هل للشركة علاقة بوصية مُسفر وجريمة الشرف التي أراد أن يُكفّر عنها؟ لا يعرف، لكنه صمم أن يعرف. عمل في الشركة كعامل بسيط في موقع العمل، حتى وثق فيه العمال واستحق بجده أن يكون رِيّسًا عليهم.

كل ذلك لم يساعده في كشف العلاقة بين الشركة وأخيه «مُسفر»، هذا إن كانت ثمة علاقة ولم يكن مجرد خيالات لتطابق الاسم مع كلمات «مسفر» الأخيرة.

فعادت الأيام تتشابه، والشهور تتلاحق حتى يوم الحادثة. ليلتها التقى بفتاة من خلف باب مغلق، لا يعرف عنها أي شيء، ويعرف عنها كل شيء!

يجهل الاسم والوصف، لكنه رآها من الداخل رؤى العين. لم يرَ فيها انعكاس ذاته في المرآة، بل رأى تكامل النقيضين.

التضحية في مقابل الأنانية. إلا أنها ذهبت إلى القطب الآخر من التضحية حتى أصبح المحمود مذمومًا. رأى روحًا مُعذّبة، تُعاقب نفسها ولا ترأف، وكأنها لا تستحق الحب، لا تستحق الحياة.

تلوم نفسها على الضعف، على المرض، على ذنوب الآخرين وسوء ظنونهم. تُعاقر الألم حتى ألفته وألفها. محملة بالذنب واللوم وعذاب الضمير.. مثله تمامًا.

أدركَ في تلك اللحظة كما كان ظالمًا لنفسه، فهم أن الله ما خلق النفس ليُعذّبها، وأن لوم النفس والغرق في بحور الإحساس بالذنب لا يُقدّم نفعًا لا لنفسه ولا لمن أخطأ في حقوقهم.

أدركَ أنه كان يصُد رحمات الله ويغلق الباب الذي يفتحه الله كل ليلة على مصراعيه، إذ يتنزل إلى السماء الدنيا مُناديًا: هل من تائب فأتوب عليه؟

أدركَ لحظتها أن التوبة لا تقتضي سوى إحساس بالذنب فاستغفار فعزم على عدم العودة فرد المظالم إلى أهلها، وأنه كان يُهلِك نفسه دون فائدة!

ضخّم الشيطان ذنبه في عينيه حتى رأى نفسه في مرآة الضمير وحشًا كاسرًا، وما هو بوحش. شعر في تلك اللحظة أنه يريد أن يتحرر من القيد الذي امتص منه رحيق الحياة، ويُحررها معه.

رأى فيها الرغبة في أن تتحرر، لمس في صوتها لهفةً، نبذًا لغفلة، وشوقًا لأن تمضي في حياة سوية الحب فيها أخذ وعطاء، أنانية وتضحية.

رأى فيها إشارة، وبُشرى وأمارة، تتجدد معها حياته، وتتعافى معها جراحاته. يعوض البيت الذي فقد، والأهل الذين افتقد.

تجددتْ ذكرى «مُسفر» في صدره، و«أُم ذيل» وحكاياتها، فوجد نفسه

يُكمل الحكاية، بصفحة جديدة لم ينطق بها آحد قبله:

- سأعثر عليكِ يا حافية القدمين.

لم تسمع منه سوى تنهيدة عميقة، ونقرات متوترة لأصابعه فوق الباب، حتى سألها سؤالًا مُباغتًا أدهشها واستجلب حيرتها:

- متى يلتقي البحر بالشفق؟

اقتربتْ من الباب تضع كفها فوقه، لم تفهم السؤال ولا مبعثه، بعد برهة أجابت:

- أحدهما في السماء والآخر في الأرض.. البحر والشفق لا يلتقيان أبدًا!

الغراب الذي ابتلع البحر في بطنه، لم يعد بوسعه أن يحتفظ به ساكنًا، البحر يثور بداخله، والأمواج تتلاطم يُمنة ويُسرة.

قد يهدأ البحر ويسكن لكنه لا ينام أبدًا، والبحر الذي في داخله بدد السكون بصوته، وحرّك المياه الراكدة بضربات أمواجه، ليس بعد أن عثر عليها، لا يُمكنه التخلي عنها بتلك البساطة.

تمتم باقتضاب:

- لا أقبل بهذا الجواب.

سمعت صوت حركته، ثم شعرت به يتسلق الشرفة نزولًا من الطريق الذي أتى منه، مُبتعدًا عنها كما طلبتْ.

بكتْ بشدة، واعتُصِرَ قلبها قهرًا.

أمسكتْ به الدكتورة «ثريا» في الأسفل، وقفت تتطلع إلى الأعلى ثم تعيد أنظارها إليه وهي تحتد قائلة:

- ما تفعل عندكَ؟

عدّل من ملابسه، والتفتَ يطمئن أن أحدًا لم يترصّده، ظنته سيكذب، أو يحتال، لكنه فاجأها:

- جئتُ أتحدث إلى «شفق».

هتفت مُستنكرة:

- إذن ما قاله «منصور» صحيح.. أنت لعبتَ على الأختين!

ولأنه ليس كـ «شفق»، لا يكتم الحقائق ولا يخشى المواجهة، أفصح لها عن كل شيء منذ أن التقى بـ «شفق» تحت الأنقاض، وحتى اللحظة التي أمسكت به تحت شرفة غرفتها بالمستشفى.

كلما تحدث أكثر؛ ازداد وجهها انفعالًا. بهتتْ وشهقت واستنكرتْ، لكنها تعلم في نفسها وتُقر بأن «دهب» بإمكانها أن تفعل كل ما تسمعه الآن.

ختم حديثه بقوله:

- الآن.. بدلًا من معاقبة المخطئ.. آنتِ وزوجكِ تعاقبان البريء الوحيد في هذه الحكاية.

تماسكتْ الدكتورة «ثريا» قائلة بحزم:

- ما قلته لا يغير الحقيقة في شيء.. أدرك أن «شفق» بريئة.. لكن لو استبدلناها بـ «دهب» ستدمر كل شيء.. هي فترة مؤقتة فقط و...

- كم أنتِ متناقضة مع اسمكِ!

لم تفهم ما قال، نظرت له مستفهمة فقال:

- الثريا عنقود نجمي مترابطة نجماته، وهي المنارة التي تُعلّق في سقف البيت فتنير أرجاءه.

فهمتْ تلميحه فاحتدتْ:

- أنا أفنيتُ عمري من أجل بنتيّ.

- أنتِ أفنيتِ عمركِ ولم تعرفي بنتيكِ.

سكتتْ، فنطق قائلًا:

- لم تري الظلام الذي ابتلعهما.. والظلام الذي عشش في نفوسهما.. والظلام الذي يتحركان خلاله دون يد توجه أو قلب ينصح.

كلماته قاسية، تؤثر فيها، لماذا لا تمشي من أمامه وتسد أذنها؟ ثمة مسامير خفية دقّت قدميها في الأرض.

أردفَ بقوة:

- سأثبتُ براءة «شفق» حتى وإن أغضبها ذلك.. حتى وإن لن تنظر في وجهي بعدها أبدًا.. لن أصبر يومًا واحدًا لأنني لا أطيق رؤيتها تضطرب في الظلام وحدها.

أظهر لابنتها حبًّا ما أظهرته لها طوال حياتها، اغتاظت، أكلتها الغيرة، والشعور بالذنب. انفعلت:

- ابتعد عن «شفق».. ليس لكما مستقبل معًا.

بهدوء وحزم أجابها:

- موافق.. سأبتعد عنها.. لكن أخبريني أولًا أين أجد مثلها؟ تحب الآخرين حتى لتكاد تنسى أنها أيضًا تستحق الحب.. تفتديهم.. تحميهم.. تبذل عمرها من أجلهم.. رقيقة جدًّا لدرجة أن نبرة قاسية تؤذيها.. وقوية جدًّا لدرجة أن تحارب الظلام وحدها.. لا تحب اللون الرمادي.. وتعرف كيف تفرق بين الأبيض والأسود.. لا تقيّم الناس بمراكزهم وأنسابهم.. بل بأفعالهم وخلقهم.. صادقة جدًّا لدرجة أنها حين تكذب يُفتضح أمرها.. ودافئة جدًّا لدرجة أن الجميع يتمنّى قُربها.. لا تعرف كيف تؤذي أو تجرح.. حتى وإن أُذِيَتْ أو جُرِحتْ.. حين يميل المرء بهمومه على كتفها تتلقّف رأسه بحنان.. حتى وإن كان كتفها مُثقلًا بالهموم والأحزان.. تداوي الآخرين رغم أنهم علّموها أن تخجل من المرض.. فتاة رغم أنها لم تُحَب بصدق.. فإنها

تعرف كيف تُحِب.. فتاة آتمنها على اسمي ومالي ونفسي وشرفي وبيتي وأولادي وأنا مغمض العينين.. أين أجدُ مثلها؟!

ارتعدتْ شفتاها، واختنق صوتها بغصة آلمتْ حلقها، كيف لإنسان أن يحب ابنتها كما لم تفعل هي من قبل؟ لاحتْ على شفتيه ابتسامة مُرهَقة قائلًا:

- أرأيتِ.. لا يوجد مثلها.. على طول السماء وعرضها.. لا يوجد إلا شفق واحد تنجبه شمس واحدة.. أفهمتِ الآن لماذا ليس لدي مستقبل دونها؟

رمقتهُ بألمٍ حقيقي سمح لنفسه بالظهور رغمًا عنها، بينما يلقي لها بكلماته الأخيرة:

- لم يفت الأوان بعدُ كي تقومي بدوركِ كثريا البيت.

دار على أعقابه ومشى بضع خطوات، ثم بدا أن ثمة ما يريد قوله.
التفتَ لها وقال بنبرة حازمة:

- اطلبي من زوجكِ أن يعيد الحق لأصحابه.. اللعنة التي أصابتْ أسرتكِ بدأتْ بدعوة مظلوم في جوف الليل!

انعقد حاجباها وتسربت الحيرة إلى نفسها، عن أي ظلم يتحدث؟!

تركها «بحر» وركب سيارته، ثم اتصل بأخيه قائلًا:

- «حَمَد».. أحتاج مساعدتكَ.

---

(٢)

في الصباح التالي لليلة زفافيهما، وبعد أن توسطتْ الشمس كبد السماء، طلبت «عين» من «حَمَد» أن تذهب إلى بيت عمها لتطمئن عن صحته.

وفي الوقت الذي ظنّته سيرفض إذ إنها ما زالتْ في نظر الناس عروسًا لم يمض على زواجها سويعات، إلا أنها فوجئتْ به يشجعها بحماس على الذهاب؛ ضاقت بموافقته ذرعًا.

بدا لها وكأنه يُحاول التخلص منها، يراها دخيلة على بيته وحياته، ضاق بوجودها رغم أنها لم تمس شيئًا من البيت وأغراضه حتى الآن.

وفي بيت الشيخ بُهتَ الجميع لرؤية «عين»، لكن حالة الشيخ الصحية ألجمتْ ألسنتهم. أمضتْ النهار كله في بيت الشيخ، تعتني بـ «بدر» وتُلاطفها وتُلاعبها، هل نساها «حَمَد»؟ أكان عليه أن يُظهر زهده فيها أمام أهلها وأهله بهذا الشكل الفج؟

انزوت في ركن قصي تُكفكف دمع العين، وتسأل الله أن يمسح بيد الرحمة على قلبها الذي نضح منه الألم وانساب من بين مسامها، تشتم رائحته ملتصقة بالعرق.

بعد العشاء بقليل أتى «حَمَد» أخيرًا، رأى أباه واطمأن على حاله، ثم طلب من «عين» أن تتجهز للمغادرة، لم ترد له أمرًا، لكنها لم تنظر إلى وجهه ولم تُخاطبه بكلمة. وعندما حملتْ «بدر» بين ذراعيها، أمرتها «أم ذيل» أن تتركها للنساء يعتنين بها.

رأت «عين» في عيني «حَمَد» كسرة، بينما يرمق «بدر» ويقبلها ويشتمّها.

استدر هذا المشهد عطفها، لم ترَ من قبل رجلًا يُقبِل على صغيرته بالحب الذي يُقبل به «حَمَد» على «بدر»، يُمسكها كبلور يخشى كسره، يرمقها بحنان يطغي على كل ما حوله، حتى لكأن الشمس تُشرق من وجهه كلما نظر إليها.

فحملتْ «بدر» بين ذراعيها وأصرت على الرحيل بها، وبينما تُطرق أرضًا في أثناء سيرها، لم تلمح نظرة شكر عميقة في عيني «حَمَد».

كانت لا تزال غاضبة من إهماله لها وإحراجها أمام الجميع، فلم تنتبه إلى الطريق الذي يسيران فيه.

وعندما وصلا إلى بيت لا تعرفه سألته بدهشة وهي تنظر حولها:

- بيت من هذا؟

فتح الباب ولم يُجبها، وعندما دخلته وأشعل الأضواء رأتْ فرشًا جديدًا وكأن أحدًا لم يمسه قبلًا، التفتت صوبه متسائلة، بينما الصغيرة تزوم بفمها وكأنها تتعجب هي الأخرى. قال «حَمَد»:

- هذا بيتكِ يا «عين».. هل ظننتِ أنني سأبقيكِ في بيتٍ مُمتلئ بأغراض امرأة أخرى؟

هبّتْ نسمة ليلية مُنعشة حرّكتْ آوراق شجرة على باب البيت فسمعت حفيفها. أردف:

- فكرتُ بتغيير الأغراض فحسب.. ثم رأيتُ أن من الأفضل تغيير البيت كله.

نظر حوله قائلًا بحرجٍ:

- إن مساحته أصغر.. إذا أزعجكِ ذلك فسأغيره مستقبلًا.

الحديث عن البيت وأغراضه، والمستقبل وخططه، المكان الجديد وفعله العجيب كل ذلك حرك في داخلها بواعث خفية للبكاء.

ليست حزينة، فلماذا يصر دمع عينها على الظهور؟

قالت بخفوت:

- هل هذا ما شغلكَ النهار كله؟

أومأ برأسه فازدادتْ خجلًا على خجل، في الوقت الذي ظنّته يهينها ويهملها كان هو يجهز بيتًا من أجلها.

قالت باضطراب:

- لا تهتم.. لم يكن هناك داعٍ لذلك.

أجابها مُستهجنًا:

- أنتِ دمي يا «عين».. كيف لا أهتم؟

ما قاله كان جميلًا جدًّا، استشعرت حلاوته، بينما ينظر إلى «بدر» الساكنة بين ذراعيها ويقول بشكر:

- لا تعرفين كم يعني لي بقاء «بدر» هنا.. أعرف أن الجميع يهتم بها لكنني أكره مفارقتها.

ثم قال إحساس بالذنب يؤرقه:

- أعلم أنها حملٌ مزعجٌ لكِ.

بادرته بقوة وإخلاص:

- إنها طفلة لطيفة جدًّا.. حتى حين تبكي تثير شفقتي لا غيظي.. كيف يكون هذا الشيء الصغير الجميل مزعجًا؟

نظر لها بتقدير وقال بأسى:

- أتيتكِ بحِملي.. اعذريني.

وخز الدمع عينيها، قالت بخفوت:

- أنا أيضًا أتيتكَ بحِملي.

نفى بحزم:

- لستِ حملًا على الإطلاق.

ازدادتْ عبراتها تدفقًا وكأنها تتسابق:

- كنتَ شهمًا معي.. لا تزعجني بالكلام الآن كيلا أحزن.. لكنني أعرف

آنني حِملٌ فوق ظهركَ.

هزّ رأسه قائلًا:

- لا أقول لكِ ذلك كيلا تحزني.. لستِ حِملًا فوق ظهري.. صحيح لم أفكر يومًا أنني قد أتزوجكِ.. لأنني كبرتُ بفكرة تعرفينها ويعرفها أهل القبيلة.. ما كان بإمكاني التفكير فيكِ قط.

ثم أردف بصدق وهو يرفع يديه أمام وجهه:

- أنا رجل بسيط جدًّا.. ربما تتعجبين لذلك لكنني أعتبر كل ما يجلبه الله إلى يديّ رزقًا.. وأظل أسأل نفسي.. لماذا رزقني الله بهذا؟ ثم أخلص إلى نتيجة مهمة.. وهي أن في هذا الرزق خيرًا حتى وإن لم أره في لحظتها.. مثلكِ تمامًا.. أنتِ رزق.. وضعه الله بين يديّ.. لماذا رزقني.. وأي خير سيحتوي.. كل هذا أتطلع كثيرًا لاكتشافه.

تهادتْ نظراته فوق وجه الصغيرة وقال بحنان:

- ربما أرسلكِ لأجل «بدر» وليس لأجلي.. وربما أرسلكِ لأجل كلينا.

ثم أردف باسمًا:

- وربما أرسلكِ لأجل ثلاثتنا.

- ثلاثتنا؟

اتسعت ابتسامته وهو يقول:

- «بدر».. و«حَمَد».. و«عين».. ربما تحتاجين إلينا مثلما نحتاج إليكِ.

ملأتها دهشة كبيرة، وحيرة وفرحة، غبطة وقلق، مزج متناقض عجيب، دفعها لتسأله:

- كيف تأخذ الأمور ببساطة؟ حلّ فوق رأس كل منا بلاء يكرهه.. كيف تعافيتُ بهذه السرعة؟

أطلق ضحكة حلوة رطّب على قلبها، قال:

- لا أعرف.. هذه ميزة وعيب.. كانت «أم ذيل» تقول لي إنني في صغري كنت أجلس فأبكي فلا يطول بكائي دقائق ثم أنهض وأضحك وأمرح.

ثم أشار إلى رأسه قائلًا بمرح:

- جهاز الحزن لدي لا يعمل بكفاءة.

استجلب بلطافته بسمة أضاءتْ ثغرها، عاد وجهه جادًا وهو يقول بألمٍ بادٍ على مُحيَّاه:

- لم أتعافَ كما تظنين.. أنا أحاول ذلك فحسب.. لا يسعني أن أقف مكتوف اليدين وأترك حياتي تفلتْ من بين يدي.. كما يقولون «لا فائدة من البكاء على اللبن المسكوب».

ثم تساءل مُتطلعًا بفضول لجوابها:

- وأنتِ يا «عين».. هل ستقفين مكتوفة اليدين.. مُسلسلة إلى ما كان

وما كان يجب آن يكون؟ آم ستستكشفين معي لماذا رزق الله آحدنا بالآخر؟

فتحت فمها لتنطق فرفع يده يُسكتها قائلًا:

- مهما كان جوابكِ أريدك أن تعرفي ذلك.. أنتِ دمي يا «عين» قبل أن تكوني زوجتي.. وهذا لا يمكن لأي شيء أن يُغيّره.

تساقط ماء العين فوق وجهها، فعلمت سبب بكائها، إنها رقة أصابت قلبها، وشعور بالألفة أرسى خلال سويعات اللبنات الأولى لجسر يصل بينهما، غمرها الشعور بأن ثمة من بإمكانها أن تحترمه وتثق به، أليست أولى لبنات الحب هي الاحترام والثقة؟

ليست فتاة تسعى لحُب عنتري، أو قَيسي، أو رُوميَوي! كل ما تريده بيت دافئ، ورجل تأنس به، يرحم ضعفها، ويستوعب قصورها، لا يقارنها بغيرها من النساء، ولا يُشعرها أنها لا تكفي، لأنها لا تعرف كيف تتسابق مع النساء لتفوز بقلب رجل، كل ما تريده رجل تتكئ بقلبها على قلبه.

كان لا يزال «حَمَد» ينظر إليها مُنتظرًا جوابها، منحته بسمة رائقة أضاءت عينيها.. تحمل شيئًا من الخوف والتردد والحيرة، سيكون الزمن كفيلًا بتبديدها.

الأقدار تغير في لحظة، والحال يتبدل في غمضة عين، والقلوب تسكن أصابع الرحمن يُقلّبها كيف يشاء أما سُمِّي القلبُ قلبًا إلا لكثرة تقلّبهُ؟!

في صبيحة اليوم التالي رأى «حَمَد» فستانًا زهريًا ترتديه «بدر» وقد بدتْ فيه كزهرة فواحة، وعندما سأل «عين» من أين أتت بهذا الفستان، أخبرته على استحياء أنها صنعته بيديها.

كانت قد أمضت ليلتها بجوار «بدر» في الغرفة الجديدة، بينما كان هو منشغلًا باستكمال الأعمال الناقصة في البيت حتى حلَّ الصباح.

انبهر «حَمَد» لمهارتها في صناعة الفستان، وكانت المرة الأولى التي تحصد فيها مشغولاتها اليدوية كلمات ثناء سخية.

ومثل الطفل الذي يُريد أن يُثبِت لأبيه أن بإمكانه أن يكون ماهرًا، جلست تحوك طاقية صوفية، تمزج فيها الألوان وتتفنن في اختيار الغُرَز، وعندما انتهتْ من صنعها قدّمتها له ذات عشية، كانت هديتها الأولى إليه.

لطالما أهدت كل من حولها، وكانت تتلقى كلمة شكر أو حتى إيماءة استحسان، لكنه باغتها بردة فِعله، إذ أمسك بها وكأنها تُحفة أثرية، يشيد بذوقها ودقتها وحرفتها، ويشير عليها بصناعة المزيد، كي تعرضه إحدى فتيات القبيلة في معرض للمشغولات بالعريش، فالسياح يُحبون المشغولات السيناوية.

أبهرتها الفكرة، وأسقطت على قلبها أمطار الفرح، شيء ما تبرع فيه، ويستجلب الثناء والنفع. لم تعد تملك وقتًا شاغرًا تتجرع فيه كؤوس الحزن،

كان وقتها مقسمًا ما بين العناية بالبيت ورعاية «بدر»، ومشغولاتها التي صارت تتفنن فيها وتستمتع بكل نظرة إعجاب أو كلمة مدح يهديها إليها «حَمَد».

عرفت أن للدمع أسبابًا أخرى غير الحزن، تشعر بها كلما أثنى على طعامها أمامها، أو أشاد به عند «أم ذيل» في غيبتها، رغم أنه الطعام نفسه الذي كانت تصنعه لأهلها دون كلمة ثناء واحدة. وحين يمتدح رعايتها لـ«بدر»، واهتمامها بغذائها ونظافتها كانت تشعر أنها قيِّمة وذات نفع.

وفي ليلة اشتد على «بدر» آلام بطنها، احتضنتها «عين» بحنان تبكي لبكائها وتبذل الجهد للتخفيف عنها، فوجئتْ بقبلة حانية تتوسط جبينها، جفلتْ وتملكها الخجل، اكتشفتْ في نفسها أن ذلك أسعدها.

وحين ذكرتْ في معرض حديثها أنها تتمنى لو كانت تعرف كيف تقرأ وتكتب، وأنها لطالما أحبتْ ذلك لكنّ أباها لم يسمح بذهابها إلى المدرسة؛ أجلسها «حَمَد» بين يديه ومنحها قلمًا وورقة، يُعلمها الأبجدية حرفًا حرفًا. تشفق عليه لبطء تعلمها وتقول له:

- ليس مهمًا.

يجيبها:

- ما دمتِ تحبينه إذن فهو مهم.

تشعر بفراشة كبيرة ترفرف بجناحيها داخل صدرها، وترسل دفقات من البهجة في نفسها. لعلها ليست الأجمل أو الأذكى أو الأقوى أو الأمهر، لكن الله حين يرزق فإنه يرزق برحمته لا بعدله.

إنها فتاة لا حول لها ولا قوة، ولعل الله اطّلع على قلبها، ورزقها بما يليق به.

أدمن «حَمَد» مراقبة أناملها وقت انشغالها بالحياكة أو التطريز، أحسَّ في لمساتها رقة وكأنها تُمرر قلبها على الخيوط لا أناملها.

تتحسس كل شيء بحب، وتنفخ فيه من روحها، فيصير مبهجًا وحيويًّا.وكأنها لا تصنع الطعام وتحوك الخيوط، بل تطبخ الشوق وتغزل اللهفة!

يُراقب أناملها حين ترص الأطباق فوق الطاولة، وحين تمسح فوق وجه «بدر» بحنان، حتى حين تنظف البيت كان الحب والاهتمام ينساب على كل شيء حولها، تتحسس كل غرض حولها، وكأنها تتعرف إليه، كي تألفه ويألفها.

وعندما مرّر يده على شيء لمسته وجده دافئًا، وكأنه يتنفس. وفي غارة لهفة مُباغِتة، قبض على أناملها، ونصبَ في أرضها راية شوق!

وذات يوم خرجت «عين» حاملة «بدر» على ذراعيها، تشتري قماشًا كي تُفصّل لها ملابس جديدة، إذ أخذت الصغيرة في النمو شيئًا فشيئًا، وكبر مقاسها.

ابتاعتْ آغراضها وقد آذّن للعصر وانتهت الصلاة، فكرت في المرور على الديوان، إذ اعتاد النساء ملاقاة «حَمَد» بجوار الديوان كل يوم بعد صلاة العصر لعرض مسألتهن، ليقضي لهن حاجاتهن.

وقفتْ من بعيد تنتظر قدومه، رأت امرأتين شبّهتْ على واحدة منهما، رغم أنها كانت تخفي وجهها بالبرقع فإنها عرفتها، إنها «عِيدة»!

ماذا أرادت بعد أشهر من الغياب؟ ولماذا تقف في المكان الذي تعلم أن «حَمَد» سيمر عليه؟ ماذا تريد منه؟

عندما أبصرته «عين» قادمًا صوب الديوان، التفتتْ بسرعة مغادرة، لم تتحمل المشاهدة. عادتْ إلى البيت ولم تدرِ بما حدث، إذ لم يتعرّفها «حَمَد»، كانت أنظاره تطوف على كل شيء إلا فوق جسد المرأة التي أمامه، عندها قالت له:

- أنسيتني يا «حَمَد»؟ أنا «عِيدة».

تجمد في وقفته للحظة، مرت أشهر طويلة، حتى لكأنها سنوات، حياة انتهت، وأخرى بدأت. سكت منتظرًا منها أن تُفصح عن مطلبها. قالتْ تستعطفه:

- أنا ندمتُ يا «حَمَد».. أشعر أنني غريبة في بيت أخي.. لم يعد بيتي.. أريد العودة إلى بيتي يا «حَمَد».

هزّ كتفيه قائلًا ببساطة كانت كالخنجر في صدرها:

- لم يعد لكِ بيتٌ هنا يا «عِيدة».

لم تقبل بجوابه، قالت بحماس:

- أعلم أنكَ غاضب مني.. لكنكَ طيب القلب.. تنسى الإساءة سريعًا.. ستغفر لي.. أثق في ذلك.

بهدوء أجابها:

- صحيح.. أنسى الإساءة سريعًا.. وأغفر بسهولة.. لذلكِ.. نسيتُكِ وغفرتُ لكِ.

وقفت عند «نسيتكِ» مغاضبة. اندفعتْ تقول:

- أقول لكَ إنني ندمتَ وأريد العودة إلى بيتي.. وإلى ابنتي.. أم «بدر» ليست «عين».. إنها أنا.. أنا أمها.

عند هذه النقطة اختفى الهدوء من صوت «حَمَد»، وأخذ الحزم بزمام كلماته:

- ابنتكِ التي تخليتِ عنها ولم تنظري خلفكِ.. في الليلة نفسها ضمتها «عين» إلى قلبها.. أطعمتها وأسكتتها ومسحت عنها مرارة الفقد.. تقولين أنكِ أم «بدر».. لكن الأم لا تدير ظهرها لطفلتها.. حتى الحيوانات لا تفعل ذلك يا «عِيدة».

ثارت ثائرتها، عادت نبرتها القديمة، وغلظتها التي عهدها:

- أريد ابنتي يا «حَمَد».. لن أسمح أن تربيها امرأة غيري.

عقد حاجبيه وقال بحزم دون أن يسمح لكلماتها أن تستجلب غضبته:

- أبناء «السوارفة» لا يُربون خارج أرضهم.

صرختْ به تستمسك بآخر خيوط الأمل:

- أنا أمها.

- خسرتِ هذا الحق في اللحظة التي أدرتِ لها ظهركِ.

قالها وابتعد عنها، خبأتْ وجهها في كفّيها وانفجرتْ باكية، لم تعد أرض تسعها، لكي ترى «حَمَد» اليوم كان عليها الهرب من بيت «جبار»، إذ حبسها منذ اللحظة التي طلقها فيها «حَمَد» وحذّرها قائلًا: أنتِ الآن امرأة مطلقة، لن يتبدّى لكِ طرف خارج جدران هذا البيت.

البيت الذي استماتت للعودة إليه وضحت بكل شيء في سبيله أصبح زنزانتها! وليتها زنزانة فردية، إذ تُشاركها فيها زوجتا «جبار» وأولاده، وبدلًا من إطعام «بدر» ورعايتها أصبحت تشارك قسرًا في رعاية أبناء أخيها.

وحين عضها الندم فكرت في أن «حَمَد» لا يزال يحمل في قلبه شيئًا من ذكراها، ستدفعه لإرجاعها إلى عصمته. أدركتْ الآن أنها أخطأت حين راهنت على عفو «حَمَد» وصفحه الذي لا حد له، أدركت أنها سحبت كل رصيدها من قلبه، حتى لم يبقَ لها فيه سوى صفر كبير.

كانت تنظر إلى عينيه طوال حديثه، لم ترَ فيهما «حَمَد» القديم الذي اعتاد أن ينظر إليها بحنان، رأت فيهما امرأة غيرها، رأت «عين».

فوجئتْ به يعود ويقول لها:

- لا أريد أن أكون رجلًا ظالمًا.. تستطيعين المجيء في أي وقت لرؤية «بدر».. هنا في أرضها وأرض أبيها وأجدادها.. مهما فعلتِ ستظلين أمها.. لن أسلبكِ هذا الحق.

ثم رفع إصبعه مُحذرًا بصرامة بالغة:

- لكن إذا حاولتِ في أي يوم من الأيام أن تُفسدي على ابنتي قلبها وعقلها.. أو تُقسِّيها على أمها «عين».. عندها لن تريها ثانية أبدًا.

شقّ عليها ما سمعت، انشغل بالحديث إلى عجوز يقضي لها حاجتها، فانسلتْ وتوجهتْ من فورها إلى بيت المرأة التي خطفتْ منها زوجها!

فوجئتْ «عين» بها أمام الباب، لم تدع لها «عِيدة» فرصة لتمالك دهشتها، دفعتْ كتفها واقتحمت البيت.

رفعتْ برقعها وطفقتْ أنظارها تُقلّب البيت وأغراضه، مشغولات «عين» تملأ الزوايا والجدران بالألوان، أشعة الشمس المتسربة من النافذة تُضيء عتمة البيت ببهجة غابت عن بيتها القديم، فامتلأ قلبها حسدًا.

أشارت لما حولها باستخفاف وقالت:

- هذا إذن هو البيت الذي اشتراه لكِ زوجي.. لم آندهش قط.. اختار لكِ بيتًا صغيرًا ووضيعًا مثلك.

عضّتْ «عين» شفتيها؛ تمنع عبرات مالحة من القفز عبر أسوار عينيها. تخشى «عِيدة» والحديث معها.

التفتتْ إليها «عِيدة» تهتف بازدراء كبير:

- كنتُ أظنكِ صديقتي.. والحال أنكِ حية خبيثة التفتِّ بدناءة حول زوجي وخطفته مني.. أخطأتُ عندما فتحتُ لك بيتي.

امتلأتْ «عين» بالإهانة، الكلمات قاسية ترميها بجريمة مُنكرة هي منها براء، عجزتْ عن النطق بكلمة واحدة.

دفعتها «عِيدة» من كتفها وقالت:

- اخرجي من حياتنا بالسرعة التي دخلتِ بها.. اتركي أسرتي وشأنها.. «حَمَد» يريد إعادتي إلى عصمته وأنتِ كما أنتِ دومًا عائقًا أمام سعادة الآخرين.. «بحر» لم يرغب بكِ قط.. وكذلك «حَمَد».. لا أحد يريدك هنا أليس لديكِ كرامة أبدًا؟

امتلأت عيناها بغمامة غزيرة أوشكت على السقوط فسخرت «عِيدة» قائلة بعنف:

- لم أعد أصدق دموع التماسيح هذه.. خدعتِني مرة ولن أنخدع الثانية.. ابتعدي عن زوجي.

علا بكاء الصغيرة فانتفضت «عين» تدنو من الأريكة وتهم بحملها. سبقتها «عِيدة» وحملت «بدر» بينما تصيح مُعنّفة:

- لا تلمسي ابنتي.

بكاء الصغيرة تعالى واشتد، وكلما بذلتْ «عِيدة» جهدًا في هدهدتها انخرطت الصغيرة في بكاء أشد. انتزعتها «عين» من بين ذراعيها، وبضمة واحدة إلى صدرها، وما إن اشتمّتْ رائحتها حتى هدأت وسكنتْ.

شُقَّ قلب «عِيدة» نصفين، هالها أن تجهلها ابنتها وتسكن فوق صدر امرأة غيرها، تزلزلتْ قوتها، وتهدّم جبروتها.

استمدتْ «عين» القوة مما حدث. فرفعت رأسها تقول:

- ليس زوجكِ.

نظرتْ لها «عِيدة» بدهشة. فاستطردتْ تنطق كل كلمة بحزم ورَوية:

- «حَمَد» ليس زوجك.

وقبل أن تفتح «عِيدة» فمها للكلام، أردفتْ «عين»:

- لم أخدعكِ قط.. ما حدث لم يكن مخططًا له قط أنتِ تعرفين ذلك جيدًا.. لذلك كفي عن إفساد حياتي وتشتيت بيتي لأنني لن أسمح لكِ.

عاد الانفعال يسكن قسماتها وهي تهتف بعصبية ساخرة:

- انظروا إلى هذا.. القطة الوديعة أظهرتْ أظافرها!

دَنَتْ منها «عين» دون آن تخشاها هذه المرة. قالت:

- ليس أظافري فحسب.. سأظهر أسناني أيضًا إن اقتربتِ من بيتي مرة أخرى.. إن أخبرتُ «حَمَد» بما حدث لن يسمح لكِ برؤية «بدر» طوال عمركِ.. لن أخبره.. وأنتِ لن تأتي إلى بيتي ثانية.

أخطأتْ «عِيدة» عندما ظنت وهي قادمة إلى هنا أنها ستجد أمامها «عين» القديمة التي تعجز عن الدفاع عن حقوقها. كيف تغيرت من بضعة أشهر قضتها إلى جوار «حَمَد»؟ كيف بدّلها بهذه السرعة؟

أما أنه لم يفعل سوى أن منحها المساحة الكافية لتنمو وتزهر ويفوح عبيرها في الأركان؟

لما رأتْ الانهزام على وجه «عِيدة» رقَّ قلبها لحالها. قالت وهي تنظر إلى «بدر» بإشفاقٍ:

- فكري فيها.. أنتِ لا ترغبين لها في أن تكبر فتجد نزاعًا ضاريًا بين أبويها.. أنتِ من أنجبها يا «عِيدة» وستظلين أمها.. «وحمد» أعدَل من أن يمنع عنكِ حقكِ فيها.. تعرفين هذا جيدًا.. لذلك أرجوكِ لا تُفسدي آخر ما تبقّى لكِ.

أطرقتْ «عِيدة» برأسها تُغادر البيت، تُغالب آهة قهر تتصاعد في صدرها.

أدركتْ أنها لم يبقَ لها من الحياة إلا الفتات، فقبلتْ بها مُرغمة.

عندما عاد «حمد» إلى بيته لاحظ أن «عين» ساهمة، تضحك على نكاته مجاملة، وحين أخبرها عن لقائه بـ «عِيدة» وقص عليها ما دار بينهما، فاجأته:

- رأيتكما معًا.

- ولماذا لم تخبريني بذلك؟

- لا أعرف.

رأى الخوف يتملك منها، ما زالتْ «عين» لا تدرك أنها دون عمد منها أرته الفارق بينها وبين سواها، وأنها خاضت سباقًا في صدره لا تعلم عنه شيئًا، خرجت منه فائزة.

لم تعلم بعدُ أنه لا يستطيع العودة إلى «عِيدة» لأنه يعلم الآن أن الله رزقه بخير منها. كانت فرصة «عِيدة» كبيرة حين كانت امرأته الوحيدة التي لم يعرف غيرها، أما الآن فقد عرف وخبَر.

راهنت «عِيدة» على حب «حَمَد» لها، وأنه سيغفر متى أرادتْ العودة، هكذا تتسرب النعم من بين أيدينا حين نُراهن على أنها باقية لنا إلى الأبد. لم تحسَب أن أبواب صدره لن تظل موصدة على ذكراها، وأن ثمة امرأة غيرها ستتملك من هذا القلب، وتُشرِبه بها.

ولأنها لا تعرف، انفجرت تقول:

- لا أريدكَ أن تتحدث إليها يا «حَمَد».

شعرت بخطر من تجبره الحياة على الدخول في منافسة يحسب أنه سيخرج منها خاسرًا، ورغم أنه فهمها إلا أنه اصطنع الدهشة قائلًا:

- لماذا يا «عين»؟ يعني إن أرادتْ أن تتحدث معي مرة أخرى...

قاطعته بانفعال متخبِّط:

- ولماذا تتحدث إليك؟ كلما أرادت رؤية «بدر» أقابلها وأريها إياها.. حتى بإمكانها أن تراها عند زوجة عمي.. سآخذها إليها بنفسي.

- لكن يا «عين» ربما تريد أن تتحدث معي بشكل خاص و...

فلما رأى شفتيها تهتزان وقد اغرورقت عيناها بالعبرات سارع بقول:

- أمزح يا «عين».

تغار، نعم تغار، اعترفتْ بها لنفسها دون خجل، لا تعرف متى وكيف اقتربتْ من «حَمَد» حد الغيرة من زوجته السابقة، كل ما تعرفه أن ما كانت تظنه حبًّا قبل الزواج لم يكن أكثر من مجرد فكرة زُرِعَتْ في رأسها، تعوّدتْ عليها وألِفتها.

علّمها الزواج كيف يكون الحب، الألفة، والشغف، واللهفة. ما تعيشه الآن حقيقي جدًّا، مغرق في الواقعية، حتى بدا كل ما سبقه مجرد ظل بلا ملامح.

أمسك بكفها، يضعها فوق عينيه قائلًا بصوت متهدج:

- أسدلتِ ستاركِ على عيني، فكيف بربكِ أرى سواكِ؟

برهة وأبعد كفها، ليرى بسمة مشرقة تلوح من ثغرها، تهديه نورًا ساطعًا، تلقفها بفرحة طاغية.

رنّ هاتف «حَمَد»، جاءه صوت «بحر» على الطرف الآخر يقول:

- «حَمَد».. أحتاج مساعدتكَ.

لم يصدق «جبار» حديث «أكمل» في بادئ الأمر، كان قد جهز «أكمل» صورة فوتوغرافية، أظهرها في وجه «جبار» قائلًا:

- هذا هو الرجل الذي ظننته ميتًا، أليس كذلك؟

أمسك «جبار» الصورة، ضغط عليها بقوة حتى انسحقتْ بين أصابعه، بينما عيناه تمران فوق تقاسيم وجه «بحر» والجرح الغائر في وجهه. قال بحقد دفين:

- لم يمت!

ثم رفع رأسه، وقد احتشد كل غضبه القديم هامسًا كفحيح أفعى:

- لن يفلتَ «بحر» من يدي هذه المرة.

---

(٣)

على بُعد ثلاثة كيلومترات من ساحل البحر، وفي أعلى نقطة من المدينة، وقف «بحر» يُمرر أنظاره فوق الآثار المتبقية من «قلعة العريش».

لم تكن القلعة سوى بقايا من زمن سحيق، لا تعطي ظلًا صحيحًا للصورة التي كانت عليها القلعة في الماضي. وهكذا يشعر في داخله، إنسان تغير حتى لم يعد يشبه ذاك الشخص الذي كان عليه في الماضي، لا تتبقى منه سوى آثار وبقايا مثل التي تبقّتْ من القلعة.

سمع صوت أقدام تقترب، التفت ينظر مليًّا في وجه «حَمَد»، قبل أن يتلاحما في عناق قوي. هنا حيث اعتادا التلاقي كل بضعة أشهر، بمعزل عن الأعين، يتعانقان كما لو أنهما يُعوضان غياب أشهر طويلة مضنية، يتشمم كل منهما رداء أخيه، يُطعم الأفواه الشرهة للحنين، ويتحسس وجهه بعينيه. يهمس لأخيه:

- أوحشتني كثيرًا يا «حَمَد».

فيُغالب «حَمَد» عبرة حارقة ويقول:

- وأنتَ أوحشتني كثيرًا يا «بحر».

يُسارِع بالسؤال عن كل من فقد، ثم يختم بالسؤال عن الشيخ على استحياء، وهو يُطرق برأسه في أسى، فيقول «حَمَد»:

- بخير.. كما هو.

فينتقل إلى السؤال عن «أم ذيل»، يبادره «حَمَد»:

- تطلب منكَ صورة جديدة.. الصورة الماضية تفتتْ بين أناملها من كثرة بثّتها من شوق.

يُخرج صورة كان قد جهزها من أجلها، يتأملها «حَمَد» وعلى شفتيه بسمة خافتة ويقول:

- كالعادة.. لا يظهر منها إلا جانب وجهك.

يضع كفه فوق الجرح الطويل ويقول بأسى:

- أريدها أن تتذكر وجهي كما كان سابقًا.

تتحدث العيون، تتحاور في حديث صامت طويل، تتخلله بضع حكايات من ذكريات الماضي. هكذا يكون اللقاء في كل مرة يتلاقيان بعد أشهر من الغياب. هذه المرة اتسمتْ قسماته بالجدية وهو يقول:

- أحتاج معاونتكَ يا «حَمَد» للحصول على لقطات لكاميرات مراقبة على الطريق في ليلة بعينها.

اتسمتْ قسمات «حَمَد» بجدية مماثلة، وسأله بقلق:

- هل أنتَ في ورطة يا «بحر»؟

أطرق «بحر» يقول بأسى:

- شخص يهمني أمره في ورطة.

- ومَن يكون؟

اضطربتْ قسمات «بحر»، هربت عيناه من وجه أخيه، فهتف «حَمَد»:

- فتاة! في ماذا ورّطتْ نفسكَ ثانية يا «بحر»؟

أجابه بحزم:

- لا تضع أخطاء الماضي نصب عينيكِ يا «حَمَد».. أنا لم أعد الشخص المتهور الذي كنته سابقًا.. إنها بالفعل تحتاج إلى المساعدة.. الأمر خطير حقًّا.

جلس «حَمَد» فوق أنقاض القلعة، وطلب من أخيه:

- حسنًا سأساعدكَ.. لكن عليكَ أولًا أن تقص عليّ كل شيء.

لا فرق بين داخل الدولاب أم خارجه، تحت الفراش أم فوقه، يلف الظلام شكله حولها، مثل صياد ماهر.

وهي الفريسة التي وقعت بين براثنه، نقمت على «شفق»، كيف لم تأت لإنقاذها؟ طرقات على الباب جعلتها تجفل، ثم تُقبل عليه بشوق تفتحه. تبددتْ لهفتها لحظة أن وقعت أنظارها على «منصور النمر».

تمتمت:

- أبي.

دفعها ثم أضاء النور وأغلق الباب. كانت هشة جدًّا، شفافة جدًّا، تحتاج إلى الاحتواء، هل جاء لإنقاذها مثلما يحدث في الحكايات السحرية؟ يأتي الفارس الشجاع لينقذ الأميرة في اللحظة الأخيرة. ما أجمل أن يكون هذا الفارس هو أباها. ارتمتْ بين ذراعيه تهمس:

- أبي.

دفعها عنه بغلظة، وأفسد السحر قائلًا:

- أنتِ أسوأ ابنة قد ينجبها إنسان.. أنتِ الفتاة التي ستكون نهاية أبيها.

استفاقتْ من سكرَة السحر، واستعادتْ «دهب» التي بداخلها القوة على العناد والمكابرة. ابتعدتْ خطوة إلى الوراء، رفعتْ حاجبًا ثم قالت:

- يجب أن تُهنئ نفسكَ.. لكَ الفضل في إنشاء مثل هذه الفتاة.

نزل على وجهها بصفعة مدوية، سار صداها في أركان الغرفة، وحتى الممر الذي يصل غرف الطابق ببعضها، جمع فيها كل غضبه وحقده وخوفه وخسارته.

مسّتْ جرحًا في طرف شفتها، ثم أرجعت شعرها القصير خلف أذنها وقالت:

- عظيم.. الآن انتقل الباشمهندس «منصور النمر» إلى مستوى أعلى من اللعبة.. أهنئكَ.

- كان يجب آن آصفعكِ من اللحظة التي علمتُ فيها آنكِ السبب في سقوط الأبنية.. عندما تبجّحتِ في وجهي وساومتني أنا «منصور النمر» الذي لم يستطع أي مخلوق حتى اللحظة أن يلوي ذراعي أو يعصي لي أمرًا.

- مؤسف جدًّا.. لكن هناك دائمًا مرة أولى لكل شيء.

أفقده برودها أعصابه، صاح حتى وصل صوته إلى الممر:

- ماذا أفعل بكِ الآن؟ كيف أخرجكِ من هذه الورطة؟

مسحت فوق شعرها وقالت بلا مبالاة:

- واثقة أن «منصور النمر» رجل الأعمال العظيم يستطيع أن يخرجني من هذه الورطة كما أخرج نفسه عشرات المرات من قبل.

- ليست كأي ورطة.. ألم تفهمي بعد؟ أختكِ مقبوض عليها بدلًا منكِ.

في تلك اللحظة نطقت أمارات وجهها بالغضب وقالت بإصرار:

- ستُخرجها من هذه القضية.. صحيح أنها بأمان داخل الحجز.. لكن عليكَ إخراجها آجلًا أو عاجلًا.

صرخ بها:

- أي حجز؟ إنها بالمستشفى!

ارتجف قلبها في قلق، قالت باضطراب أصاب كل خلجة من خلجاتها:

- ماذا حدث لها.. لماذا هي بالمستشفى؟

استمتع «منصور» برؤية الانزعاج على وجهها بارد الملامح قائلًا:

- لم تتحمل ما حدث.. انهارتْ يا «دهب».

عضّتْ شفتيها ألمًا، واكتسى وجهها بصنوف الأسى. في تلك اللحظة سمع طرقات على باب الغرفة، وعندما فتح «منصور» الباب فوجئ بـ «ثريا» أمام وجهه، تنقل بصرها بين كليهما وهي تقول بازدراء:

- أي لعبة قذرة لعبتماها أنتما الاثنان؟ أريد أن أعرف الآن كل شيء.

ثم دنتْ من «دهب» تقول باستهجان كبير:

- بماذا هددتِ أباكِ يا «دهب»؟

نظر لها «منصور» مُحذّرًا، لكن أثر الصفعة الثقيل على وجهها دفعها لأن تبوح لأمها بكل شيء!

من أين عليها أن تبدأ؟ أمن ذكريات الماضي السحيق، حيث الإهمال والجفاء وبرودة البيت القاتلة؟ أم من اتهامات أبيها الدائمة لها بأنها فتاة فاشلة، متمردة، ولا تصلح في شيء؟ أم من محاولات دكتورة «ثريا» لأن تتخذ منها واجهة اجتماعية مثالية، تُدلل بها على زواجها السعيد وأسرتها الهانئة.

ولكي تظل ابنتها المحبوبة التي تصطحبها في كل مكان كان عليها آن تكون مطيعة دائمًا، وإلا لن تحبها أمها. كرهت هذا الحب المشروط، لأنها لم تستطع أن تكون دائمًا فتاة مطيعة ساكنة.

رأت أنها لا تكفي، مهما فعلت لا تكفي لتنال حب أمها، أم لعلها تتحدث عن الفارق في التعامل بينها وأختها، والذي جعلها تكره المرض، وتحمد الله أن من ترقد في الفراش ليست هي، بل أختها!

كم شعرتْ بالذنب لهذا التفكير، تحب أختها، لكن كلما رأت معاملة والدتها لها أصابتها بهجة داخلية لأنها ليست الطفلة المريضة المنبوذة في الزاوية.

وعندما كبرتا، ما عاد المرض يُحدث فارقًا في التعامل معهما، لكن العقل والرزانة والحكمة تفعل. أصبحت «شفق» الابنة الذهبية لأبيها، وانكمشتْ «دهب» في الزاوية، خفَتَ بريقها حتى في عين أمها، لتمردها وتقلُّب حالها.

لم تحظَ بالحب غير المشروط، لذلك لم يكن لديها قط ما تخسره. ولأنها كانت تعيش في ضنك داخلي، أرادت أن تنتقم من أبويها وتسحبهما ليعيشا معها في ظلام مميت.

أخبرتْ أمها بما فعلته لتُفرق بين «شفق» وخطيبها الأول، تتحداها إن كانت تجرؤ على إخبارها. لعبة مدمرة للأعصاب قررت أن تكون طرفها، وأبويها هما الطرف الآخر.

وحين اكتشفت أن قدم أبيها قد زلّتْ، ووضع يده على ما يملك غيره! أبوها الذي كان يتهمها دومًا بأنها ابنة فاسدة، كان كيلها قد طفح، وقررتْ أن تنتقل باللعبة إلى مرحلة تالية، المباني التي بناها على أرض سرقها من الغير بوضع اليد!

ستقلب عاليها سافلها، ستذبحه من أكثر عرق نابض بالدماء، عرق المال ودنيا الأعمال. أعطتْ لكل العمال إجازة في هذا اليوم، وذهبت إلى الموقع وحدها، تزرع النار والدمار في أساس البنيان، لم تكن تزرعها في الصحراء، بل في حياة أبيها، تُخرّب وتُفسد وتنتقم.

ارتدتْ الأسود وحجابًا مثل «شفق»، أرادتْ أن تجرها ولو بتنكر خارجي لتشاركها لعبتها الممتعة. ما كانت «شفق» لتقبل بأن تشاركها إياها، لكنها أرادتها أن تكون حاضرة، مثلما كانا يتشاركان كل ألعاب الطفولة الممتعة.

وطفقت طوال الوقت تتحدث إلى نفسها، وتجيب عليها، وكأنها معها، تتبع أفعالها. وعندما رأت «طاهر» قد أوقفها ليسألها عن فرصة عمل بالشركة، اضطربتْ، وتركته يعتقد أنها «شفق»، وأمرته بالمغادرة، وأن يأتي للشركة ليتسلم العمل، ثم رحلت مُسرعة.

لم تعرف وقتها أن المهندس «منعم» انزعج لإعطاء العمال يومًا كإجازة بينما العمل على أشده، فهاتفها، ولما لم تُجِب هاتَف «منصور» الذي أمره بإلغاء إجازة العمال واستدعائهم إلى موقع العمل.

لم تعرف «دهب» وهي جالسة في غرفتها بالفندق داخل الدولاب تحتمي

من الناس في قلب الظلام، آن آختها قررت المجيء إلى العريش في هذا اليوم كي تُقابل رجلًا لا تعرفه، هاتفها وأصر على لقائها، ولم تعرف أيضًا أن البنايات ستقع فوق رؤوس العمال الذين سيخسرون حيواتهم، وأن أختها ستصارع الموت على الحياة تحت الأنقاض.

كان على «ثريا» أن تستمع إلى كل ذلك بحدقتين متسعتين، وعقل لا يستوعب كيف نبت كل هذا الحقد في قلب ابنتها!

قالت «دهب» وهي تشير إليهما:

- هيا.. فلتتشاجرا الآن.. وليتّهم كل منكما الآخر أنه السبب.. ثم فليغضب أبي حين يعجز عن الرد ويذهب ليبيتْ في مكان آخر.. بينما تبقى أمي هنا تصرخ وتكسر الآنية وتضرب الطاولات.. وعندما تنتهي تذهب إلى وجهي لتصرخ وتُعنّف وتُلقي بكل همها وقهرها وعجزها فوق رأسي.. وكأنني السبب في كل الشرور التي تحدث في العالم.. لكن أوتعلمان.. لا يوجد مذنب غيركما.. وأنا قررتُ أن أكون عقابكما.

تجمد والداها وكأن على رؤوسهما الطير، بينما تدنو منهما خطوة وتقول:

- أنا اتبعتْ تمامًا كل صفة نعتني بها يا أبي.. مُخربة.. فاسدة.. غبية.. متمردة.. لا عقل لها.. مريضة نفسية! هل أنتَ سعيد الآن؟ وأنتِ يا أمي.. كنتُ واجهتكِ الاجتماعية التي صنعتها من صورة الفتاة اللطيفة التي كنتِ تأخذينها معكِ في النوادي والحفلات.. رغم أنني لستُ تمثالًا في واجهة عرض أحد المحال التجارية.. أنا بشر يا أمي.. بإمكاني أن أسقط المشروبات على ملابسي دون أن تتظاهري أمام صديقاتكِ أن كل شيء بخير بينما تضربينني في البيت وتُحاسبينني على كل فعل قمتُ به كطفلة أرادتْ اللهو والمرح، لم تهتمي قط بسؤالي كيف أنا حين أقع.. كنتِ تغضبين فحسب لأن الفستان قد فسَد.. أصبحتُ واجهتكِ إذ يراني الناس من الخارج شيئًا لطيفًا مرحًا متوهجًا.. بينما ما يقبع بداخلي شيءٌ آخر.. ظلام وخيبة وحسرات.. تعلمتُ النفاق يا أمي.. يقولون البنت سر أمها.. أصبحتُ نسخة مصغرة منكِ.. فهل أنتِ سعيدة الآن؟

خارت قوى «ثريا»، لم تتحمل قدماها حمل جسدها المنهك، وكأن سيارة مسرعة قد دهسته وفرتْ هاربة، جلست فوق الفراش، بل أسقطتْ جسدها فوقه بقوة زلزلته.

لكن «منصور» لم يتأثر مثلها، إذ انفعل قائلًا:

- أعطيتكِ كل شيء.. مال ومعيشة وتعليم.. ومستوى اجتماعي تحلم به ملايين الفتيات كم أنتِ ناكرة للجميل.

كانت تعلم أن مثل هذا الجدال مع أبيها لن يُفضي بها إلى مكان، ربما تتفهم أمها، وتضطرب أحوالها، قبل أن تتماسك وتعود مرة أخرى الدكتورة «ثريا» بكل قوتها وجبروتها. أبوها لا تؤثر فيه مثل هذه الكلمات، ولا يعيها من الأساس، لذلك توقفتْ عن الجدال متسائلة عما يهمها:

- كيف حال «شفق»؟ خُذّوني إليها.

لعجز «منصور» عن الإطباق على رأس ابنته وضربها بالجدار أراد أن يضربها في مقتل. قال بتشفٍ:

- «شفق» لن تنظر في وجهكِ بعد الآن.. لا تريد أختًا مثلكِ في حياتها.

لو كان قد أمسك برأسها وضربه بالجدار لما استطاع أن يحدث فيها ألمًا أقوى من ذاك الذي يغزو روحها وجسدها الآن. هزت رأسها نافية:

- «شفق» لا يمكن أن تتخلى عني مهما حدث.

بكل الغل الذي ملأ صدره تجاه ابنة عاقة مثلها قال:

- بل تكرهكِ كما لم تكره أحدًا من قبل.. ليتني ما أنجبتُ ابنة مثلكِ.. ليتني لم أنجب سوى «شفق».

لا يزال رأسها يهتز بقوة، وهي تتقهقر بخطواتٍ بطيئة إلى الخلف:

- أريد أن أتحدث إلى «شفق».

رفعت «ثريا» رأسها تنهر زوجها بوهن:

- «منصور» يكفي.

لكنه تقدم صوب «دهب» الخطوات التي ابتعدتها، آكلًا المسافة بينهما، واستمطر غضبه:

- «شفق» الآن تعترف للشرطة بكل شيء.. ستتركِكِ تتعفّنين في السجن وحدكِ.. ستمضين فيه سنوات بعدد شعر رأسكِ.. وعندما تخرجين لن تجدي لكِ أمًّا ولا أبًا ولا أختًا تنتظركِ.

كانت تعرف أن أباها بارعٌ في لعبة الانتقام، يُسدد كلمات تصيبها في مقتل، لكن هذه المرة فاقت ضرباته حدود الألم، شعرت صدرها يختنق، وباتت أنفاسها قصيرة متسارعة، وصوت تحشرج مفزع يصدر من حلقها، عندئذ سخر «منصور» قائلًا وهو يصفق بكفّيه ويشير إلى «ثريا»:

- أرأيتِ؟ أنجبتِ لنا ممثلة بارعة.. ستفوز بالأوسكار يومًا ما.

أولاهما ظهره، وأخرج هاتفه الذي رنّ، انزوى إلى ركن يجيب على مكالمته المهمة. ثقل رأس «ثريا»، لم يعد جسدها قادرًا على حمله، أمسكته بكفيها تدفن وجهها.

لم يسمع أحد الخطوات الصغيرة من خلفهما، لم يشعرا بها وهي تبتعد، تضطرب، تتزلزل أرضُها وسماؤها، لم يدرك أي منهما الرابط بين الأختين، وأنهما للتو قد قطعا عنها مشيمة الحياة.

لم تعد متصلة بشيء، تائهة، تسبح في فراغ كبير مظلم، وكأنه العدم. تقهقرتْ أكثر فأكثر حتى اصطدمت بسور الشرفة، التفتت تنظر إلى السماء، عريضة تبتلع المشهد في بطنها، خالية من النجمات، سوداء قاتمة.

بدا وكأن الظلام يلف أحباله حول عنقها ويسحبها صوبة رويدًا رويدًا. الظلام كان العقاب الذي قررتْ أن تُنزله على «شفق» إن خانتها، و«شفق» الآن قد

خانتها، تركتها وحدها بلا أحد، بلا حياة.

شعرت بالغضب يتملكها على أمها، على أبيها، على «شفق»، وعلى نفسها. ستنتقم من الجميع وهي السيدة الماهرة في لعبة الانتقام، انتقامًا لن تنساه «شفق» طوال عمرها.

وفي اللحظة التالية كانت تطير في الهواء، ظنت أن ظلام السماء سيسحبها في بطنه، لكن جاذبية الأرض كانت أشد منه قوة. وحين دوت صرخة وصوت ارتطام، التفتتْ «ثريا» و«منصور» صوب باب الشرفة المفتوح، لم يجدا أمامهما سوى السماء وظلمتها، تلاشتْ «دهب»!

- أنا لا أعاقبها.. أنا أعالجها.

لم تتوقف عن ترديد العبارة، تُحاول أن تتأكد من أنها ستُقدم بعض لحظات على الفعل الصحيح. تعرف أهلها إلى الحد الذي يجعلها مؤمنة إيمانًا كاملًا أنهم لن يُحركوا ساكنًا من أجل علاج «دهب»، لن يروا فيها ما يستوجب تدخل طبيب نفسي، الأهل الذين كانوا يرون مرضها الجسدي وصمة عار تستوجب التستر والإخفاء، سيتعاملون مع المرض النفسي كأشد ما يكون الجهل.

سيضعون نصب أعينهم مناصبهم الاجتماعية، وحديث الصحافة والإعلام، كلام الأقارب ونظرات الجيران، سيفكرون في كل شخص إلا الشخص الوحيد الذي يستوجب الاهتمام، ابنتهما المريضة التي تحتاج إلى علاج.

وحتى وإن أقنعتهما بحاجة أختها إلى العرض على طبيب نفسي، ستثور «دهب» ولن تمتثل للجلسات العلاجية، لن يسيطر عليها أحد.

- أنا لا أعاقبها.. أنا أعالجها.

طفقتْ ترددها وهي تذرع الغرفة مجيئًا وذهابًا، لم يبقَ أمامها حل سوى أن تُظهر حاجة أختها إلى العلاج، قبل أن تُقدِم على فِعل أشد سوءًا من كل ما سبق. عليها أن تنقذها من شياطينها، أن تنتشلها من الظلام، أن تضع حدًا لأفعالها؛ بأن تكشف للشرطة حاجة أختها الماسة للعلاج قبل العقاب.

عندما دخل الغرفة الضابط الذي طلبت الحديث إليه، وقفت في مواجهته تتمتم بالعبارة للمرة الأخيرة قبل أن تقول له بثباتٍ:

- أنا لستُ الفتاة التي تظهر في الفيديو.

سـتُنهي النجمة الأولى حكايتها
وأضع لها نهايتها
بدمعة ولوعة واشـتياق
وددتُ لو طالتْ روايتها!
وفي ليلة تالية
سـتتكئ نجمة دانية
تُسـمعني قصة مُتتابعة
وحكاية عجيبة مُتسـارِعة!
تأهّبتُ الآن لتتمة متواترة
لا تزاحمها كلمات مُتعثّرة
فترقّبَتْ آذانٌ حالمة
لمعرفة أحداث الخاتمة!

يستمر أبطال القصص في الحياة،

حتى إذا نفَدَتْ أوراق الكتب.

(١)

حديث طويل، وبوح نفس، وهواجس فِكرٍ دامت لساعتين كاملتين، أسفر عنهم صمت طويل، لم يقطعه سوى رفع أذان صلاة العصر من المسجد القريب من بقايا القلعة. قال «حَمَد»:

- لا أريد أن أزعجكَ ولكن...

رفع «بحر» كفه يُسكته، قائلًا بأسى كسا وجهه:

- بربكَ لا تقتل بقايا الأمل بداخلي.. لا أملكَ غيره.

أطلق «حَمَد» ضحكة قصيرة وقال مُلطّفًا:

- لا أفهم لماذا تُقحم نفسكَ دائمًا في حكايات معقدة.

تجاوب «بحر» مع مزحته:

- الحكايات المعقدة تجدني دائمًا.. ماذا أفعل؟

تخابث «حَمَد»:

- ألا أعرف أخي؟ إن الصعاب تثيره وتفتنه.

قال بجدية بالغة:

- هذه المرة لم أكن أبحث عن الصعاب.. على العكس.. كل ما أردته وادٍ مُمهد أحط فيه راحلتي بعد سفر طويل أشقاني.

ربّتْ «حَمَد» كتف أخيه، معتمدًا على اسم «السوارفة» وما يملك من دائرة معارف قوية بشّره قائلًا:

- سننقذها.. لا تقلق.

أومأ «بحر» برأسه بحماس قائلًا:

- سننقذها.. ونُبيّض صحيفة «مُسفر».

أومأ «حَمَد» برأسه مؤكدًا. وفجأة باغته «بحر»:

- بالمناسبة.. «جبار» بات يعرف أنني على قيد الحياة.. شخص ما يكرهني قد عرف الحقيقة الآن.. وأثق أن أول شيء سيفعله هو أن يخبر «جبار».

فانقبض قلب «حَمَد» هولًا!

بذل «حَمَد» جهده كي يتتبع مشاهد كاميرات المراقبة على الطريق وأمام المحال. كل ما أراده «بحر» هو إثبات تواجد سيارتين مختلفتين في زمنين متقاربين يقودهما شخص يرتدي الملابس ذاتها، وهذا وحده كفيل بصرف أصابع الشك تجاه «دهب»، إذ كيف يمكن لـ «شفق» التواجد في مكانين في الوقت نفسه؟

كان الأمر صعبًا وشاقًا رغم علاقات «حَمَد» القوية، ولزم منهما قضاء الساعات أمام الشاشات المصمتة، لتتبع خط سير السيارتين عند مغادرتهما

موقع العمل، إحداهما قبل الحادثة والأخرى بعدها.

بعد ساعات من مراقبة تسجيلات كاميرات المراقبة بدا أن الفكرة قد انحنتْ به لطريق مسدود. نهض من فوق المقعد وأطلق صيحة غضب، «حَمَد» الذي أشفق على أخيه دنا منه وحمّسه:

- سنعثر على طرف خيط.. ثق بالله ولا تعجز.

وما إن أشرقت شمس الصباح حتى بزغ الأمل من جديد؛ عثرا على تسجيل دخول باسم «شفق» في مستشفى بالعريش بعد الحادثة، في الوقت ذاته الذي ظهرت فيه «دهب» بملابس أختها في كاميرا الفندق.

أمسك «بحر» بالدلائل وكأنه حصل على كنز ثمين، ثم عانق أخاه شاكرًا ربه في ابتهاج.

في القسم كانت التحقيقات تسير بسرعة كبيرة، تمكن الضابط من حشر المجرمين في الزاوية، واستنطقهما بما أخفيا سابقًا؛ اعترفا أن الفتاة نفسها والتي لا يعرفان اسمها قبل مدة اشترتْ منهما بعض المتفجرات بمقابل سخي.

وما إن علم «طاهر» بذلك حتى هاتَف «بحر» قائلًا بحماس بالغ:

- «بحر».. لديّ لكَ أخبارٌ مُبهجة.

وفي الوقت الذي مَثَل فيه «بحر» أمام الضابط شارحًا كل ما معه من قرائن تُثبت أن إحدى الأختين قد تنكرت في ملابس الأخرى، نزلتْ كلمات الضابط كصاعقة فوق رأسه:

- أولًا لقد أنكرتْ الأستاذة «شفق» بالفعل أنها تلك التي ظهرت في الفيديو الذي قدمه «بشير».. وثانيًا...

توقف للحظة ثم قال:

- أتتنا الآن إخبارية بأن أختها قد أجرَمَتْ في حق نفسها!

بعد مرور أسبوع..

فوق مقعد وثير، أسند الطبيب ظهره، يُمسك بيده مكعب روبيك، يُحركه باتجاهات شتى، محاولًا ترتيب كل لون في جهة واحدة. انفتح الباب، ودخل ثلاثة أشخاص، أشار لهم بالجلوس أمام مكتبه. ترك المكعب من يده ثم قال:

- حقيقة لا أعرف من أين أبدأ.. يمكنني أن أزحم رؤوسكم بأسماء علمية معقدة لحفنة من الأمراض.. وما يلزمها من بروتوكول للعلاج.. لكن في النهاية نحن أمام جذر عميق جدًّا.. حفرة عميقة من الضلالات.

تبادل «منصور» و«ثريا» و«شفق» نظرات متوجسة، بدا وكأن كل واحد منهم قد كبر في العمر أعوامًا خلال الأيام الماضية، حتى إن خطوطًا من

التجاعيد قد ازدادتْ حول عيني الدكتورة «ثريا». استطرد الطبيب:

- اضطراب الضلالات مرض فكري.. يفقد فيه المريض بصيرته وقدرته على الحكم الصائب على الأشياء.. يخلق عالمًا من الأوهام والضلالات والأفكار المشوهة المنافية للواقع والمنطق.. يُصدقها ويعيش من خلالها.

ثم شبّك أصابعه ومال بجسده إلى الأمام مردفًا:

- مرض الضلالات الفكرية يشمل ضلالات الاضطهاد وضلالات الغيرة وضلالات الخيانة وضلالات الشك.. ومريض الضلالات يرفض العلاج باستماتة.. ولا يرى نفسه مريضًا يحتاج إلى مساعدة.. يتعامل مع ضلالاته على أنها حقائق مطلقة يعجز الآخرون عن رؤيتها ويراها هو وحده بذكائه وبصيرته.. وهذه المعتقدات والأفكار الخاطئة تكون مترسخة في الذهن بشدة.. وأشهر أنواعه الاضطراب الضلالي الزوراني (Paranoid personality disorder) وفيه يتوهم المريض أن أمورًا ما تُحاك ضده.. وأن هناك من يتربص به ليلحق به الأذى.. يشك في كل من حوله ولا يثق في أحد.

أخذ نفسًا عميقًا ثم قال:

- مناقشة مريض الضلالات في أفكاره الخاطئة هو أكثر ما يثير غيظه ويستوجب غضبه.. يشهر كل أسلحته في وجه مَن يحاول مناقشته في أفكاره المغلوطة وعقائده الفاسدة.. وهذا الأمر تطور لأن كان هناك الكثير من التمرير للأفكار الخاطئة حتى ترسّخت في الذهن وصارت عقيدة يؤمن بها.. يجب أن يتحاور معه شخص يحبه ويثق به.. يتحاور معه من باب الحب لا من باب الهجوم والتحامل وإثبات خطئه ومساومته أو ابتزازه عاطفيًّا.

ما إن قال ذلك حتى أشار صوب «شفق» وقال:

- وأنتِ المرشح المثالي لذلك.. رغم حالة «دهب» واستفحال الضلالات وتمكنها من عقلها وقلبها إلا أنكِ الثغرة التي بإمكاننا أن ننفذ منها إليها.. أنتِ الأمل الوحيد لشفائها..

ثم قال مبتسمًا:

- وخلال ذلك بالطبع ستخضعين أنتِ أيضًا لكورس تعديل السلوك وتصحيح المفاهيم.

ثم أشار إلى رأسه مردفًا:

- فلديكِ أنتِ أيضًا بعض الأفكار المغلوطة عن الحب والعلاقات.

ولم يفُته أن يشير إلى الأبوين قائلًا:

- لم أنسَ ما أوصيتُ لكما به من حاجتكما الماسة إلى استشارة عاجلة من أخصائي علاقات أسرية.. مشكلات الأبناء في كثير من الأحيان يكون منبعها بيت مضطرب عاطفيًّا.. نتيجة صراعات محتدمة بين الأبوين.. إذا أردتما بالفعل مساعدة «دهب».. عليكما مساعدة نفسيكما أولًا.

ما زالت «شفق» تتذكر هول الخبر الذي نزل على رأسها كبناء منهدم، لولا أن ربط الله على قلبها بنجاة أختها لما تحمّل قلبها الفقد المميت،

والإحساس القاتل بالذنب.

قالت للطبيب بلهجة لا تخلو من تقريع نفسها:

- كل ذلك حدث لأنني كنتُ أتلقى العقاب عن كل مرة تُخطئ فيها.. كان يجب أن تفهم خطأها.. وألا أسمح للأفكار المغلوطة أن تنمو وتترعرع في رأسها.. أدركتُ الآن أن هذا ليس من الحب في شيء.. هذا مرض.. «دهب» مريضة.. وأنا كذلك.

ابتسم الطبيب مخففًا:

- لا ألطّف الأجواء ولكن.. كُلنا مرضى بشكل أو بآخر! لا ينجو من الضعف البشري أحد.. لكننا نقاوم.. كما يقاوم جهازنا المناعي الميكروبات والفيروسات التي تصيبه.. لذلك يجب أن نحرص على أن يكون جهازنا النفسي المناعي قويًّا ومُتأهبًا.

ثم مسح وجهه قائلًا:

- الفصام هو سرطان الأمراض النفسية.. ومرض الضلالات يؤدي بشكل أو بآخر إلى الفصام إذا لم يتم علاجه مُبكرًا.. لذلك من حسن حظها أنها لم تكن قد وصلت إلى هذه الحالة الحرجة بعد.. أنا مستبشر خيرًا.. فمع العلاج النفسي السلوكي والعلاج الدوائي ستكون «دهب» أفضل حالًا.. لكن كما قلتُ يجب أن تتوحد جهود هذه الأسرة معًا.. كي تخرجوا معًا من هذه الأزمة دون خسائر نفسية أو جسدية.

أمَا كان أولى أن يحدث ذلك من البداية؟ من اللحظة التي يتزوج فيها رجل وامرأة ويعقدان العزم على تكوين بيت وأسرة. أمَا كان يجب أن يكون الهدف الأول لزواج رجل وامرأة هو بناء بيت قوي يحتميان فيه وأطفالهما من مَشاق الحياة وصراعاتها. ألا تكفي صعوبة الحياة بالخارج فيكون داخل البيت واحة غناء من الراحة والسكينة؟

«أَلَا كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ، وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ، وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ، أَلَا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»(2).

انتهى حديثهم مع الطبيب النفسي بالقاهرة، وتوجهوا إلى الطائرة عائدين إلى العريش للمرة الأخيرة. قد استطاع «منصور» الحصول على الإذن بنقل ابنته إلى مصحة أخرى بالقاهرة.

لم تُسفر الفحوصات الشاملة على ضرر أصاب أعضائها الداخلية، فقط كسر في قدمها، وخدوش وكدمات هنا وهناك، لكن تم وضعها تحت الملاحظة لئلا تطرأ تغيرات على حالتها أو يتكشّف لهم ضرر أصاب المخ على إثر السقوط.

لم يكن سقوطًا مُدويًا على أية حال، المسافة من الطابق الثاني وحتى الأرض لم تكن عالية، وخفف من حدة السقوط شجرة كبيرة فردت أفرعها

كمصَد خفف من سرعة سقوط جسدها قبل آن يلامس الأرض.

انتظرتهم سيارة مؤجّرة بسائقها، أوصلهم إلى المستشفى على الفور.

فوجئتْ «شفق» بأمها تقول:

- ادخلي أنتِ يا «شفق» سنلحق بكِ بعد قليل.

رمقتهما «شفق» من فوق كتفيها، يقف كل واحد منهما في مواجهة الآخر، كعادتهما، لكن هذه المرة كانت مختلفة، إذ يطرق كل منهما برأسه أيضًا، وكأنه يخشى المواجهة.

شعرت أن الأسلحة ليستْ مُشهرة، وأن جسرًا معلقًا بدأ في التكون كي يربط بين أرضهما.

سارت «شفق» في ممرات المستشفى، وما إن وصلت إلى الغرفة التي ترقد فيها أختها حتى تجمدتْ في مكانها.

رأته، يجلس بجوار الباب، يهز قدمه بعصبيه كعادته عندما يشغله أمر مزعج. عنّفتْ نفسها في الحال، هل أصبحتِ الآن تعرفين لغة جسده؟!

عليها أن تعترف أيضًا أنها كانت تتوقع رؤيته، بل كانت تتلهف لرؤيته.

طوال الأسبوع الماضي اعتادتْ أن تراه في كل مكان؛ أمام المستشفى، في حديقتها الخلفية، عند الاستعلامات، يتحدث إلى طبيب، إلى ممرض، يقف مع رجل يشبهه كثيرًا لكن بغير ندبة تشق وجهه. حتى «عبقرينو» كان يُصاحبه كثيرًا، ويتحدث إليه طويلًا.

تعجبت ما الذي يجمع بين «غراب» و«عبقرينو» عامل البوفيه؟ والأكثر عجبًا، أنها رأته عدة مرات يتحدث إلى أبيها في حوار حاد من كلا الطرفين، وعندما سألت أباها لم يُجِبها. لم يكن لديها بال رائق للبحث عن إجابات تلك الأسئلة، كانت مهمومة بحال أختها.

أمَّا الآن وهي تراه أمام الباب في غياب الحارس عن القيام بدوره المعتاد في حراسة الغرفة، ظنت أنها ستمر من أمامه ككل الأيام السابقة دون أن يتحدثا بكلمة، تمنّتْ فحسب ألا يكون بإمكانه سماع لغة قلبها وترجمتها إلى حروف وكلمات.

فاجأها بأن قطع طريقها إلى باب الغرفة، تاركًا فسحة تسمح بمرورها، صغيرة إلى الحد الذي يُعجزها إذ ستضطر إلى أن تُلامسه.
توقفت تطرق برأسها أرضًا. ابتدرها قائلًا:

- ستنقلونها اليوم إلى القاهرة.

كان من الغريب أن تسمع بحة صوته في الوقت الذي تراه أمامها، ظلت البحة طوال الوقت نبرة سرية لا تسمعها إلا من خلف الأبواب المغلقة، وفي ظروف نفسية ساحقة.

الآن وهي تسمعها منه حية، مختلطة بكلمات هادئة، وهي في حالة نفسية مسترخية، أشعل هذا زِر الإنذار بالخطر في رأسها.

كتفتْ ذراعيها، شعرت أنها بحاجة إلى اتخاذ وضعية دفاعية عاجلة، ليس

منه، بل من نفسها:

- ظننتكَ ستكون فرحًا.. الفتاة التي خدعتكَ تلقتْ جزاءها.

تغضّن جبينه بشدة وهو يقول بانزعاج:

- لم أكرهها.. ولم أتمنَّ لها السوء قط.. فقط غضبتُ عليها كثيرًا.

تعلم أنها لم تكن تعني حرفًا مما قالته، وإنما هو الهجوم الذي هو خير وسيلة للدفاع.

نظرت من فوق كتفها تقول بقلق:

- أبي سيأتي بعد قليل.

قال بقوة وهو يرفع حاجبه متحديًا:

- فليأتِ.. أنا أنتظره أساسًا.

ترددتْ للحظات، ثم لم يعد بوسع الفضول البقاء قانعًا في الأعماق. اصطنعت الحدة قائلة:

- ما الذي تتحدثان بشأنه؟ ألم أطلب منكَ أن تبتعد عني.

باغتها بضحكة صغيرة، وترتها، فوقفتْ متحفزة بينما يقول بخبثٍ مُوارَى:

- لا تقلقي.. لم أتحدث إليه بشأننا بعد.

هل قال «بشأننا» للتو؟ هل احتوتهما معًا نون الجمع؟ كيف يكون لنون نحوية مذاقُ عناقٍ دافئ أو لمسة عطرية؟

اندفعتْ تقول متصنعة الغضب:

- تثق بنفسك كثيرًا!

تعارك «بحر» مع طبعه القديم، حتى انتصر الطبع!

- رجل بندبة مُميزة وجُعبة مملوءة بالحكايات.. من يمكنها تفويت هذا العرض؟

وقبل أن تجد ردًا ظاهره القسوة وباطنه الفرحة. باغتها متسائلًا بجدية، وكأنه سؤال مصيري سيكتب بجوابه قدريهما:

- متى يلتقي البحر بالشفق؟

لاحت الحيرة على وجهها للحظات، سؤال عجيب يلقيه للمرة الثانية! ما زالت تجهل علاقتهما بسؤاله، هي «شفق» وهو «غراب»، فما موقع «بحر» من الإعراب؟!

- لا يتلقيان أبدًا.

أطرق للحظة ثم قال بغموض وإصرار عجيبين:

- بل يلتقيان.. سترين.

تراءَى أمام عينيها نجمات، تمرح هنا وهناك، لو قالت للناس إنها ترى نجومًا في وسط النهار وداخل بنيان مصمت بلا سماء لظنوا بعقلها الظنون، لكنها لتكاد تقسم إن نجمات تضاهي في جمالها تلك التي تسكن السماء

تتراقص آمام عينيها.

لما اشتعلتْ وجنتاها بُحمرة صافية ابتعد عنها خطوات كبيرة، يُغالب لهفة، ويكابد شوقًا يزرع راياته على طول المسافة بينهما. سارعتْ بدخول الغرفة وغلق الباب، كأنها تمنع النجمات من ملاحقتها والالتصاق بها.

لم تنتبه إلى نجمتين خبيثتين نفذتا من أعتاب الباب، وسكنتْ كل واحدة منهما عينًا.

وعندما استرقتْ النظر إلي المرآة الجدارية رأتْ نجمتين قريبتين كأنهما عينا إنسانٍ، دققتْ النظر، فرأت أن سماءهما وجهها هي!

تذكرت حكاية قصّها عليها عن نجمتين تسكنان السماء، قريبتان مثل عيني إنسان، لطالما كانت تبحث عنهما عاليًا في ربوع السماء.

الآن فقط تنبهت إلى أنها كانت تبحث عنهما في السماء الخطأ، كان عليها البحث في سمائها هي.

كانت نائمة، وما إن أحسّت بخطوات أختها تقترب حتى فتحت عينيها، واستقبلتها ببسمة واسعة، وضعتْ لها «شفق» وسادة خلف ظهرها. بادرتها «دهب» وهي تحاول الجلوس بينما إحدى ذراعيها مقيدة بالأصفاد في الفراش:

- تأخرتم كثيرًا هذه المرة.

جاورتها «شفق» فوق الفراش وقالت:

- جئنا بأسرع ما يمكن.

قالت بتبرم:

- لمَ ذهبتِ.. ليتكِ بقيتِ معي.

كان بإمكان «شفق» أن تفعل ما اعتادته وتعتذر منها على التأخير، لكنها عدّلتْ عن ذلك وقالت بحنو لا يخلو من حزم:

- إنها مجرد ساعات يا «دهب».. كما أنني كان يجب أن أذهب معهما.. أخبرتكِ أن الطبيب النفسي يحتاج إلى التحدث معنا جميعًا كعائلة.. وينتظر خروجكَ من هنا كي تنضمي إلينا.. فهناك جلسات فردية لي ولكِ.. وهناك جلسات جماعية علينا أن نحضرها معًا.

كانت تعلم أن حوارًا كهذا ثقيلٌ على أسماع «دهب»، والتي حاولت ككل مرة أن تعترض بقوة قائلة:

- لا داعي لكل ذلك صدقًا.. أنا أعرف أنني أخطأتُ كثيرًا.. لكنكِ سمعتِ المحامي بنفسكِ يقول إن ما حدث في موقع العمال قتل بالخطأ.. وأنني سأبقى عدة أشهر فحسب في المصحة.. هذا كل شيء.

لم تتخلَ «شفق» عن الحزم والحنو في نبرة صوتها وهي تقول، بينما تنظر في عمق عينيها:

- هذا ليس كل شيء.. آنا وآنتِ نعرف ذلك جيدًا.

تعكّرتْ نظرات «دهب»، وارتبكت، بينما أختها تردف:

- أنتِ فعلتِ أشياء سيئة جدًّا إلى الحد الذي لا تكفيه الوصف بالكلمات.

أطرقتْ «دهب» برأسها تُغالب البكاء. استطردت «شفق» وهي تعيد على مسامعها ما فعلته واحدًا تلو الآخر:

- أنتِ كي تعاقبيني وتعاقبي أبي وأمي ألقيتِ بنفسكِ من فوق الشرفة.. أعلم جيدًا في تلك اللحظة أنكِ لم ترغبي في الموت.. ولم تُفكري فيه من الأساس.. إنما أردتِ معاقبتنا فحسب.

حاولتْ «دهب» الاعتراض بوهن فأسكتتها «شفق» بقولها:

- وما فعلتِه بهذا الرجل الذي وثق بكِ وظنّكِ الفتاة التي يبحث عنها بشع جدًّا.. أعلم أنكِ لا تكرهينني وإنما فعلتِ ذلك لأنكِ تخشين خسارتي.. لكن دعيني أقول لكِ.. ما فعلتِه به.. وبخطبتي الأولى كان كافيًا جدًّا لأن تخسريني إلى الأبد.

نطقت عيناها بالخوف، خوف من الفقد والخسارة، فيما «شفق» تُكمل حديثهما:

- هذا بالطبع غير آذاكِ لـ «نرجس».. لا شيء في الدنيا يُمكنه أن يُبرر فعلًا كهذا.. لا الغيرة والحسد.

ثم أدنت وجهها تقول بينما العبرات تغزو عينيها:

- أنتِ تحتاجين إلى علاج فوري يا «دهب».. لأن بداخل رأسك الكثير من المفاهيم الخاطئة.. أنتِ لم تفهمي قط كيف يكون الحب!

تساقطت عبرات «دهب»، تغالب البكاء وهي تقول بخفوت:

- أنا أحبكِ جدًّا.

- أثق بذلك.. لكنكِ لا تعرفين كيف تعبرين عن هذا الحب.. تظنين أن عليكِ قطف كل زهرة أحببتها ووضعها في إناء بلا ماء أمام عينيكِ حتى تذبل وتموت.. فقط لتكون لكِ وحدكِ.. هل ستفرحين حقًّا برؤيتها تموت أمام عينيكِ بينما ليدٍ أخرى القدرة على سقايتها بالماء؟

غالبتها العبرات. همستْ:

- أنا لم أفعل بكِ ذلك.. لم أُؤذِكِ.

- بل أذيتني.. وبشدة.. إلى الحد الذي آلم قلبي.. وكأن خنجرًا سامًّا قد اخترقه.

سارعتْ «دهب» تقول بلهفة:

- لكن أنا أحبكِ.

- أثق بذلك.. لكن عليكِ أن تفهمي كيف يكون الحب.. وعليكِ قبل أن تحبيني أن تحبي نفسكِ أولًا.. أن تري «دهب» تستحق الحب.. وهذا ما سيساعدكِ الطبيب على بلوغه.

طال بها التفكير، حتى قالت بتردد:

- وهل ستكونين معي؟

أمسكتْ «شفق» بكفيها وقالت باسمة:

- نحن توأم.. جمعتنا مشيمة واحدة ورحم واحد.. هل تظنين أن أي شيء في هذا الكون قد يُفرّق بيننا؟

- حتى أخطائي؟

- حتى أخطائكِ.

فلما تجلّى البِشر من مُحيَّاها، وأطلقتْ تنهيدة راحة عميقة. عقّبتْ «شفق» بحزم:

- لكن عليكِ فهم أخطائكِ تلك.. واحدة تلو الأخرى.. وفترة احتجازكِ في المصحة ستكون كفيلة بذلك.

جمعت شتات عناد في نفسها وقالت:

- أنا لستُ مجنونة!

- أظنكِ أكثر تعقلًا وعلمًا من أن تقعي في خطأ الخلط بين المرض النفسي والجنون!

ثم مالت صوبها تقول بأسى:

- وهذا هو المؤلم في الأمر.. المجنون رُفِعَ عنه القلم.. أما أنتِ فأفعالكِ محمولة على أعناق الثواب أو العقاب.

فلمّا رأت في عيني «دهب» استعدادًا للسير في هذا الطريق معًا، أدركتْ صدق مقولة الطبيب من أنها الباب الوحيد المُشرَّع على الشفاء.

بعضُنا لا يشفيه الطب، إنما دواؤه الحب!

وقف «ثريا» و«منصور» أمام بعضهما وقد هدّتهما الخسارة، وفي الخسارة كل اللطف، إذ دونها لا يتوقف المرء ليعيد حساباته، ولا يلتفت إلى المرآة ليرى وجهه الذي يراه الناس في كل وقت وحين.

بعد كل ما مرّا به خلال الفترة الأخيرة، ضعفتْ أسلحتهما في مواجهة بعضهما، وربما للمرة الأولى في عمر زواجيهما يوحدان الأسلحة، ويتخذان موقعًا دفاعيًّا عن أسرتهما الصغيرة.

لكن بقي أمر يؤرق «ثريا» ويقض مضجعها على مدار ليالٍ سابقة، الكلمات التي سمعتها من الرجل ذي الندبة.

فوقفتْ أمام زوجها متسائلة:

- ما الظلم الذي أوقعته على غيركَ يا «منصور»؟

استقبل وجه «منصور» كلماتها بجمود، لكنها تعرف زوجها جيدًا، رأت في عينيه اضطرابًا، وخجلًا، وندمًا!

آخفى كل ذلك واحتد قائلًا:

- اليوم سيكون عصيبًا.. بعد قليل ستأتي السيارة لترحيل «دهب» إلى القاهرة.. ليس هذا وقته ولا مكانه.

تركته هذه المرة دون إصرار على معرفة الجواب، ربما لأنها تخشى الجواب. وما إن رأى الرجل ذا الندبة مُقبلًا نحوه حتى استنفرتْ أعصابه وهتف بغيظ:

- ألا يستسلم هذا الرجل أبدًا!

أمسك «منصور» بذراعه ونحى به جانبًا، سارت «ثريا» في طريقها صوب غرفة ابنتها، وهي تسترق لهما النظر من فوق كتفها.

ما الذي يتحدثان فيه بحدة وغضب على مدار أسبوع كامل؟ «شفق»؟

لا، ما بينهما أكبر من ذلك!

وقف «بحر» عاقدًا ذراعيه خلف ظهره وهو يرفع رأسه قائلًا بإباء:

- لن أستسلم.. لا تحلم بذلك.

انفعل «منصور» غضبًا وهو يتلفت حوله مراقبًا الناس، يقول:

- قلتَ لكَ لن أفعل ما تريده أبدًا.. هل تعرف معنى ذلك؟ سأخسر كل شيء.. اسمي وسمعتي.. هل تعرف كم عامًا تطلّب مني الأمر كي أبني صرح «منصور النمر»؟ هل تريدني أن أخسر كل ذلك بتصرف غبي؟

كانت نظرات «بحر» مليئة بالازدراء، لكن كلماته كانت أقل حدة من نظراته. يغالب بُغض «منصور» في نفسه:

- أنتَ مُجبر على أن تفعل.. أنا لن أتركَ الأمر حتى أنظف صحيفة أخي.

انفعل «منصور»:

- أخوكَ مات.. أتفهم.. مات وانتهى الأمر.

تحولت عيناه إلى جمرة غضب وهو يحتد:

- والميت يُحاسَب على ما فعله في أثناء حياته.. أخي أخطأ.. ووصّاني أن أصحح هذا الخطأ.. وأنا لن أتوقف حتى يسقط هذا الذنب عن كاهل أخي.. ويُرَد الحق لصاحبه.

ولأن «منصور» تاجر ورجل أعمال خبر الحياة وعاركته، كان ينوي من البداية أن يمنحه ورقة رابحة يسعد بها، ويكف نظره عن الورقة التي لن يجرؤ «منصور» عن كشفها. قال يساومه كأنه ما قرر ذلك إلا بعد أن حُصِر في الزاوية:

- حسنًا.. سأعطيكَ الوثيقةَ الأثرية التي سرقها أخوكَ وباعها لـ «سميع الهلباوي» عن طريق «مستور».. وهذا كل ما ستحصل عليه مني.. تريد أن تُبيض صحيفة أخيكَ.. ها أنتَ قد بيضتها.. يُمكنك إعادة الوثيقة إلى الدير مرة أخرى.. أو حتى تسليمها إلى الشرطة.. لكن دون ذكر اسمي

على الإطلاق.. آما الأمر الآخر فانسِه تمامًا.. اتفقنا؟

لا «منصور» يعلم أنه كذلك يقف أمام تاجر خبر الحياة وعاركته، وأنه لا يترك معاركه إلا وقد خرج فيها فائزًا.

لم تتحرك خلجة من خلجاته وهو يقول بجمود:

- أنا لا أتفاوض معكَ في صفقة.. لذلك لا تحاول إعطائي شيئًا بمنعي عن الآخر.. الحق واحد لا يتجزأ.

انفعل «منصور» صارخًا، غير آبهٍ بنظرات من حوله:

- ألم يكن ما تريد هو رفع الذنب عن كاهل أخيك.. سأمنحكَ ذلك.. لماذا تتدخل في أمور أخرى لا تعنيك؟

ثم همس بغيظ ونظرة غاضبة يُحدجه بها:

- «نوّارة» ليست من أهل بيتكَ.. اهتم بأخيكَ فحسب.

أومأ «بحر» برأسه، وتجلّى الازدراء في صوته وهو يقول:

- لا يلزم المظلوم أن يكون من أهل بيتي لأنصره.

ثم مال برأسه كي ينظر في عمق عيني «منصور» ويضيف بحزم:

- «مُسفر» و«نوّارة».. سأسترد منكَ كل ما يخصهما.. وهذا أمر غير قابل للمساومة.

ولما أعطاه ظهره وخَطَا مبتعدًا هتف «منصور» محتدًا وقد اشتم رائحة التهديد في صوته:

- وإلا..؟!

لكن حاسته الشمية خانته، لم يكن «بحر» مُهددًا له، لأنه لا يرغب في إثارة استياء «منصور»، فيخسر بذلك فرصته الأخيرة في الاجتماع بـ«شفق»!

لم يُجبه، ولم يلتفت.

كانت جالسة مع «نرجس» في مقصف المستشفى، تتبادلان عبارات الوداع، فأضفتْ «نرجس» بعض البهجة قائلة:

- نحن نودع بعضنا كثيرًا في الفترة الأخيرة هل لاحظتِ ذلك؟

ضحكت «شفق» تقول:

- وكأنني ذاهبة إلى الطرف الآخر من العالم .. سنجتمع مرة أخرى قريبًا.. عندما يتم تصفية مكتب العريش.

تمتمتْ «نرجس» بشجن:

- سأشتاق للعريش كثيرًا.. بحرها.. صحرائها.. أهلها.

طبع الشوق ختمه فوق وجهها وهي تقول بخفوت:

- وأنا أيضًا.

ابتسمتْ «نرجس» تقول بخبث:

- أيهما ستشتاقين أكثر.. العريش أم أهلها؟

ارتبكتْ حتى كادتْ تسقط قطرات من كوب الشاي فوق ملابسها. تمتمت هامسة بشيء لم يبلغ أسماع «نرجس» فضحكت تقول:

- هل تسببينني؟ أشعر أنكِ تسببينني.. اعترفي بذلك.

رمقتها «شفق» بنظرة لوم، فقالت «نرجس» بمرح:

- حسنًا سأتصنّع الغباء مثلما تفعلين.. لكن لم أعد أستطيع كبت فضولي حوله و«عبقرينو».. ألا تلاحظين أنهما يتواجدان معًا كثيرًا في الفترة الأخيرة؟ ألمحهما بجوار المستشفى وبداخلها.. يتحدثان بألفة من يعرفان بعضهما لسنوات وبينهما آلاف الأسرار.. ورجل آخر يتوسط وقفتهما أو جلستهما.. ألم تلاحظي أن هذا الرجل فيه شبه كبير من «غراب».

تمتمت باقتضاب وهي تتهرب بنظراتها:

- لم ألاحظ شيئًا.

- كاذبة جدًّا.

قالتها «نرجس» ضاحكة غير آبهةٍ لنظرات اللوم حتى حدجتها بها. أردفتْ:

- حتى إنني رأيته في مرة يتحدث إلى أبيكِ في نقاش ساخن.. بدا أن أباكِ على وشك ضربه.

انقبض قلبها وسافر فكرها صوب الشيء الذي يجمع بينه وأبيها. قطعتْ «نرجس» أفكارها تقول وهي تميل صوبها:

- أظن أنهما يتحدثان بشأنكِ.

اضطربتْ «شفق» تقول بانفعال لا تدري له سببًا:

- ولماذا يتحدثان بشأني؟

- هيا يا «شفق» كفي عن الاختباء هذا لم يعد ممتعًا.. وكأنني أجري هنا حديثًا من طرف واحد.

تنهدتْ «شفق» بعمق، واستجمعت شتات مخاوفها، تلقيها كاملة بين يدي صديقتها. قالت بخفوت:

- أنتِ لا تعرفين كيف تكون مرارة التعلق بأمل.. ثم يُسحَب بُساطه من تحت قدميكِ.. الأمل خطير جدًّا.. أخطر المشاعر وأعنفها.. لا أريد أن أتجرع الخيبة.. لذلك أحاول الهرب.. أحاول قتله قبل أن يولَد.. هل تفهمينني؟

اتسم حديثها بالجدية، وهي تنظر لها بإشفاق قائلة:

- أدرك ذلك.. لذلك أريدك أن تتحدثي.. الاختباء لم يساعدكِ كثيرًا.. رأيتِ هذا بنفسكِ.

لاح فوق وجهها أمارات الأسى، تفرك أناملها ببعضها. تقول بخفوت:

- لم أحارب يومًا من أجل شيء أريده.. دومًا حاربتُ من أجل ما يريده

الآخرون.. لا أعرف كيف أشعل حربًا من أجل نفسي.

ابتسمتْ «نرجس» تقول:

- لكنكِ تستطيعين ذلك.. هل أقول لكِ شيئًا.. أنتِ عنيدة جدًّا.. وتجيدين استخدام سلاح الصبر.. ربما تجهلين ذلك لكن.. الحروب لا يفوز فيها الأكثر قوة.. بل الأطول نفَسًا.

ثم مالت صوبها أكثر، تسألها باسمة:

- لكل حرب غنيمة.. عليكِ تقدير قيمتها قبل أن تُشعلي شرارة الحرب.. لذلك اسألي نفسكِ أولًا.. هل هذا الرجل يستحق أن تخوضي حربًا من أجله؟

ابتسمتْ «شفق» تقول:

- كلماتك هذه تُشبه ما قالته لي الخالة «نوّارة» سابقًا.

ضحكتْ «نرجس» قائلة:

- هذا لأنني حكيمة زماني يا فتاة.. اعلمي قيمة الصديقة التي لديكِ.

نظرت لها «شفق» بحب وشكر قائلة:

- أدرك ذلك بالفعل.

مالت «نرجس» صوبها ثانية، ولم تسمح لها بالهرب، قالت:

- لم أتلقَّ جوابكِ بعدُ.

طافتْ «شفق» بأنظارها بعيدًا، ثم عادت لتستقر فوق وجه صديقتها، تبوح لها بأصدق ما تملكه من أجوبه، وهي تومئ برأسها:

- يستحق.

أراحتْ «نرجس» ظهرها إلى مقعدها وقالت بابتهاج:

- تعرفين ما عليكِ فعله إذن يا صديقتي العزيزة.

أصرتْ «شفق» على «نرجس» كي تعود إلى الشركة وتُباشر أعمالها المُعطلة قائلة:

- كلما أسرعتِ بإنهاء عملكِ التقينا أسرع.

سارتا متجاورتين حتى خرجتا من المستشفى، انقطع حديثهما الودي بظهوره أمامها.

اضطربت ثانية ولا تزال تتذكر «بشأننا» وصداها لا يتوقف عن التكرار في أذنيها. حاولتْ «نرجس» التحرك مُبتعدة بعض الشيء فاندفع كلاهما يهتفان في اللحظة نفسها:

- ابقي!

وقفت مكانها ولم تتزحزح، فيما «بحر» ذو الجبين المتغضّن يقول باضطراب ملحوظ:

- لم أرغب في إشراكك في هذا.. لكن نفدت الحلول من يدي.

ثم استدرك قائلًا بحزم:

- لم تنفد تمامًا.. لا يزال لدي حلول لكنها عنيفة.. سأخسر بسببها شيئًا أريده بشدة.

بدا حديثه مبهمًا تمامًا على أفهام الفتاتين، وحده كان يُصارع عذابًا كي يفوز بكل شيء! من قال إن العادات القديمة تموت؟

- لي أخ بحاجة إلى المساعدة.. وأنتِ وحدكِ من تستطيعين مساعدتي.

اندفعتْ تقول بغير تفكير:

- ذاك الذي يقف معكَ كثيرًا مؤخرًا؟

أمسكت لسانها تعض أطرافه؛ بدَتْ أمامه بمظهر من تتبّع حركاته وسكناته، ومع من يتحدث ولا يتحدث.

مرّ على ذلك دون أن يتخذ منه محطة لوقوفه. قال بجدية بالغة:

- ذاك «حمد».. من أتحدث عنه أخي الآخر.. «مُسفر».. إنه ميت.

تبادلت الفتاتان نظرات حيرى، كيف يريد منها أن تقدم له العون كي يقدمه لأخيه المتوفى. تساءلتْ «نرجس» وكأنها تحاول أن تسبر أغواره:

- وما أدراكَ أن «شفق» ستساعدكَ؟

أجاب بسرعة:

- لأن للأمر علاقة بشخص تحبه.

وقبل أن يتلقى سؤالًا، قال:

- الخالة «نوّارة».

اتسعت حدقتا «شفق» دهشة، ما علاقة «نوّارة» بأخيه المتوفى؟

أخذ «بحر» نفسًا عميقًا، ثم بدأ في سرد الحكاية.

كل ما احتاجه من «أكمل» أن يعرف مكان «بحر»، ثم توجّه من فوره إلى المستشفى التي لا يُفارقها مؤخرًا، حاملًا سلاحه الناري الذي سبق أن أطلق منه النار على «مدينة».

ارتأى أن أفضل نقطة لمتابعة ساحة المستشفى ومسحها بأنظاره أن يصعد إلى سطحها، وهكذا مكث منبطحًا على بطنه يُراقب المكان من جهاته الأربع.

كاد أن ييأس من ظهور «بحر»، ويتخلّى عن فكرة اصطياده من الأعلى، عندما ظهر أمامه أخيرًا، يقف قبالة فتاتين ويتحدث إليهما.

وجّه «جبار» سلاحه صوب موضع قلبه، واستعد للضغط على الزناد، لولا أن رأس الفتاة التي ترتدي الأسود كانت تتحرك لتكون ستارًا لموضع قلبه.

بصبرٍ كاد أن ينفد، استعد لتخيُّر اللحظة المناسبة، كي يطلق رصاصة

قاتلة!

لم يتردد في ذِكر فعلة أخيه، حين عثر على المخطوطة التي سرقها الأجنبي من الدير وسقطتْ منه في أثناء ركضه الطويل للهرب، وكيف أنه لم يُسلِّمها للدير عندما تمكّن من ترجمة لغتها السينائية وفهم أنها تُرشده إلى إحداثيات مغارة للفيروز.

وبوسوسة «جبار» باعها عن طريق «مستور» وقبض الثمن.

وقف كثيرًا عند ندمه وتوبته قبل موته، ووصيته أن يُزيل عن كاهله هذا العبء، وكلمة «فيروز» الممزوجة بكلمة «النمر» في وصيته، والتي كشف لغزها أخيرًا وبعد وقت طويل من الصراع مع أسئلة لا إجابات لها.

كانت اللحظة الأولى التي استعاد فيها حماسته تجاه وصية «مسفر» عندما رأى حجر الفيروز في يد شفق بموقع العمل، «شفق» بنت «النمر» تُمسك بحجر من الفيروز!

لا يمكن أن يكون كل ذلك مجرد صدفة عادية. من تلك اللحظة بات واثقًا من علاقة ما تجمع أباها أو شركته بـ «مُسفر» وجريمة الشرف التي اقترفها، لكنه لم يستطع أن يستجمع خيوط الحكاية، خاصة وأن الشركة لم تبدأ نشاطها بالعريش إلا بعد وفاة «مُسفر».

استمرت حيرته حتى اللحظة التي أودِع فيها زنزانة واحدة مع «مستور»، في الليلة التي ضرب فيها «أكمل»، حين قص «مستور» على أسماع الجميع قصته مع «مُسفر». إذ تعرف على «مُسفر» عن طريق «جبار»، صديق السوء الذي تعرف إليه منذ سنوات، وعندها باعه «مُسفر» المخطوطة الأثرية، واشتراها «مستور» منه لصالح «سميع الهلباوي».

عندئذ اكتملتْ أطراف الحكاية في قبضته، إذ كان قبلها قد التقى «بحر» بالخالة «نوارة» في بيتها، في الليلة التي تشجعت فيها «شفق» كي تخبرها بهويتها الحقيقية. ليلتها ظنَّ أن «نوارة» ستطرده من أمام بيتها لحظة أن تتعرفه، وأنها لا تزال تحقد عليه لتسببه في خسارتها لـ «مدينة»، لكن وكأن يد الله قد مسحت على قلبها فكان حليمًا باردًا.

وقتها أدركتْ الخالة جُرم فِعلها إذ حمّلته عبء أنقض ظهره، عندما صاحت به أنها لن تُسامحه أبدًا لتسببه في موت «مدينة»، أدركتْ الخالة أنها بكلمات قليلة الأحرف، كبيرة المعنى، قد أحدثت جرحًا عميقًا في نفسه، جرحًا لم يُشفَ إلا حين التقاها مرة أخرى، تُطفئ بكلماتها لهيب جرحه، وهي تشعر أن الله أطال في عمرها حتى ترفع عن «بحر» ما أوقعته عليه من عذابات:

- قد سامحتكَ منذ زمن طويل.. أعلم أنكَ لم تضمر السوء لـ «مدينة».. إنما هي الآجال إذا آن أوانها لا تستقدم ساعة ولا تتأخر.. يكفي أنكَ تعلمتَ أن التهور مَظلمة للنفس.. وأن حياة الآخرين ليست لُعبة في يدكَ.

ليلتها تحدثا طويلًا، تطرق الحديث إلى «شفق» وأبيها، علم ليلتها السر

الذي كتمته «نوّارة» عن الفتاة التي آحبتها كابنة لها، ووضعتها في قلبها في مقام «مدينة».

باحت بهذا السر لـ «بحر» قائلة:

- أراد «سهيل» ابني ملاقاة «شفق» يوم حادثة العمال لأنه سمع أنها تختلف عن أختها وأبيها.. ظنّ أن بإمكانها مساعدتنا على استعادة حقنا المسلوب.

وعندما تساءل «بحر» عن الحق المسلوب أجابته بأسى:

- جمع زوجي كل ما ادَّخره من أموال واشترى قطعة أرض قبل وفاته.. هذه الأرض سرقها رجل ظالم بوضع اليد.. لأنكَ كما تعلم يا بني.. نحن هنا في سيناء لا يُخوِّن أحدنا الآخر.. بعضنا يبيع ويشتري بغير عقود موثقة.. هذا الرجل استغلَ عدم استطاعتي إثبات أحقيتي في الأرض وسرقها لنفسه.

- مَن هو هذا الرجل يا خالة؟

- إنه الرجل الذي تعمل في شركته يا بني.. «منصور النمر».

والآن هو يقف أمام «شفق» ويقص عليها كل شيء، يعتصر الهم قلبه إذ كان الكاشف عن سوءَة أبيها التي حاول بكل الطرق دفنها في أعمق نقطة من الأرض..

تساءلتْ بألم، وبقلب مشتت:

- لماذا يفعل أبي ذلك؟

قال «بحر» بأسى:

- لأن أرض «نوّارة» كانت أقرب نقطة لمغارة الفيروز التي تتحدث عنها المخطوطة التي اشتراها شريكه من «مُسفر».. تحالف «سميع الهلباوي» مع أبيكِ وبنيا شراكة قوية.. وأرادا إخفاء ما سيحتاجانه من معدات حفر ورجال تأتي وتذهب وعمال تعمل عن طريق استغلال مجال الشركة في عمل مشروع إسكاني صغير بالقرب من مكان المغارة.. لم ينويا قط إسكان هذه الوحدة السكنية.. أو لعلهما كانا ينويان تسكينها لأشخاص تعمل لصالحهما حتى يقوما بحجة المشروع بفعل كل ما أراداه تحت ستار الليل.. الفيروز يُمكن التنقيب عنه من قِبَل البدو دون مشكلات.. لكن مشكلة أبيكِ أن الوثيقة التي أرشدته إلى المغارة كانت مسروقة.

ثم أضاف بحزم:

- كما أنني أظن أن المغارة لا تقتصر على الفيروز وحده.. ربما ظنّ «سميع» أن بها بعض الآثار المطمورة.. فأراد أن يجرب حظه.

كانت «نرجس» أول من استعادتْ توازنها بعد صدمة ما سمعت. قالت:

- ولماذا كل هذا الاهتمام بالفيروز؟

أجابها «بحر» وهو يتنهد بقوة:

- لأن سوق الفيروز آخذ في الانتشار بشكل عجيب.. خاصة على الإنترنت.. الفيروز حجر كريم اهتم القدماء المصريين بالبحث عنه في صحراء سيناء وجبالها.. نحتوا منه «الجعل» وكانت كالطوطم أو تمائم الحظ عندهم.. ويُعتقد الآن أن الفيروز له قدرة شفائية من الضغوطات النفسية والعقلية والجسدية.. وأنه يخفف من الاكتئاب والإرهاق وتقلبات المزاج.. كما أنه يُتّخذ كرمز أصيل للصداقة والحب.. فيتهادى به المحبون والأصدقاء.. ويُعتقد أنه يكشف مشاعر الإنسان وأسراره النفسية بتغير لون من يرتديه.. البعض يؤمن بهذه الأساطير تمام الإيمان.. وبهذه الطريقة يستغل بعض التجار هذه الأفكار المغلوطة لرفع ثمنه.. وبيعه بأثمان باهظة جدًّا.. يعني كأنكِ تملئين قبضتكِ بالرمال وتبيعينها بقيمة الذهب.

ساد صمت طويل، كانت «شفق» خلاله تُغالب البكاء، وقهر يتصاعد بداخلها، يُطعمها مر الحنظل. السبب في تدهور حالة الخالة «نوّارة» الصحية لم يكن «غراب» الذي سرق مال زوجها، بل أبوها نفسه!

كانت تتعجب من عدم التوفيق الذي ابتلى به أبوها منذ شراكته بوالد «أكمل»، الآن زال العجَب.

- آسف لأنني أخبركِ بهذا.. حاولتُ حل الأمر وحدي لكنني لم أستطع دون أن ألوِّح بكارت الترهيب..

- لكنني لم أشأ استخدامه.. لم أرد لأبيكِ أن يكرهني لأنني خشيتُ أن...

قطع عبارته، وأضمر بقيتها في نفسه:

- لأنني خشيتُ أن أخسر فرصتي الأخير معكِ.

تحركتْ «شفق» فتمكن «جبار» من رصد الموضع الصحيح للقلب، وقبل أن يضغط الزناد بثوانٍ فحسب فوجئ برجلين ينقضان عليه وينزعان السلاح من بين يديه.

وعندما استدار في مواجهتهما رأى «حَمَد» ومعه رجلًا آخر سمعه يُناديه بـ «طاهر».

لم يعرف «جبار» أن كمينًا كان ينتظره، أعدوه بعلم «بحر» خلال الأيام السابقة، وأنهما كانا ينتظران اللحظة التي سيظهر فيها «جبار» في المستشفى. كتّفاه جيدًا، حتى حضرتْ الشرطة للقبض عليه في الحال.

دارت «شفق» على أعقابها دون كلمة، تعدو داخل المستشفى، وقفت أمام «منصور النمر» وقفة فتاة تنصر أباها ظالمًا، بمنعه من الظلم واستتابته لرد الحق إلى أهله.

تساقطت العبرات فوق وجهها، وهي تقول بقوة:

- أبي.. لقد عرفتُ كل شيء.. إذا لم ترد للخالة «نوّارة» مَظلمتها.. سأخبر الصحافة بكل شيء.

استمعتْ «ثريا» برفقة «دهب» إلى حديثها، وقف الأربعة في مواجهة

بعضهم. آسرة صغيرة مفككة، تعرّتْ آخطاؤهم جميعًا، ولكي يعودوا وِحدة واحدة، سيقع على عاتقهم مهمة إصلاحها.

لم يكن حبس «دهب» في المصحة النفسية عقابًا، بل بداية لطريق العلاج. بعد فترة من الهدوء تمرّدتْ، وحاولت الهرب أكثر من مرة، حاولت افتعال المشكلات، والمشاحنات، بل والحرائق ذات مرة! تعبيرًا عن عدم رغبتها في الوجود خلف جدران مصمتة.

وكان دور الطبيب الذي اختاره والدها بعناية كي يُباشر حالتها، أن يُفهمها أولًا أنها مريضة وبحاجة للعلاج، وأن ثمة خللًا في كيمياء جسدها تستلزم علاجًا كيميائيًّا بجانب رحلة العلاج النفسي. وكانت أولى خطوات النجاح على طريق الشفاء هو اقتناعها بكل جُرم أجرمته في حق نفسها وحق الآخرين، كانت هذه هي الخطوة الأصعب، والتي ما تحققتْ إلا بمعاونة أحب الناس إلى قلبها، أختها «شفق».

تفرغت الدكتورة «ثريا» إذ أخذت من عملها إجازة طويلة الأمد، وأصبح شغلها الشاغل كيفية الوصول بأسرتها الصغيرة إلى شاطئ الأمان، أزعجتها المنغصات الصغيرة مثل كثرة القيل والقال ورميها بما تكره، وكلما خارتْ قواها وجدت في «شفق» دعامة تتكئ عليها، كما لو أنهما تبادلتا الأدوار.

ولم تتحسن علاقة «منصور» بابنته وزوجته إلا عندما فضّ الشراكة مع «سميع» وأعاد الأرض المنهوبة إلى الخالة «نوّارة»، ودفع تعويضات لأهالي العمال.

ولأنه لم يعتد في عمله السرقة أو الغش أو الخداع كان خجلًا جدًّا من صحبة السوء التي جرته إلى أن يستزيد من المال حتى وإن كان مالًا حرامًا منهوبًا، ويغطي على الخطأ بخطأ أكبر.

لم تتعجب «شفق»؛ إذ إن الصاحب ساحب، لو كان لها صديقة أخرى غير «نرجس» لما وصلت إلى ما بلغته الآن، ولعلها كانت الآن تقبع داخل حفرة من حفر الطريق لا تقوى على النهوض أو السير.

مرت الأيام مشحونة بالانفعالات والقلق، تتخللها لحظات طيبة تشاركوها كأسرة تتكاتف مع بعضها لأول مرة. مر كل شيء على ما يرام، سوى من ليالٍ سُهد طويلة، تُعانق فيها النجمات بعيون هدّتها لوعة الفراق، يجذبها الشوق إلى العريش، وبحرها، وصحرائها.. وأهلها.

تبحث دون إرادة عن وجهه من حولها في الطرقات، تتساءل في نفسها بحسرة: هل انتهت الحكاية عند فراق ما له من نهاية؟

تخبّط «جبار» كي ينجو من تهمة محاولة قتل «بحر»، سلّط الله عليه غباءه فجعله يصطحب معه السلاح نفسه الذي أطلق منه النار على «مدينة».

أرشد «بحر» الشرطة إلى قبر «مدينة» بغبطة من يتحرر من ثِقل الذنب،

ومن جثتها استخرجتْ الشرطة الرصاصة التي خرجت من سلاح «جبار».

انهار تحت وطأة التحقيق واعترف متفاخرًا أنه قتل زوجته التي مرّغَتْ شرفه في الوحل.

منذ تلك الليلة التي ماتت فيها «مدينة» لم يصدق أي رجل ولا امرأة ولا طفل من قبيلتها أن الفتاة التي يفخرون بحُسن أخلاقها قد تأتي بكبيرة من الكبائر، وأن الفتاة التي كانت تتحدى أباها وتتحمل ضربه وغلظته كيلا تأتي بما حرّم الله، أن تُقدم على فعل شائن.

لم يصدق «جبار» أحدًا، لذلك لم ينقذه أحدٌ، أعلن الشيخ على الملأ أنه قد تبرّأ من «جبار» وأبوته.

لم يجد «طحنون» من يشتري منه أو يبيعه بعد موت «مدينة» وأمها، أدركَ حين خسر كل شيء أن الناس كانوا يكرمونه من أجل «مدينة».

وعندما ذهبت «مدينة» لم يبقَ له عندهم حظوة.

طردوه خارج القبيلة، فارتحل من مكان إلى آخر.

نام تحت قيظ الشمس الحارقة، وتقرّحتْ قدماه من السير الطويل فوق الرمال الملتهبة، قرصته العقارب، ولدغته الثعابين، وأكلَ السحالي والجيّف.

حتى لفظ أنفاسه ساقطًا من قمة صخرية أوهمه السراب أنها بركة ماء، دنا ليشرب منها فتهاوى من عَلٍ.

ذات ليلة، كانت تبث النجمات ما يفيض به قلبها من أشواق، سمعتْ جرس البيت، وما إن فتحت الباب حتى تسمّرتْ في مكانها!

كان هو، بشحمه ولحمه، والجرح فوق وجنته، يرتدي حُلة أنيقة سوداء، تشبه تلك التي ارتداها يوم أن قابلته أمام المحكمة، لا يشبه عاملًا أو رئيس عمال، بقيَ هذا اللغز عصيًّا على فهمها.

نظرت من فوق كتفها ثم قالت له بخوف جلي:

- ماذا تفعل هنا؟ أهلي في البيت!

لاحت فوق ثغره بسمة رائقة، أخفاها سريعًا ثم قال بجدية بالغة:

- وهل كنتُ سآتي لو لم يكن أهلكِ بالبيت؟ أبلغي والدكِ أنني جئتُ لزيارته.

تسرب الخوف من بين مسامها. قالت هامسة باضطراب:

- ارحل.. لو رآكَ أبي أو سمع باسم «غراب» سيُجَن جنونه.

لاحت فوق ثغره بسمة أكبر من سابقتها، لم يخفِها هذه المرة. قال:

- قولي له «بحر» إذن!

اتسعت حدقتاها دهشة، تحركت شفتاها تتمتم بكلمات لم يسمعها. مجيء دكتورة «ثريا» وهي تستنكر وجوده أمام الباب دفعه لأن يقول لها بجدية بالغة:

- هل تترك عائلة «النمر» ضيوفها آمام الباب؟

لم تكن ردة فعل «منصور» بأقل استنكارًا من زوجته، لكنّه مُرغمٌ على الترحيب بضيف أتاه من سفر طويل جالَسَه بمفردهما، فيما استرقتْ «شفق» السمع من مكان قريب.

استهل كلامه بـ:

- أعرفكَ بنفسي.. أنا «بحر» ابن قبيلة «السوارفة».

استرعى حديثه دهشة «منصور»، وابنته التي تستمع من خلف الباب، فاستمعا إلى حكايته.

كل كلمة حكاها، وكل منحنى عرج من خلاله كان يدفع بدفقات من المشاعر تجتاح قلبها وأطرافها، فاضت عيناها مرات، وشعرت بكسرة وحسرة، امتلأت بها حروف حكايته.

ما خفق قلبها يومًا مثلما خفق عندما عرج في حكايته على قصتهما التي بدأت من تحت الأنقاض.

أراها الجانب الآخر من الباب، وضع صورة متحركة للصوت الذي عشش في ذاكرتها، يحكي فترى في خيالاتها صورته وهو متكئ على الباب يُعاقر الخيبة والألم، مثلها.

فهمت الآن ذاك الرابط الخفي الذي وحّد شعورهما تلك الليلة، لم يكن ذلك بسبب وقوعهما في المأزق نفسه، بل لأنهما أتيا من الماضي القاسي نفسه، وتلاقيا في الحاضر الذي وحّد دربهما لسويعات، فرغبا في تمديد الزمن، وسحب خيطه حتى آخر نقطة في أفق المستقبل.

ومن هذه النقطة طلبها من أبيها كي يُبني معها عشًا يجمعهما، يسكنان إليه ولا يُفرقهما.

لكن الرياح لا تأتي دومًا كما يشتهي الربان، لم يُحرك حديثه شعره من جسد «منصور»، نهض طاردًا إياه من بيته غير آبهٍ بقواعد الأصول واللياقة.

ظنّ «بحر» أنه خرج بخفي حنين، ولم يعرف أنه بحكايته قد أشعل نيران إرادتها، وفعّل إدراكها؛ أيقنتْ أنها تريد أن تخوض من أجل هذا الرجل حربًا لا تهدأ إلا بإحدى الحُسنيين، إما الفوز.. أو الفوز!

لم يحاربا على جبهة واحدة، إذ تمنعهما القواعد المقدسة من الحديث أو التلاقي، كل منهما حارَب منفردًا في جبهته.

تعلّم «بحر» من الزمن أن أخذ الحق حِرفة! فلم يزل في خطأ التصرف بتهور غير محسوب عواقبه. اتصل بـ «منصور» مرات عدة، ليسأل عن حاله، أو ليحثه على التفكير مرة أخرى في رغبته في الزواج من «شفق»، وكلما لاقى من «منصور» صدًّا؛ ازداد هو حلمًا وصبرًا.

في ليلة العيد استقبل «منصور» على مكتبه وردًا ورسالة، كتب «بحر»

فيها: ليلة عيد وكلٌّ يهادي من يحب، لكن من أحبها يمنعني عنها أبوها.

مزّق «منصور» البطاقة وألقى الزهور في سلة القمامة. وذات يوم وجد رسالة على هاتفه: أوشكتُ على الانتهاء من صب أساسات البيت.

فانفعل غيظًا وغضبًا وحذف الرسالة ثم ألقى بهاتفه فوق مكتبه. وفي يوم عرف «بحر» أنها مريضة، فاتصل بأبيها يطمئن على حالها، وعندما نهره «منصور» قائلًا:

- هل تخدعني؟ أعرف أنكَ تتحدث إليها وتعرف منها أخبارها.

كظم «بحر» غضبته قائلًا:

- مَن ظننتني؟ أنا رجل بدوي.. والرجل عندنا لا يتعدّى على حرمة بيت، ولا يسرق منه ما لا يحل له!

وذات يوم ظهر «بحر» أمامه في أحد المطاعم، جلس أمامه دون دعوة وقال:

- هل أعدتَ التفكير في عرضي؟

فانفعل «منصور» طالبه بنبرة خافتة لا تلفت النظر:

- لن أعطيها لكَ ولو انطبقتْ السماء على الأرض.

لم تهتز من «بحر» خلجة، سأله بهدوء:

- وما سبب رفضكَ؟

أجابه «منصور» بترفع وهو يعود بظهره إلى الوراء:

- أنتَ لا ترقى لها.. حتى وإن كنتَ ابنًا لشيخ قبيلة.

ولأن الحسب والنسب هما أشرف ما يستمسك به «بحر» ويعتز به؛ مال صوبه وقال بحزم وصرامة:

- وهل خطيبها الأول الذي ارتكب جريمة مخلة بالشرف يرقى لها؟ أم خطيبها الثاني ابن السارق الذي يتحدث عنها بسوء في كل مكان ويُعرّي ضعفها ويكشف أسرارها شامتًا على صفحات الإنترنت يستحقها؟

رأى اضطرابًا تجلّى فوق وجه «منصور» الذي أشاح بوجهه عندما عجز عن الرد. نهض «بحر» يقول بهدوء واتزان كبيرين:

- وقتًا طيبًا حتى لقائنا الآخر.

وكان على خط النار الآخر ثمة ضربات قوية تنزل على «منصور» من داخل بيته، أحيانًا يجد بطاقة بجانب طعام الإفطار الذي تفننتْ «شفق» في إعداده، تسبغ عليه كلمات الثناء ثم تختمه برجاء الموافقة على طلب «بحر».

فيمزق البطاقة ويلتزم الطعام بنهم أمام عينيها الحزينتين. أصبح يجد بطاقاتها في كل مكان، جوار الفراش، فوق مرآة الحمام، في السيارة، في مكتبه، وفي جيوبه!

وفي كل منها رجاء، أو دعاء، أو كلمة ثناء، وأحيانًا ترسم له قلبًا مكسورًا،

أو عينًا تبكي، أو بوحًا نفسيًّا وكأنها تُحادث إحدى النجمات.

وعندما ينفعل في وجهها مطالبًا إياها أن تتوقف عن هذه الألاعيب المراهقة، تعانقه على حين غفلة، عناقًا قويًّا لا تطالبه فيه بشيء، فقط تبكي على صدره، فيبعدها إذ يستشعر ضعفًا في نفسه، وميلًا إلى إرضائها.

ثم تعاود التسليح بكلمات تستدر بها عواطفه، تجمعها في بطاقات ورسائل تأتيه على الإنترنت وعن طريق البريد. حتى لم يبقَ لها سوى أن تكتب له على الجدران.

كانت تستمد ثقتها في الفوز من المقولة «الزّن على الودان أمَر من السحر». ولطالما كانت من الذكاء العاطفي لأن تُدرك الكلمات التي تُحرك مشاعر أبيها، وتلك التي تُليّن فِكره.

لم تتعامل مع الدكتورة «ثريا» بحسبة العواطف، بل كانت تناقشها كثيرًا بالعقل والمنطق، ولا تهتم بالخروج من كل نقاش فائزة، بل تترك لأمها فسحة لتظن أنها قد تغلّبتْ عليها بالمنطق، ثم تتسلح بالمنطق وتناورها في جلسة أخرى، تُباغتها من حيث ظنّتْ أنها قد تقهقرت خاسرة.

تعرف أن معارك الوقت يفوز فيها الأطول نفسًا، تمامًا كما أخبرتها «نرجس»، والتي كانت تتابعها هاتفيًا طوال هذه الفترة، وتمنحها مشورتها وأفكارها، تبذل جهدها كي يلتقي البحر بالشفق!

حربٌ طويلة استنزف فيها «منصور» كل الغضب، حتى أصبح يتلقى مكالمات «بحر» ورسائله بشيء من البرود، وكأن الغضب الطويل قد أرهقه. وعندما زلَّ لسان «منصور» أمامه:

- أنتَ هنا وهي في البيت!

نمَتْ حديقة من البهجة في صدره، هي إذن تُحارب إلى جنبه، وتشتهي الوصل مثله. أدرك «بحر» أن «منصور» على أعتاب الاستسلام، ومن ثم الرضوخ والإقرار بأنه الرجل الذي يستحق ابنته وتستحقه.

وبعد أيام وأسابيع وشهور طويلة ظهر «بحر» أمامه في المصعد، يبتسم ابتسامته الكبيرة المعتادة كلما التقاه؛ أطلق «منصور» تنهيدة عالية، وأشاح بيده قائلًا بصبر احترقتْ شمعته:

- خذها!

تهادتْ نظراتها في المرآة فوق فستانها الزيتوني الطويل، به زهرات بيضاء صغيرة مشرقة كإشراقة ثغرها تدور «نرجس» من حولها، تضبط كسرة، وتعدل معوجًا، تُتمم على خط الكحل فوق عينيها، ولون وردي سكن شفتها.

وما إن رن «جرس» الباب، حتى انتفض قلبها طربًا، ودنت من باب غرفتها بحماس لم يهدأ ولم يفتر وهي تستمع إلى صوته الرخيم بعد زوال البحة.

رغمًا عنها اتسعت ابتسامتها، وكأنها تستقبله بها، ومنعها الباب المغلق

من آن ترى بسمة مماثلة التصقتْ بوجهه منذ آيام وليالٍ، لا يكاد يذوق غمضًا حتى يستيقظ بفزع، يخشى أن تجهيزات كتب الكتاب ما هي إلا حلم جميل يساوره.

جلس و«حَمَد» مع «منصور» و«ثريا»، ورجل يراه للمرة الأولى عرف أنه عمها، و«طاهر» الذي قرّبتهما الظروف ووحدتهما اختبارات الأخلاق، تنازل «طاهر» بسهولة شديدة عن السبق الصحفي الذي كان بإمكانه أن يُمرِّغ به اسم «منصور النمر» في حصل الصُحف الصفراء، فقط من أجل أن يلتقي البحر بالشفق!

ورغم أن الجلسة كانت متحفزة، إذ لا يزال يرى عدم القبول التام في وجه «منصور»، وخوف كبير تفضحه عين «ثريا» المتوجسة من قرار لا تستطيع أن تُجزم بصوابه وحكمته، خاصة وقد أوضح لهما أنه سيد الرمال، وسيد الرمال لا يفارق أرضه أبدًا.

وعندما وضع الرجلان كل منهما يده في يد الآخر، تلاقت أعينهما، وأفصحت نظرات «بحر» عن وعد صارخ بـ: «سأصون الأمانة التي وضعتها بين يدي»، حاول «منصور» أن يطرد الهواجس من رأسه، وهو يومئ له بعينيه أن: إن لم تفعل سأحاسبكَ.

دنتْ «شفق» من المجلس تُقدم شوقًا وتؤخر لهفة؛ حدّجها «بحر» بنظرة صارمة! ثبّتتها في مكانها. سحبتها «نرجس» وهمست في أذنها: رجال البدو لا يحبون ظهور نسائهم مع الرجال في المجلس نفسه، إنهم يغارون بشدة.

والغيرة ملح الحب وأساس نكهته، أخفت طرفها عن المكان حتى أوشك الجميع على الرحيل. تباطأ «بحر» في سيره، وتأخر في الوصول إلى الباب، ثم وقف متململًا بينما يخوض «حَمَد» و«طاهر» مع «منصور» حديث عمل. سمع من خلف ظهره:

- هششش.

التفت بكامل جسده، واتسعت ابتسامته حتى بدَت نواجذه، وقفا متقابلين، يلفهما شوق اللقاء، كلهفة البحر لمعانقة الشفق. تلاقى الأسودان، تمرٌ رطبٌ وماءٌ مُنهمر!

وقفت «ثريا» على مقربة منهما ترفع حاجبًا، حدجاها بنظرة فاترة، فلم تبتعد. ودّ «بحر» لو يكتب لها من كل موجة حكاية، ثم يقصها على أسماعها، ويأخذها في رحلة إلى الأعماق، حيث السمك والخيرات، واللؤلؤ في بطون المحار، والكهوف المظلمة، والسفن الغارقة، والأغراض المفقودة، وكل ما ابتلعه البحر بغير رغبته.

وأرادت أن تمسك بيده وتأخذه في رحلة صوب الشفق، حيث الألوان تتهادى كي تُعانق بعضها، حيث الحرارة والدفء وسحب مبهجة، حيث اللون الدامي للشمس، وما يؤلمها وينقض ظهرها.

لكن نظرة «ثريا» الفضولية وأسماعهما الحادة كانت حاضرة. أخرج «بحر»

من جيبه قلمًا، وتسابقتْ آنامله كي تلتقط كفها، ولأنها حافظتْ على اللمسة الأولى من أن تُهدَر في الطرقات وفوق الأرصفة، كان لوقعها مذاق السحر، تزلزل قلبها برجّة مُباغتة، وأشرقت نجمتان لامعتان في عينيها، فقرأ في وجهها حكاية كانت تقصها «أم ذيل» عليه وإخوته.

وفي باطن كفها كتب بالقلم، ببطءِ مَن يملك الزمن أسيرًا في قبضته، وبدقةِ مَن يرسم لوحة تحتل جدران المتاحف لبراعتها. انتهى وناولها القلم، وكفه الآخر بسطه أمامها.

مالت برأسها لتقرأ على كفها رقم هاتفه، متبوعًا بتوقيع باسم «الصوت».

كتمت ضحكة ساحرة، وأمسكت بالقلم تخط فوق راحته رقمها، برقةِ مَن يكتب شعرًا أو ينسج من الحروف نثرًا مُبدعًا، تكتب رقمها ممهورًا بـ «حافية القدمين».

نظر كل منهما لكفه وكأنه مخطوطة قيمة، أخرج من جيبه شيئًا ذهبيًا لامعًا، تدلّى من يده، فرأت نجمات تصطدم ببعضها وتصدر صوتًا آسرًا.

مال أمامها ولفه حول قدمها، أخيرًا وجدت نجمات الخلخال مدارها المفقود، وحول قدمها تراقصتْ بشوق معقود.

افترقا لدقائق لم تطُل، ثم تلاقى صوتهما في رحلة طويلة دامت ليلة بأسرها، بغير أبواب موصدة، أو قيود مانعة، كلما زرع راية شوق؛ وجدها تنصب مثلها.

استهل حديثة بـ:

- عثرتُ عليكِ يا حافية القدمين.. قيّدتُ قدمكِ بنجماتي ولن يسمحن لكِ بالهرب أبدًا.

ابتسمت تقول بمعاني تروح وتغدو وتطأ بقاعًا متباينة، بينما تتأمل خط يده المنقوش فوق كفها:

- الهرب فِعل الجبناء.. أنا أواجه الأقدار بشجاعة الآن.

على طول الأرض الممتدة، والتي طالتها أيادي الإصلاح، بدأ اللون الأخضر في الانتصار على جحافل الجيوش الصفراء، ومن الأخضر نبتَ الأصفر والأبيض والأحمر، استطال الزرع، وطاب الثمر.

ومن خيرات أرض «نوّارة» وزّع «بحر» على كل محتاج، صدقة جارية عنها وزوجها وابنها و«مدينة».

هكذا أوصته بينما كانت ترقد على فراش الموت، رأسها يستقر فوق صدر «شفق»، تُمطرها بماء عينيها وحتى الشهقة الأخيرة.

ولأن الأعمال بخواتيمها، كرّمها الله بما يُثقل موازين حسناتها حتى وهي غائبة في عالم البرزخ، جادتْ بأيادي الكرم على المحتاجين من أهلها وصحبها وأهالي العمال الذين فقدوا عائلهم.

هناك من يموت فلا تفتقده حشرة ولا دابة، وتسقط ذكراه من عقول الناس في اللحظة، وهناك من يفارق الحياة فتبكيه قلوب شتّى، وتوشم ذكراه فلا تُنسَى.

حملت «عين» كل ما يحتاجونه من أغراض، بينما «حَمَد» يتعجّلها بحماس:

- تأخرنا يا «عين».

تركتْ «بدر» كف أبيها، وجرت صوب «عين» كي تحملها، أمسك «حَمَد» بأغراضهم ولم ينقطع حديثهما طوال الطريق إلى البيت، كان قلقًا متوجسًا مما سيحدث اليوم.

تظاهرتْ «عين» أنه يومًا عاديًّا ستمضيه في بيت «أم ذيل» ككل الأيام التي يتجمعون فيها، لكن التوتر كان باديًا على «حَمَد» بوضوح، فنبّهته ضاحكة:

- وجهكَ مقروء يا «حمد».. تفضح نفسكَ بنفسكَ.

استحال التوتر خوفًا حين رنّ هاتفه. مال على أذنها هامسًا:

- لقد وصلا.

ثم سكن ولم يتحرك، فهزت كتفه قائلة:

- هيا اذهب يا «حَمَد» ماذا تنتظر؟

تجلّى الجزع في عينيه وهو يقول:

- صحيح أنني صاحب الفكرة.. وأنني ألححتُ وأصررتُ.. وكنتُ أراها فكرة جيدة في حينها.. لكن الآن تبدو لي وكأنها أسوأ فكرة على الإطلاق.

هدأتْ «عين» من روعه قائلة:

- ليست فكرة سيئة.. أنتَ متوتر فحسب.. حتى وإن انتهى اليوم بشكل سيئ.. أنتَ ستكون راضيًا عن نفسكَ لأنكَ بذلتَ كل ما في وسعكَ من أجل عائلتكَ.

استقرتْ نظراتها فوق وجهه، نظرات تقدير مُبطنة بالود وهي تقول:

- أنتَ رجل ذو قلب ذهبي يا «حَمَد».

والذهب تزداد قيمته بمرور الزمن، المعدن الذي لا يرخص أبدًا، هكذا كانت نظرتها لزوجها، بعد عشرة قرّبتْ كل واحد منهما إلى الآخر، سكنتْ إليه، وسكن بها.

رنّ الهاتف ثانية، فانتفض «حَمَد» من مكانه، وعندما سألته «أم ذيل» بدهشة:

- إلى أين تذهب.. الطعام صار جاهزًا.

لم يمنحها جوابًا، بل نظرة طويلة تقول كل شيء، فهمتها «أم ذيل» في الحال، فارتجفتْ أوصالها، وتسابق الدمع في عينيها، وصنع الحنين من

جسده رداءً وألقاه فوق كتفيها.

في الخارج وقف «حَمَد» يستقبل سيارة تشق طريقها عبر الرمال ثم تتوقف أمام البيت، يخرج «بحر» من أحد أبوابها، وزوجته من الآخر، ترتدي زيًّا بدويًّا وبرقعًا لا يتبدّى منه إلا عينيها.

لم يفُته ملاحظة أن أخاه يُعاني القلق أضعاف ما يحتشد في صدره، حتى عندما سلّم عليه وعانقه شعر بارتجافة مسّتْ أطرافه، وبأنفاسه تلهث متلاحقة.

يُمرر «بحر» أنظاره بِولَهٍ على كل شيء من حوله، يبث كل شبر من القبيلة شوقه، ركع قابضًا على حفنة من الرمال، اعتصرها شوقًا، وتركها تنساب من بين أناملها مُحملة بحرارة الذكرى.

يخطو خطوة فيتذكر حدثًا وقع هنا بجوار الصخرة، وضحكة أطلقها هناك بجوار النخلة، ودمعة وحسرة وغبطة وفرحة. كل حبة رمل كانت تحمل منه ذكرى، احتفظت بها حتى اللحظة.

ما إن خطَّ أول خطواته داخل البيت حتى تجلّتْ «أم ذيل» أمام ناظريه، تكتم بكفها صيحة اشتياق، وصرخة لوعة.

كادتْ أن تُذهِب المفاجأة بوعيها، تلقفها «بحر» بين ذراعيها وقد اختلط البكاء بالبكاء واللهاث باللهاث والعرق بالعرق.

تبكي فوق كتفه، تمسح وجهه، تخط بأناملها فوق ندبته، وفوق تجاعيد صغيرة بجوار عينيه، وكأنها تُعيد رسم ملامحه وتقاسيم وجهه.

يفوح اسمه عبيرًا شجيًّا من بين شفتيها المرتعدتين:

- «بحر»!

فيقع على أذنيه نغمًا، يُقبّل منها كفًا وكتفًا وعينًا ورأسًا، يأخذ براحتها ويضعها على ناصيته كما كان يفعل، فتتلو من الذِكر الحكيم آيات شافيات تُذهب عن عقله سوء الفِكر وتحمي قلبه من اللوثة.

يدخل الشيخ مُستندًا إلى ذراع «حَمَد»، تُباغته المفاجأة، يترنح جسده، ويخط الشيب سنتيمترات أخرى من رأسه، يطرق «بحر» برأسه أرضًا، لا يقوى على رفع عينيه في وجه أبيه.

ينتصب الشيخ في وقفته، ثم يخطو صوب «بحر» ببطء، بينما المُقَل تتسع في ترقب، ينهال على وجهه بصفعة! هزيلة، مُترددة، تلوم أكثر مما تُعاقِب، تبكي أكثر مما تصرخ. يُطبق الشيخ بشفتيه على بعضهما بقوة، ترتعدان رغم القوة، تشي عيناه بوهن وضعف وشوق وحسرة.

يرفع «بحر» عينيه صوب «حَمَد» يسأل: هل أرحل؟

فتُثبته عين «حَمَد» وتدفعه ليُمسك بكف أبيه مقبلًا، ولسانه يتهدّج أسفًا:

- سامحني يا شيخ.

ولم يدرك أنه أنزل على نفسه عقابًا طويلًا سُدى بينما قلب الشيخ كان ينتظر منه كلمة، حتى وإن تظاهر أمام الجميع بالقسوة!

أيقسو قلب أب يحتاج ابنه عكازًا لأيام المشيب والوهن؟ لا والله لا يقسو، وإن تظاهر بالقسوة.

الشيخ الذي يكره البكاء، ويتهم «حَمَد» بالضعف حين يراه دامع العينين، تقافزت العبرات تشق في عينيه نهرًا، أشفق «بحر» عليه من هول المنظر، فأمسك برأسه يُدفنها بين كتفه ورأسه، يُجنبه ما يكره.

حلّتْ «شفق» على بيت الشيخ ضيفًا يستجلب الصمت، والكثير من النظرات المُستكشفة، الفضولية الفاحصة.

كانت تُعد نفسها منذ أيام وليالٍ لما سوف تقابله في أرض «السوارفة»، لم تخطئ مثل «عِيدة»، لم تنتظر قلبًا يحتوي قبل أن تُهيئ الطريق لهذا القلب وتُمهده.

تحلّتْ بصبر، وبسمة لا تفارق شفتيها، خاصة وهي تتقرب من «أم ذيل» بالود تارة وبالحب تارات أُخَر، كيف لا تحبها وهي من أنجبت لها بحرًا كبيرًا باتساع كوكب؟

وحين جمعت «أم ذيل» أحفادها حولها، جلست «شفق» على مقربة منهم كأنها حفيد جديد حطَّ على مجلس الحكايات خاصتها. وحين بدأت في سرد حكاية جديدة عن نجمات وسيد رمال تاهت قافلته في الصحراء؛ اتسعت عيناها شغفًا، ترقّبتْ تفاصيل الحكاية باستمتاع الأطفال.

جاورتها «عين» في جلستها، تتدلى من رقبتها قلادة ذهبية كبيرة تُشكل كلمة «حَمَد». بادلتها همسة وبسمة تقول:

- أتحبين الحكايات؟ زوجة عمي تقص حكايات عجيبة.

همست «شفق» بدورها:

- أحبها كثيرًا.

تبادلتا النظرات للحظات طالت قليلًا، ولم يخفَ معناها على «أم ذيل» التي استرقتْ لهما النظرات بينما لا تزال تقص على أسماع أحفادها تفاصيل الحكاية.

وكأن الفتاتان قد عقدتا بالنظرات معاهدة صُلح طويلة، يُنهيان بها حربًا قبل أن تبدأ. راية سلام رأتها كل منهما في عيني الأخرى، فاتسعت ابتسامتهما بهجة.

وحين استيقظتْ «بدر» النائمة في حضن «عين» ابتسمتْ لها وقبّلتها. دعت لها «شفق» وهي تُلاطف الصغيرة:

- رزقكِ الله لها أختًا أو أخًا.

- أنا لا أنجب.

قالتها «عين» بهدوء، ولم تعلم «شفق» أنها من أجل هذا الهدوء قد قطعت طريقًا طويلًا من البكاءِ والليالي الموحشة، ثم أدركتْ حكمة ربها بغتة في لحظة من لحظات السحَر، إذ إنه بحكمته قد قدر كل هذه المقادير التي

ظنّتها بعلمها الضئيل شرًا، فقط لأنه آراد بها خيرًا.
الآن صار لديها ابنة مثل البدر ستدعوها بأمي، لو خيّرها الله بين كل المقادير وأطلَعها على الغيب لاختارت ما أوقعه الله بعلمه ورحمته.

عندما خلت الغرفة إلا من «أم ذيل». مالت «عين» على «شفق» تهمس لها:

- زوجة عمي تحب «اللَّصيمة».. هيا أعلمكِ إعدادها.

وقفتا متجاورتين في المطبخ، تُعدّان الأكلة البدوية بطقوسها الخاصة، والتي تخطف قلب «أم ذيل» ويتقرّب بها زوجات أبنائها إليها.

تُمسك «شفق» بالسكين تصنع سلطة «اللَّصيمة»؛ تُقطِّع الباذنجان والطماطم وفلفل عرايشي حار وزيت زيتون و«العَجَر»، وعندما سألت «عين» ممّا يتكون هذا «العَجَر» أجابتها:

- بطيخ صغير لم ينضج بعد مشوي على الفحم.

بينما تُعد «عين» قرص الخبز من دقيق أسمر وأبيض وماء، تُفردها بقبضتيّ يديها وتصنع منها قُرصًا دائريًّا، أخذت تُسوِّيه على رمل ساخن ومن فوق وضعتْ الفحم.

انتهيا من إعداد «اللصيمة»، أمسكتْ «شفق» بالصينية تُقدم رجلًا وتؤخر الأخرى. لمّا رأتْ في عيني «شفق» قلقًا بددته بقولها وهي تمنحها ابتسامة كبيرة:

- لا تخافي لن تأكلكِ.

بادلتها «شفق» ببسمة، ولما دخلت على «أم ذيل» الغرفة تُقدم لها ما أعدّته تفاجأتْ كثيرًا، ثم أشارت لها بالجلوس.

لطالما سمعتْ «بحر» حكايات عن أمه وطباعها، وقوتها وحنكتها، ومرآها رؤى العين أيقظ في نفسها الرهبة.

رهبة أحستْ بها «أم ذيل» وهي تتأمل قسماتها بإمعان بينما تأكل من طعامها المفضل. لا تنكر أنها تشعر بحاجز داخلي تجاه الفتاة التي لا تنتمي للسوارفة، ومن طينة غير طينتهم، وطباع غير طباعهم، وعادات لم يألفوها وتألفهم.

لكن ارتدائها للزي البدوي وإعدادها لأكلة بدوية شهيرة أضفى عليها بعض الألفة، وقسماتها الهادئة المترقبة قرّبتْ بينهما خطوة. فخطّتْ «أم ذيل» الثانية وهي تُخرج قلادة ذهبية من علبة وضعتها بجوارها، تهديها إلى «شفق» وتقول:

- اشتريتُ سبع قلادات بأسماء أبنائي وأهديتها لزوجاتهم.

أمسكتْ «شفق» القلادة تتأمل حروف كلمة «بحر» تتحسسها بحنان. ابتسمتْ تشكرها على عطيتها. فقالت «أم ذيل» بقوة ووضوح:

- إن قلتُ أنني سعيدة بزواجكما سأكون قد كذبتُ عليكِ.. لكنني كذلك لا

أحمل لكِ ضغينة في قلبي.. كل ما أريده ألا أحرَم من ولدي.

رأتْ «شفق» في عينيها خوفًا حقيقيًّا، هذه المرأة التي شعرت بالرهبة في حضورها تخشاها! خافتْ أن يَحول زواجها بـ «بحر» وإقامتهما في «العريش» من فراق طويل الأمد بينها وولدها.

بددتْ «شفق» مخاوفها بأن وضعت كفًّا فوق كفها وابتسمت قائلة:

- رأيت البحر يثور فتبتعد أمواجه تارة وتقترب تارة.. لكنني لم أرَ من قبل بحرًا يُفارق أرضه.. هل رأيتِ أنتِ؟

لاحتْ على ثغر «أم ذيل» ابتسامة رائقة، اطمأن قلبها وسكنَ.

السير في أرجاء القبيلة والتوجه إلى مسجدها كان شاقًّا جدًّا على نفسه، لا يعرف كيف سيستقبله الناس في الطرقات. هل سيفتحون له أحضانهم ويتلقّفونه بالأشواق، أم سيرجمونه بأفعاله السابقات؟

انتشر الخبر انتشار النار في الهشيم، وفي لحظة وجد نفسه محاطًا بأصدقاء الطفولة وأقران الصِبا، هذا يُعانقه وهذا يُمازحه، هذا يبثّه الشوق وهذا يرميه باللوم.

حشدتْ عيناه جنودها، يسوقون الحنين والفرحة والندم، ويرفعون لواءً بلون النجمات وبريقها.

وحين التقى بعمه «برهوم» واقفًا أمام المسجد، وقف أمامه ساكنًا للحظات، قسمات عمه جامدة، تشي نظراته بعدم الرضا. أقبَل «بحر» على رأس عمه مُقبّلًا، وبكثير ندم مُستسمحًا.

صُدم «برهوم» مما رأى، انكسارًا في نظرات «بحر»، ورِقة في طبعه، ولينًا في كلماته، وكأن الجرح الغائر في وجهه كان بوابة عبر خلاله الزهو والكِبر والعُجب، فتطهّرتْ دماؤه وحسُنتْ طباعه.

ولم يعرف «برهوم» أن الزمن خير مُعلِّم للإنسان، وأن الابتلاء بوابة عُظمى لتطهير النفس من الزهو.

هو أيضًا علّمه الزمن كيف جارَ على ابن أخيه بمحاولة تزويجه بابنته قسرًا، وأن لكل فعل رد فعل لا يُشتَرط أن يكون مكافئًا له في القوة، لكنه بالتأكيد معاكس له في الاتجاه.

ردد «بحر» بصدقٍ:

- آسف لما فعلته بكَ وبـ «عين» يا عماه.

رفع «برهوم» رأسه بإباء يقول:

- لا شأن لكَ بـ «عين» إنها في أحسن حال.

ظنّ أنه سيُغضِب ابن أخيه بمقولته، على العكس أبدَى «بحر» لينًا كبيرًا وهو يقول بصدقٍ:

- أعرف ذلك.. فـ «حَمَد» أفضل مني.. نجّاها الله مني وأهدى إليها

«حَمَد».

لانتْ قسمات «برهوم» قليلًا، وبفضول جابتْ نظراته المتفحصة في وجه «بحر» يُحاول استكشاف كل ما تغيّر به خلال غيبته. همّ بدخول المسجد، ثم توقف والتفت إلى «بحر» يقول بغلظة مصطنعة:

- ما بكَ تقف مثل الصنم هل تركت الصلاة؟

قالها ودخل المسجد من فوره. فابتسم «بحر» حتى بدتْ نواجذه.

توجهتْ «شفق» إلى حيث يرعى «بحر» جماله، وقفتْ مبهورة أمام جملٍ أصيلٍ ذهبي الشعر، ودّتْ لو مسّت شعيراته إلا أنها خافت أن تأتي بحركة تستنفر غضبه.

سمعت ضحكة رائقة من خلفها، التفتتْ إلى «بحر» الذي قال:

- هذا لا يليق أبدًا بزوجة سيد الرمال.

أناخ الجمل، ثم أمسك بيدها ثم يُمررها على شعره برويّة. اقشعر جسدها وهي تلمس هذا الحيوان لأول مرة.

افتر ثغرها عن ابتسامة واسعة. بادرها:

- هل أنتِ بخير؟

التفتتْ إليه فقرأتْ في عينيه قلقًا، ابتسمتْ مؤكدة:

- لم يزعجني أحد.

سألها بشكٍ خفيف:

- أواثقة؟

وقعتْ أنظاره على اسمه يضوي فوق صدرها بلون ذهبي، فاطمأن قلبه وفتر شكُّه. التفتتْ له بكامل جسدها تقول بجدية بالغة:

- أريد أن أسألكَ شيئًا.. هذا السؤال سألقيه مرة واحدة ثم لن أتحدث بشأنه مطلقًا.

تحفّز في وقفته، جابتْ أسئلة كثيرة برأسه، لم يهتدِ إلى السؤال الذي يدور برأسها. فوجئ بها تقول بجبين مُتغضِّن:

- مما حكيته لي أدركتُ أنني لستُ «مدينة».. وظننتُ أيضًا أنني لستُ «عين».. لكن عندما رأيتها اليوم شعرت أننا قريبتان إلى حد كبير.. وكأنني «عين» أخرى.

رفع كفه ومست بأنامله شفتيها يمنعها من الاسترسال في الحديث. ثم قال بصدقٍ بالغ وهو يقف أمامها عين بعين وقلب بقلب:

- أنتِ لستِ «عين» أبدًا.. ولستِ «مدينة» ذلك.. أنتِ لا تشبهين غيركِ.. وهذا هو السر الخفي للروح.. لا تعرفين أبدًا مع من ستتآلف روحك.. ولماذا هو بالذات.. ولماذا تنفرين من غيره.. إنه شيء لا يُمكن قياسه بالحسابات.. ولا يُمكن رؤيته بالعين المجردة.. الحب سر إلهي يقذفه الله

في قلب من شاء وفي الوقت الذي يشاء.

ثم ابتسم قائلًا وهو يرقب نظراتها المتعلقة بوجهه:

- ألم تُفكري في أن الله قد أصلحني من أجلكِ؟ لو كنتُ قابلتكِ بشخصيتي القديمة ربما كنتِ قد بغضتِني مثل «مدينة» ونقمتِ عليّ مثل «عين».. إنما أصلحني الله لَأجلكِ.

فكَّرتْ «شفق» في ذنبها القديم، ولولا أنها لا تريد أن تهتك ستر الله عليها لأخبرته كيف أصلحها الله هي الأخرى لأجله.

تسابقتْ عبرات التأثر فوق وجنتها، فضمّها إلى قلبه، ثم بحركة مفاجئة حمل قدمها ووضعها في موضع ركوب الجمل. نظرت إليه بذهول فقال مازحًا:

- آن أوان تعلُّم ركوب الجمال يا زوجة سيد الرمال.

لم يأبه لاعتراضها، ولا لتوسلاتها لكي يعتقها من هذه الرحلة. وقف الجمل على قوائمه الأربع؛ تشبّثتْ به بقوة، تعلم أنه ما دام بجوارها لن تسقط.

توجه بها إلى محمية «رأس محمد» وهناك أراها «البحيرة المسحورة». وقفتْ «شفق» أمامها مشدوهة لروعة خلقها، ودقة صُنعها؛ يتبدّل فيها لون المياه حتى سبع درجات يوميًّا، بتغير درجة الشمس العامدة بأشعتها عليها.

همس بحنان يرمي معنى استقر في قلبها:

- يتغير الماء بتغير الشمس.. إذا كان الماء جميلًا فهذا لأنه يستظل بشمسٍ ساحرة.

التفتتْ ترمقه بفرحةٍ زرع بذورها بداخلها، فأخذ يجمع الثمر في غفلة من العيون. تهادى بهما الجمل فرحًا بعودة سيده، يتعرف إلى امرأة سيده التي تجلس فوق ظهره للمرة الأولى، بلغا حدود أرضه، رأتْ نباتًا كالبصل سيقانه طويلة يصطف مثل الجدار، أشارت صوبه وسألته عنه. قال:

- هذا نبات «البصيل» نستخدمه لتحديد أرضنا الزراعية.. لكنه ضار جدًّا للإبل والأغنام.

لمّا لمس منها رغبة في المعرفة أشار إلى نبت آخر قائلًا بحماس:

- وهذا نبت «السكران» سُمي بذلك لأن الأغنام إذا أكلته سَكَرَتْ.. وأما الإبل فلا يُسكِرها.

ثم أشار صوب نبات آخر، مستمتعًا بتعليمها عِلم البدو، يأكل المسافات ويُقرّب الأفهام:

- وهذا «النعمان».. إذا أكلته الماعز أحدث لها مغصًا وأماتها.. لكنه لا يضر الضأن.

عند الغروب كانا قد وصلا إلى أطراف البحر الأحمر القريبة من أرض «السوارفة». أناخ الجمل وأنزلها برفق، وفوق الرمال أشعل فحمًا وأعد فوقها فنجانين من القهوة. كانت مرّتها الأولى التي تتذوق فيها القهوة المُعدّة بالفحم، أسكرتها اللذة مثلما يُدير نبت «السكران» رؤوس الأغنام.

طافت بعينيها فيما حولها وكآنها تعيش في آجواء سحرية، خرجت من جنبات إحدى حكايات ألف ليلة وليلة.

طريق شاق مرا خلاله حتى وصلا إلى هذه النقطة، وطريق أطول ينتظرهما، ممتلئًا بالمَشاق والصعاب، تلك هي الحياة الدنيا.

أمسك بوجهها وأداره صوب البحر، همس بحماسٍ بجوار أذنها وهو يُشير بإصبعه بعيدًا:

- يلتقيان.

نظرتْ إلى خط الأفق، حيث يتلقّف البحر الشفق بين ذراعيه بشوقٍ، ويذوب الشفق بين قطرات البحر ويصبغه بألوان طيفه، يتلاحمان ببطء، لكن بإصرار، حتى يذوب الشفق كاملًا في أحضان البحر، ثم يُغلق البحر بوابة الألوان ويخفي الشفق في قلبه..

وكأنه ما خُلِق إلا لأجله..

فتبسّمتْ هامسة:

- موعِدُنا الأُفق.

حديث شريف.

عيناها السابحتان في السماء البادية من وراء النافذة، قطعت اتصالها بالسماء في اللحظة التي انفتح فيها باب الغرفة، فالتفتتْ لامرأة ودود ترتدي الأبيض وتقول ببشاشة:

- صباح الخير يا «دنيازاد».. جاءتكِ «شهرزاد».

التفتت «دنيازاد» بترقب وبهجة، تُعانق أختها القادمة لزيارتها بشوق ولهفة. سألتها أختها في دهشة:

- «دنيازاد»! «شهرزاد»!

أجلستها بجوارها وقالت لتزيل عنها حُجُب الحيرة:

- «دنيازاد» هي أخت «شهرزاد» في حكايات «ألف ليلة وليلة».

- ما علاقة هذا بنا؟

أشارت إلى نفسها تقول:

- أنا «دنيازاد».

ثم أشارت إلى أختها تقول:

- وأنتِ «شهرزاد».

قالت أختها ضاحكة:

- ولماذا لستُ أنا «دنيازاد» وأنتِ «شهرزاد»؟

أجابتها ببساطة:

- لأن «شهرزاد» هي بطلة الحكاية.. هي التي تزوجت «شهريار» وأنجبت منه ثلاثة أطفال.

مسحت أختها فوق بطنها المنتفخ قائلة:

- تُبشرينني أن «أفُق» سيكون له أخوان آخران إذن.

بادلتها البسمة ثم قامت وأحضرت مجموعة كبيرة من الأوراق المرتبة بعناية ووضعتها فوق قدمي أختها وقالت:

- تلك حكايتنا.

تأملت أختها الصفحة الأولى بدهشة تقرأ عنوان الحكاية:

- «رايات الشوق»!

أومأت برأسها تقول باسمة:

- كتبتُ حكايتنا يا «شفق».. وما خفي عني استعنتُ بالنجمات كي تقصه عليَّ.. أصبحتُ الآن أفهم في لغة النجمات.. نتلاقى كل مساء.. فتُسمعني حكايات شتى.

مسحت «شفق» فوق شعر «دهب» وهي تتذكر ما قاله الطبيب عن دفعها لكتابة الحكاية كوسيلة للوقوف على أخطائها، كان يطلب منها إعادة كتابة المشهد الذي تُزيِّفه وتحيد به عن الحقيقة الواقعة.

شيئًا فشيئًا تعلّمت كيف تحكم على الحدث والمشهد، ورآت بوضوح موضعها الصحيح من الحكاية، وفي تلك اللحظة أدركت، أنها مريضة وبحاجة إلى المساعدة.

اتسعت ابتسامة «شفق»، إذ إنها لم تكن لتظن أن لـ «دهب» القدرة على القيام بعمل يستلزم الإصرار والمثابرة. أمسكتْ بالأوراق كأنها كنز ثمين، وهنأتها على نجاحها في استكمال الحكاية لآخرها.

بشّرتها «دهب» بحماس:

- قررتُ أن أكتب حكاية ثانية.

ثم همست وهي تشير إلى الجدار أمامها، والذي يفصلها عن الغرفة المجاورة:

- حكاية الرجل الذي كان نزيلًا هنا في المصحة.. كان يقيم في الغرفة المجاورة.. حكايته جديدة عجيبة جدًّا.. ستُبهركِ تفاصيلها.

سألتها «شفق» بحماس مماثل:

- وماذا سيكون اسمها؟

همستْ «دهب» في أذنها وكأنها تخشى فساد السِحر إن سمع الناس باسم الحكاية قبل أن تُكتَب:

- «غُصون البُندق».

ثم وضعت إصبعًا فوق شفتيها تأمرها بالتزام الصمت، حتى يحين موعد الحكاية الثانية.

..تمـت بحمـد الله..

نام القمر
وتثاءبَتْ النجمات
فكفَّتْ دُنيازاد
عن سرد الحكايات.